دكتور علي الخطيب

الصيام

من البداية حتى الإسلام



الصيام

الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى سائر أنبياء الله الأكرمين ، وعلى آلهم وأصحابهم وأنصارهم الذين اتبعوهم باحسان الى يوم الدين ٠

وبعد :

فقد اطلعت على ذلك البحث المستفيض الذي أنجزه ـ بعد روية واتقان : فضيلة الأستاذ الشيخ « علي أحمد الخطيب » بمجمع البحوث الاسلامية بالجامع الأزهر الشريف ، وعنوانه : « الصيام من البداية حتى الاسلام » ٠

اطلعت عليه وراجعته ، وفحصت القسم الاسلامي منه فوجدته يسير ويتجه في حدود الآيات الكريمة ، والسنة النبوية السليمة ، وقد وجدته ـ عند الاحتياج الى رأي العلماء ـ يسترشد برأي الحافظ بن حجر العسقلاني من الأئمة المشتغلين بالحديث ،وبرأي العالمين الجليلين السلفيين : ابن جرير الطبري،

وابن كثير القرشي من علماء التفسير ، فلذلك خرج ذلك البحث صحيحا نقيا مصفى لم تكدره آراء ضعيفة ولا استنتاجات سقيمة سخيفة • ثم انه لما حاول العروج الى تفسير الآية الكريمة : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » تخير من كتب التفسير ، ومن كتب الحديث ما راق ورقى في السلامة والقبول ، ثم توسع ـ حفظه الله ، وجزاه عن الاسلام خير الجزاء ـ فتتبع الأمم السابقة من أهل الكتاب ، ومن غير أهل الكتاب حتى وصل الى الغابات ومن فيها من القبائل البدائية فنقل ـ مما وصل اليه من كتب التاريخ على اختلاف ألوانها ونحلها ـ صورا مختلفة من صور الصيام الرياضي الصحي والتأديبي والتعزيري وكان في بذله ذلك المجهود ـ مؤديا لفرض الكفاية عن علماء الأزهر جميعا ، فقد خرج ببحثه عن نطاق صحن الأزهر الشريف الى القاعات الجامعية الباحثة عن العلوم والمعارف والشوارد الثقافية ، ولقد روى الغلة ، وشفا الصدر عندما ترجم للطائفة أو القبيلة التي ورد الحديث عنها كي لا يكون في الحديث جهالة ولا نكارة •

وسيرى القارىء المتدين بين يديه بحثا فقهيا في الصيام عند المسلمين ومرجعا ثقافيا عن الصيام عند جميع الفرق الكتابية وغيرها حتى البدائيين : يعيش القارىء معهم ، ويشهد صيامهم وافطارهم بسبب صدق نقله ، وأصالة قلمه ، ودقة تصويره •

أسأل الله عز وجل له تمام التوفيق وحسن القبول ، ولمؤلفه الجديد تمام النفع وشمول البركة ، كما أسأله تعالى أن يلهمه الصواب ، وأن يمنحه التوفيق فيما يخرج لنا بعد ذلك من بحوث علمية : شرعية أو أدبية ، واني أهنىء مجمع البحوث الاسلامية بهذا الشبل الجديد الذي أخرج مؤلفا هو ـ بحق ـ من أجود ما

ينفع المسلمين ، ويعرف غير المسلمين بالاسلام ، وتلك ـ في الحقيقة ـ أهم أغراض المجمع العظيم .

والله ولي التوفيق .

مصطفى مجاهد عبد الرحمن
رئيس قسم
الفقه المقارن بكلية الشريعة والقانون
بجامعة الأزهر الشريف

٢٣ من صفر ١٤٠٠هـ
٢ من يونية ١٩٨٠م



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم ـ خاتم النبيين والمرسلين ، وعلى آله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين • وبعد :

فان الله اختار الحق لعباده دينا يسر عليهم شريعته ، وخفف عليهم مؤنته ، وهداهم النجدين (١) فاهتدى منهم من اهتدى فرضي بالله ربا ، وبوحيه دينا ، ومارس شريعة رسوله تعبدا ، فما ضل ولا غوى •

وآثر فريق أن يختار لنفسه ـ معجبا برأيه ـ فجعل لنفسه دينا عن فكره ، وشريعة عما استحسنه ، ولم ير لله عليه حقا ، فطمس بصيرته ، وأحال فطرته ، وضل سواء السبيل •

وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ، وكان الحق فيما آتاهم الله من علم : نجا من أخذ به والتزمه ، وصارع الحياة من ازور عنه وصارعته ، فكان جهدا فادحا وثمنا باهظا تحول بعده الى متاهات ، جمد عليها البدائيون ، وتطور عنها المتحضرون وسارا مع التاريخ تارة ، وفي الظلمات تارات ؟؟

---

(١) هما طريقا : الخير والشر .

وعلى أي الأحوال كانوا يلتمسون الدين ، فالدين يلتمسه البدائي والمتحضر على سواء ، لايمان كل بحاجته اليه لأنه نصيره ومعينه وهاديه ومنجيه ·

وبين البدائيين عقائد تجمعها فلسفة تستسيغها عقولهم ، وتتعلق بها أفئدتهم ويعكف المتحضرون على عقائد ، بعضها أديان لها أصلها السماوي وبعضها وثني النشأة والطابع ·

وكذلك الحال من عصور مضت ·

ولقد اهتمت هذه الدراسة ـ وهي تعالج الصيام ـ بالبحث في هذه العقائد ، وعلاقة الصيام بكل منها ، لتقدم منه نماذج في أطار عام يجمعها « كف دائم » أو « كف مؤقت » عن شيء بعينه ، لذا تناولت هذه الدراسة مباحث الكف عن :

أ ـ الطعام والشراب وشهوة الفرج ·

ب ـ والكف عن الكلام ·

ج ـ والكف عن العمل ·

والجزء الأول من هذه المباحث مصطلح عليه بتسميته « صياما » ·

وأما الثاني : فقد كان « صياما » بدوره الى جانب الصيام الأول في عقائد سالفة ·

وأما الثالث : فكان استطرادا لمباحث « الكف » فيها · الأمر الذي اقتضى النظر فيما هو كف دائم عن شيء على الانسان ألا يمارس محظوراته · ومرونة اللغة تتسع لتسميته « صوما (١) » ·

وسوف نمر ـ في تلك الصفحات ـ بتشريع خالص لله ، ليس

---

(١) راجع مادة « صيام » في أمهات المعاجم .

فيه من عند البشر شيء ، وآخر برئت منه السماء فهو خالص من عند البشر ، جاءوا به من أنفسهم ، وان الأمر ليختلف بين هذا وذاك ، وابراز كل منهما كفيل ـ اذا تيسرت للقارىء سبيل المقارنة ـ وآوى خلالها الى نزاهتـه ـ باظهـار سمو التشريع السماوي الذي ارتضاه ربنا لعباده الى يوم الدين ·

ان كثيرا من التشريعات : سماوية أو بشرية ، قد اندثر ، ومن الصوم الوضعي ما كفر به أصحابه ، وأعلنوا ـ صراحة ـ عدم جدواه ·

ومن الوضعي مـا فرضه مخترعوه في ظروف غير ملائمـة للانسان ، ولم يكن ذلك منهم تشريعا تقرر عن ارتجال ، بل كان ـ للأسف ـ مقصودا فرضه في هذه الأحوال عن روية وتفكير ·

ومن العقائد ما كان الصيام فيها بعيدا عن الشمول ، فقصرت فرضه على نوع دون آخر من الناس ·

وقسا بعضها ففرضه على الهرم كأنه على نضرة الشباب ·

وأغربت أخرى فحرمت الغذاء على الانسان مدى الحياة ·

وقابلتها ديانة حرمت الصوم كذلك مدى الحياة ·

صراع عجيب ما قصد الى علاج الجسد ، ولا هدف الى مران الروح ·

ولئن دلت قسوة بعض هـذه التشاريع على مقدار طاقـة الانسان في تحمل الصيام ، فقد أتاحت للانسان أن يتبين مدى رحمة الله فيما شرع من صوم في الاسلام ·

وكان على هذا البحث أن يعرض للصيام من لدن آدم عليه الصلاة والسلام ، فالنبوات الأولى ، ثم يبحث أمره بين البدائيين ثم يدرس الصيام في عصوره التاريخية ، حتى ينتهي الى دراسته في الأديان السماويـة ، ويختم ذلك بالاسلام في عرض متروك

للدراسة والتعقيب ٠

من هنا سنجد أن شرعة الصوم في الاسلام دون الطاقة : رحمة وفضلا ، وفوق القصور سعة وشمولا ، فانها تلمس واجب النمو في جسد الصبي ، وحق الراحة لجسد الهرم ، وتدرك حق الجنين في غذائه ، وحق الرضيع في نموه وترفق بالمسافر في رحلته والمريض لتعينه على برئه ٠

ان الاسلام شريعة واعية بالانسان لأنها من لدن خالقه ، لذا سايرت خلقه فكانت هدى ورحمة ، ولم تكن ابتلاء يشكله املاء وتحذير في ازورار عن حاله وغض من حقه ، فكان الصيام فيها فضلا ونعمة وهدى للمتقين ٠

والله أرجو أن يجعل من هذا « البحث » علما نافعا وزادا هاديا ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، انه قريب مجيب ٠



والحمد لله رب العالمين ٠

والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ٠

انتهت بمدينة طنطا في ١٥ من ربيع الآخر ١٣٨٤هـ

وروجعت بالمدينة المنورة وانتهت في ١٥ من ربيع الآخر ١٣٩٩هـ



مع النبوة الأولى

الانسان الأول

تقدم لنا الكتب السماوية الانسان الأول في صورة تختلف عن تلك التي يقدمها التاريخ وعلم الانسان « انثروبولوجيا » ٠

فهو في كتب السماء قد خلق في أحسن تقويم ، وعاش شطرا من حياته في رحاب الجنة خير البقاع وأروع الأماكن ، واعيا كامل الوعي سوي الخلق ، تام العلم بما علمه المولى ـ عز وجل ، قال تعالى :

« وعلم آدم الأسماء كلها (١) » ٠

ثم هبط الى الأرض غير مجرد من المعرفة التي علمه ربه ، تحفه رحمة الله ، ومعه من « ثمار الجنة ، وعلمه الله صنعة كل شيء (٢) » فأوى الى أرض استطاع أن يستصلحها ، وينتفع بها ، ويتقي أذاها ، فاطردت حياته فوقها في مدنية تناسبه ولكنها مدنية مستنيرة في حياة طيبة ، يعلم صاحبها كيف يعيش حياة طيبة طاهرة بفضل تعليم مولاه ، والتزامه به ، وظل لهذا الانسان الكريم ، وكذلك ظل لنسله فضل تلك الحياة الطيبة ، ما استقام ذلك النسل على أمر الله ٠

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ٣١ ٠

(٢) جزء من حديث صحيح رواه الطبري مرفوعا حكما موقوفا لفظا ، ورواه عبد الله بن احمد بن حنبل مرفوعا صراحة ـ راجع تفسير الطبري ٣٩٣/١ ـ الحديث رقم ٥٣٧ ٠

وفي « علم الانسان » وفي مراجع التاريخ انسان أول :
نقرأ عنه حياة وصفات وأخلاقا تختلف ، بل تناقض تلك الصورة السامية التي نتلوها في كتب السماء ٠

فهو ـ في هذه المراجع ـ فظ غليظ القلب ، غرزي الطبع ، لا عقل يهديه ولا حكمة ترشده ، ولا أدب يتحلى به ، انما هو وحش كاسر ينساق لحاجته دون سواها ، لا يرتقي عن ذلك درجة ، ولا يخالف ـ في ذلك ـ بقية الحيوان من أي نوع ، بل ربما كان بعض الحيوان المدخر ـ تأمينا لظروف المستقبل خيرا منه حالا ، وأعلى في مدارج الرقي درجات ، أما هو فقد استمر دهرا طويلا لا يتمتع بميزة الادخار التي كانت ، ولا تزال ، للنمل ٠

وهاتان صورتان تبدوان ـ للوهلة الأولى ـ متناقضتين ، وليس الأمر كذلك فليس ثمة خلاف ـ في الواقع ـ بين الدين ، والتاريخ ، ومثله علم الانسان ، وكل منهما ـ على حق ـ فيما قدم من حديث ووصف ، اذ بداية كل منهما غير بداية الآخر ، ومبدأ الانطلاق بينهما غير واحد ٠

ان كتب السماء ، حين تقدم لنا الانسان الأول ، انما تعني « أول انسان خلقه الله » فتتحدث عن كيفية خلقه : بداية ونهاية ، وتطورا وغاية ، وتبين رسالته ، وما أراد الله له من مكانة وتشريع عليه أن يحرص عليه ، ويدعو اليه ، ولا يضل عنه ليصاحب التشريع حياته ، ويرسم نهج سلوكه حتى ينتهي أمره بلقاء ربه ٠

والتاريخ ، ومثله « علم الانسان » لا يبدآن من هذا المنطلق ، وانما يكتب كل منهما عما بعد ذلك بآلاف السنين ٠٠٠ عن انسان انفصل عن حضارة أصله القويم وطريقه المستقيم ، وفقد الوسائل التي تدنيه من مجد ، وترقى به الى حضارة لأنه فرط

في الرسالة التي كانت لسلفه العظيم فانقطع عبر الزمن الى ضلال عريض هبط به دركات ضاع معها سمو روحه ، ونبل أصله ، وانتهى به المطاف الى سكنى الكهوف حيث ترك آثارا ساذجة أرشدت اليه التاريخ فيما بعد ، وبدأ التاريخ يكتب عن هذه الحلقة ··· حلقة الجاهلية المسبوقة بحلقات ، كانت يوما تتصل بأصله العظيم ، وسلفه الكريم الذي خلقه الله في أحسن تقويم والذي عاش حيث لا تمتد اليه يد التاريخ ، ذات المنهج المحدود ، ومن هذه الحلقات الأخيرة ، قدم التاريخ ، « وعلم الانسان » ما أسمياه :

« الانسان الأول » ·

فالتاريخ يقدم الانسان من خلال آثاره ، وما اليها من حروب أو مذكرات أو حفائر ، وهي آثار لا تتصل بأول انسان خلقه الله ، بل انها آثار لا تبتعد أكثر من آلاف عدة قبل العصر التاريخي لجزء من البشر ·

ويقدمه المولى من علمه وخلقه ، فهو أثر من صنع خالقه القائل : « فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين (١) » وهو سبحانه بكل شيء عليم ·

ان الانسان الأول الذي خلقه الله هو آدم أبو البشر ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ·

والانسان الأول في التاريخ وعلم الانسان هو « مجموعة » من الأناسي التي عاشت في عصور لم يسبر غورها التاريخ ، فيما قبل عهد الزراعة من عهود الصيد وجمع الغذاء ··· الخ ·

---

(١) سورة الاعراف ـ الاية ٧ .

وان صورا مطابقة لما يروي التاريخ وعلم الانسان لا تزال تعيش الى اليوم بقمم استراليا وغيرها على هذه الحال ·

على أنه من الخطأ الشامل ـ الاعتقاد بأن عصرا ما ـ مهما كان ذلك العصر ضاربا في أغوار الماضي حيث لا تاريخ ـ قد عاش فيه الناس في كل بقعة مارسوا فيها الحياة ـ وهم جميعا في درجة واحدة من مستوى حضاري معين ، وليس لنا دليل واحد يعطي عصرا ما عاش الناس جميعا فيه تشملهم بدائية واحدة ذات قانون غابي واحد ، أو عصرا جمع البشر على مستوى واحد رفيع تمتعوا خلاله بحضارة راقية شملتهم جميعا ·

لقد كانت مصر تتمتع بمدنية أصيلة ، فيما قبل خمسة آلاف سنة ، ومثلها الهند ، ثم اليمن ، على حين ظلت الدنمارك تمارس أكل لحوم البشر في ظل القانون حتى القرن الحادي عشر من بعد الميلاد (١) ·

ونحن ـ في عصرنا هذا ـ بلغنا القمة ، أو نكاد نحو تكامل حضاري فريد ، بينما تنتشر عبادة « التوتم » وينتشر عبادها في استراليا وافريقيا وأمريكا نفسها ، وهي عبادة من أقدم العبادات في تاريخ البدائيين ·

اننا نعيش ـ في عصرنا هذا ـ مع الرجل البدائي ممعنا في بدائيته غير منفصل عنها الا بيسير يبدو في « المظهر » ليس غير ··· وهو نفس الانسان الذي يحدثنا عنه التاريخ تارة ، وعلم الانسان أخرى ، ونحن ـ في مجموعنا ـ نختلف حضارة وبدائية ، والأمر كذلك لم يختلف منذ آلاف السنين ·

لقد كان كفر الانسان وضلاله ، وفسوقه عن أمر ربه ،

---

(١) راجع : ول ديورانت ـ قصة الحضارة ، المجلد الاول ١٩/١ نشر الجامعة العربية .

وعصيانه ـ سببا أوليا في جاهليته وانتكاس روحه ، فحين اتخذ الهه هواه أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فانطمس اشراق روحه وضل السبيل ·

فأما من كان على هدى وبصيرة ، فقد كانت حياته على شاكلة من عقيدته : سليمة السلوك ورفيعة المستوى ، وهذا واقع ملموس في أي الأزمنة وأي الأمكنة ، فما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم ، أو يودي بهم بعد أن اصطفاهم ، وهم قائمون على منهجه عابدين له مخلصين في طاعته ·

قال تعالى : « وما كان الله ليضيع ايمانكم (١) » ·

واذا كان موضوعنا يتناول صيام البشر ، فان الديانات تمده برفد ، ويمده التاريخ بآخر ، فلنا من كل عون ، ولنا من كل مصدر ··· وحق آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يكون أول الحديث ·

---

(١) سورة البقرة ـ الاية ١٤٣ ·

آدم عليه الصلاة والسلام

يقضي بحث صيام أبينا آدم ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ أن ندرس قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » فمن هم الذين من قبلنا ؟

ان حديث المفسرين ينتهي ـ بنا ـ الى أمرين :

الأول : يجعل « العموم » غير مقيد في الموصول وصلته ، أعني « الذين من قبلكم » فيعتبر الصيام فريضة مشروعة ، ذات نهج وكيفية ، تزداد أيامها أو تقل ، على كل من كان قبلنا من عهد أبينا آدم ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ ٠

وهذا الاتجاه في التفسير ينطلق من مصدر لغوي بحت ، ولا يسوق مع هذا المنحى دليلا من « وحي » يرجع به أمره ٠

والثاني : يتجه بكليته اتجاها « منطقيا » بحتا ، حين يرى « العموم » غير المقيد بـ « كل » يسبقه ـ دلالته على « البعض » أو « الجزء » محققة وعلى « الكل » ظنية ٠

وكأنه يفرق بين لفظي :

« الذين من قبلكم » وهو اللفظ الوارد في الآية الكريمة ٠

و « كل الذين من قبلكم » وهو لفظ لم تتحدث به الآية ، ثم يلتمس « اليقين » من بين ذلك فيعتبر أن الصيام كان فرضا

على الذين من قبلنا مباشرة ، أي كان فرضا في شريعة المسيح ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ ولا يبتعد أكثر من ذلك .

وهذا الاتجاه ، وان لم يبين فكرا منطقيا صراحة ، الا أنه باد عليه .

كذلك القدر الذي فسر به لا مطعن عليه ، ولا يحتاج فيه الى دليل فالآية صريحة الدلالة عليه ، والاتفاق تام وقائم على صحة فرض الصيام في شريعة المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

والآية ـ كما نرى ـ احتملت كلا التفسيرين .

ويعني ذلك أن صيام آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحتاج الى دليل خاص يتناوله صراحة .

لقد عاش آدم وحواء حياتهما بين فترتين :

أولاهما في الجنة .

والثانية على الأرض .

ومن الحق أننا لا نجد اجابة اذا سألنا عن صيامه عليه الصلاة والسلام ، وهو صيام ـ اذا كان مشروعا ـ يشمله هو وزوجه :

كيف صام ؟

وما مقدار صيامه ؟

وحدود تشريعه ، وأنواعه ؟

نعم ، لا نجد عن ذلك اجابة ، نفيا أو اثباتا .

صحيح أننا نجد أول قرار بتحريم أبدي لنوع من الطعام يصدر لآدم وزوجه في الجنة ، وهو قرار بالكف الدائم عن أكل نتاج الشجرة التي نهاهما الله عنها في قوله ـ سبحانه :

« ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (١) » .

---

(١) سورة البقرة ، الاية ٣٥ ـ وسورة الاعراف ـ الاية ١٩ .

ولكنا لا نجد شيئا عن « كف مؤقت » نعتبره صياما شرعا (١)، ثم ان الجنة دار « تكريم » وليست دار « تكليف » ، ويبدو التكريم الالهي لآدم وزوجه في الجنة في وعد الله لهما ألا ينالهما فيها جوع ولا عطش وألا يمسهما حر ولا قر ، فقال تعالى :

« ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى • وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى (٢) » •

قال الصفوي :

قابل ـ سبحانه وتعالى ـ بين الجوع والعري ، والظمأ والضحو ، وان كان الجوع يقابل العطش ، والعري يقابل الضحو ، لأن الجوع ذل الباطن والضحو حر الظاهر ، فنفى عن ساكنها ذل الظاهر والباطن ، وحر الظاهر والباطن (٣) اهـ •

ثم كانت حياته وزوجه ـ عليهما الصلاة والسلام ـ بعد أن هبطا من الجنة الى الأرض ، وقد سبقتهما رحمة الله اذ تاب عليهما ، وزودهما من ثمار الجنة (٤) وتعلم آدم كيف يقيم حياته على سطحها •

وهذه الفترة أيضا لا يقدم لنا فيها أي كتاب سماوي شيئا عن صيامه ، ولم يقع لي حديث صحيح يدل عليه •

وانما نجد ذكر صيامه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث نجده ـ خبرا لا تقوم به حجة ، ولا يستقيم به علم ••• حديثا أقرب الى خيال القصاصين منه الى علم ينتفع به •

---

(١) ان الكف الدائم عن شيء « ما » يمكن اطلاق كلمة « صيام » عليه من خالص مدلولها اللغوي ، اما الصيام بمدلوله الشرعي فهو كف مؤقت عن أشياء بعينها له بداية معلومة ونهاية محددة . المؤلف .

(٢) سورة طه ـ الآيتان ١١٨ ، ١١٩ « ضحا بزنة سعى ورضى ضحوا : اصابتـه الشمس » .

(٣) راجع للعلامة الشيخ الجمل ـ الفتوحات الالهية ـ الجزء الثالث ـ الايتين ١١٨ ، ١١٩ من سورة طه .

(٤) انظر ص (١٣) من البحث .

فكما سمح القصاصون لأنفسهم أن يتحدثوا عن أبوينا : آدم وحواء ــ عليهما الصلاة والسلام ــ بما لهم من خيال رحيب خصيب ، فقالوا ــ فيما نقله الثعلبي النيسابوري :

« بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة ، ولم يأكلا ولم يشربا أربعين سنة ، ولم يقرب آدم حواء مائة سنة (١) » ٠

كذلك فعل بعض الوضاعين (٢) بما لهم من باع في الكذب الصراح ، والتلفيق الجريء ، ثم الاسناد بعدهما الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

أ ــ فهذا موسى بن نصر البغدادي الذي أجرى على ألسنة كبار التابعين أحاديث منكرة ــ كان من رجال هذا الخبر :

« افترض الله ــ تعالى ــ على أمتي الصوم ثلاثين يوما ، وافترض على سائر الأمم أقل وأكثر ، وذلك لأن آدم لما أكل من الشجرة بقي في جوفه ثلاثين يوما ، فلما تاب الله عليه أمره بصيام ثلاثين يوما بلياليها ٠

وافترض علي وعلى أمتي بالنهار ، وما نأكل بالليل ففضل من الله تعالى (٣) » ٠ والخبر « موضوع » يجمع الى كذبه ركاكة في اللغة والتركيب ، ولم يفطن الى ما فيه بعض المؤلفين فظن أنه السر في كون الصيام ثلاثين يوما (٤) ٠

---

(١) راجع لابي اسحاق احمد بن محمد الثعلبي النيسابوري ــ العرائس في قصص الانبياء ص ٢١ نشر مكتبة الجمهورية ــ القاهرة .

(٢) مفرده : وضاع ــ بزنة : كذاب ومعناها . وهو الذي يؤلف الاحاديث والاخبار تأليفا من عنده ، ثم ينسبها الى الرسول صلى الله عليه وسلم ــ او الصحابة او التابعين .

(٣) راجع للامام ابي الحسن الكناني ــ تنزيه الشريعة المرفوعة عن الاخبار الشنيعة الموضوعة ص ١٤٥ ــ نشر مكتبة القاهرة .

(٤) راجع للامام بدر الدين العيني ــ عمدة القاري . شرح صحيح البخاري (٢٥٤/١٠) المطبعة المنيرية .

ب ـ وكذب آخر على الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فادعى أنه قال :

« سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أيام البيض ، فقال :

ان آدم لما عصى وأكل من الشجرة أوحى الله اليه :

يا آدم ، اهبط من جواري ، وعزتي لا يجاورني من عصاني ٠

فهبط الى الأرض مسودا ، فبكت الملائكة وضجت ، وقالوا :

يا رب ، خلق خلقته بيدك ، وأسكنته جنتك ، وأسجدت له ملائكتك في ذنب واحد حولت بياضه ٠

فأوحى الله اليه : يا آدم ، صم لي يوم ثلاثة عشر ، فصامه فأصبح ثلثه أبيض ٠ ثم أوحى الله اليه : يا آدم ، صم لي اليوم ، يوم أربعة عشر فصامه فأصبح ثلثاه أبيض ٠ ثم أوحى الله اليه : يا آدم ، صم لي اليوم ، يوم خمسة عشر ، فصامه ، فأصبح كله أبيض ، فسميت الأيام البيض » ٠

والخبر على كذبه حوى مراجعة من الملائكة لله ، وهذا ـ وحده ـ كاف في اسقاطه (١) ٠

وسنده مردود ففيه رجلان مجهولان ٠

وطريقه الذي أورده العلامة الديلمي فيه وضاع ومجهول وسنده الذي أورده العلامة ابن عساكر فيه رجال مجاهيل ، فالخبر ساقط ، وقد يكون واضعه محمد بن تميم الفاريابي (٢) ٠

تلك أخبار صيام آدم ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة

---

(١) انما كان كذلك لعدم وقوع مراجعة من الملائكة لله ــ سبحانه ــ بعد ما ورد بسورة البقرة : « اتجعل فيها من يفسد فيها .. » الآية (٣٠).

(٢) راجع الخبر والحكم عليه للكناني ــ تنزيه الشريعة ٢/٥٤ .

والسلام ـ ما منها خبر تقوم به حجة ، أو يبرهن لعلم صحيح ، صنعت استرزاقا بالقصص واشباعا لتسلية العوام ، وكم جنى القصص على العلم والتاريخ ٠

وليس يعني ذلك أننا نذهب الى عدم صيامه ـ عليه الصلاة والسلام ـ انما أطرح الأخبار الواردة في صيامه معقبا بالحكم العلمي عليها ، فأما صيامه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلا ننفيه ولا نثبته فأي الجانبين في حاجة الى برهان ٠

والأمر ـ من بعد ذلك ـ مطروح للباحثين ٠

كذلك لم يأت في القرآن الكريم تصريح بشأنه يدل على تحريم شيء عليه بالأرض ، وما رواه أبو الطفيل أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ نزل « بتحريم أربع : الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ،وما أهل لغير الله به٠٠٠ » الخ فأثر غريب (١ ـ ٢)٠

---

(١) راجع للامام عماد الدين ابي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي ـ تفسير القرآن العظيم ٢/٨ ـ دار احياء الكتب بمصر ١٣٧١ ٠

(٢) الغريب : هو الحديث الذي تفرد به راو واحد ، ولو في طبقة واحدة في اصل السند حيث الصحابي والتابعي ، او في غير أصل السند حيث تابع التابعي ومن يليه ، ويطلق عليه ـ ايضا : « فرد » ـ راجع للاستاذ محمد علي احمد ين ضوء القمر على نخبة الفكر ص ١٩ ـ ٢٤ ط اولى ـ دار المعارف للطباعة والنشر سنة ١٣٦٨هـ ٠

ادريس عليه الصلاة والسلام

ذكر الله ـ عز وجل ـ في سورة مريم ـ من الأنبياء :

زكريا ويحيى ، وعيسى بن مريم ، وموسى وهرون ، واسماعيل ، وادريس ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ثم قال تعالى :

« أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين
من ذرية آدم
وممن حملنا مع نوح
ومن ذرية ابراهيم
واسرائيل
وممن هدينا واجتبينا
اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا (١) » .

قال الامام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي في تفسيره لهذه الآية الكريمة :

« قال السدي : والذي عنى به من ذرية (من حملنا مع نوح) ابراهيم . والذي عنى به (من ذرية ابراهيم) اسحاق ويعقوب واسماعيل .

والذي عنى به من ذرية (اسرائيل) موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم . قال ابن جرير :

---

(١) سورة مريم ـ الاية (٥٨) .

ولذلك فرق أنسابهم ، وان كان يجمعهم آدم ، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة ، وهو « ادريس » فانه جد « نوح » « قال ابن كثير : هذا هو الأظهر (١) » .

يعني أنه الرأي الراجح ، فأما ما ذهب اليه بعض المفسرين ، وهو أن ادريس ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ من ذرية اسرائيل ونبي من أنبيائهم ، فرأي مرجوح .

وقال الزبير بن بكار ـ رضي الله عنه ـ :

« كل نبي ذكر في القرآن فهو من ولد ابراهيم غير ادريس ونوح وهود ولوط وصالح (٢) » .

واذا قلنا : ان الرأي الراجح ان ادريس نبي قبل نوح ، أو قلنا : ان اعتباره من أنبياء بني اسرائيل رأي مرجوح ضعيف ، اذا قلنا هذا أو ذاك فانما نحن أمام رأيين ، وليس بين أيدينا نص من حجة يدل على أي الرأيين بفصل ساطع البرهان ، فنحن ـ اذا ـ أمام : « احتمال » لا أكثر .

ومن هنا كان اعتبار « ادريس » هو عين « أخنوخ » الوارد ذكره في « العهد القديم » المتداول بين أهله ـ مجازفة تجاوزت الروح العلمية ونأت عنها الى شأو بعيد ـ وذلك لأمور :

أولها : ان « أخنوخ » هذا نص بشأنه في العهد القديم على نسب صريح يجعله الجد الثاني لنوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

و « أخنوخ » والده « يارد » ـ بفتح الراء ـ و « أخنوخ » أبو « متو شالح » و « متو شالح » والد « لامك » وهذا الأخير والد نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ (٣) .

---

(١) العلامة ابن كثير القرشي ـ تفسير القرآن العظيم ـ ١٢٦/٣ ، ١٢٧ دار احياء الكتب العربية .

(٢) راجع للعلامة المفسر سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ٤٤٨/١ ط بيروت ـ دار الفكر .

(٣) راجع العهد القديم ـ تكوين ـ الاصحاح الخامس ـ ١٨ ـ ٢٩ .

ومصادرنا الاسلامية ـ بعلمها الصحيح ـ لا تنص على ادريس من أنبياء ما قبل نوح ، كما سبق أن بينت ٠

ثانيها : ادريس ـ عليه الصلاة والسلام ـ نبي صريح القرآن الكريم ٠ يقول تعالى : « واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا ٠ ورفعناه مكانا عليا (١) » ٠

ونص العهد القديم لا يفيد ـ صراحة ـ نبوة أخنوخ ، وهذا ما ورد ـ بشأنه ـ بعد ذكر والده (يارد) قال :

« وعاش أخنوخ خمسا وستين سنة وولد متوشالح ٠
وسار أخنوخ مع الله بعد ما ولد متوشالح ثلاث مائة سنة وولد بنين وبنات ، فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مائة وخمسا وستين سنة،وسار أخنوخ مع الله،ولم يوجد لأن الله أخذه (٢) »٠

وبين النصين بون عريض ، فان عبارة « وسار مع الله » وتكرارها قد يؤكدان لنا أن أخنوخ رجل صالح ، فاذا اعتبرناه بهذه العبارة ـ نبيا ـ كنا في حاجة الى دليل ، بينما صراحة النبوة واردة في القرآن بشأن ادريس ٠

ثالثها : اذا افترضنا أن (ادريس) هو عين (أخنوخ) فاما أن يكون « أخنوخ » علما ثانيا لـ « ادريس » أو وصفا له ، ومحال اعتبار أحد العلمين ترجمة للآخر ، فان الاعلام لا تترجم، لكنها تنقل من لغتها الأصلية الى غيرها بأكثر حروفها ، ثم يعتريها من الاحوال ما يجعلها يسيرة المنطق في اللغة المنقولة اليها ٠

ومن هنا ورد لنا في عربيتنا « يونس » بدل « يونان » و « اليسع » بدل « اليشع » ، وذكر القرآن « يونس » و « اليسع » عليهما الصلاة والسلام (٣) ٠

---

(١) سورة مريم ـ الايتان ٥٦ ـ ٥٧ ٠
(٢) العهد القديم ـ تكوين ـ الاصحاح الخامس ـ ٢١ ـ ٢٤ ٠
(٣) انظر سورة الانعام ـ الاية ٨٦ ٠

واذا كان أخنوخ علما آخر لادريس أو وصفا ، فان القرآن الكريم ذكر من الأنبياء من كان كذلك بكلا اسميه ، أو اسمه وصفته :

فذكر خاتم النبيين ــ عليه أفضل الصلاة والسلام ــ باسمه : أحمد ومحمد ، وذكر ابن اسحاق بــ : يعقوب واسرائيل ٠

وذكر ابن مريم بــ : المسيح عيسى بن مريم ، ويونس بذي النون (١) ٠ واذا كان الفعل « خنخ » معناه في العبرية «الحنكة» ٠

وهي من الدرس على صلة وثيقة ، فليس ذلك دليلا على أن أخنوخ هو ادريس ، ذلك أن ادريس علم أعجمي يقارن ــ في لفظه ــ بلفظ لغته هو ، ولا يقال : انه مأخوذ من لفظ «الدرس» هذا اللفظ العربي ٠٠٠ الا اذا سمحنا لأنفسنا أن نتجرد تماما من كل القيم اللغوية لكل اللغــات ، وفي مقدمــة ذلك أصول الترجمة ٠

فلنخلص ــ الى عطاء الله ٠٠٠ الى القرآن ، ولا داعــي الى التلفيق ٠ فلسنا في حاجة اليه ٠

ومن العجيب أننا لا نجد نبيا من أنبيائه تعالى حيك حوله ما حيك حول ادريس ــ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ــ حتى قيل عنه : انه باني أهرام مصر ، المتحدي العالم أن يفرشها حصيرا بعد أن فرشها هو ذهبا (٢) ٠

وزادت القصص في أمره ، فجعلته احداها صديقا لملك من الملائكة ليكون الأخير وسيطا له عند ملك الموت فيؤخر أجله ، ثم

---

(١) وانظر سورة الاحزاب ــ الاية ٤٠ ــ والفتح الاية ٢٩ ــ والصف الاية ٦ وآل عمران ــ الاية ٩٣ ــ والانعام ــ الاية ٨٤ ــ والمائدة ٧٥ ــ ٧٨ ــ والانبياء ٨٧ .

(٢) راجع لابن خلكان ــ وفيات الاعيان ٥٤/٢ مكتبة النهضة المصرية .

ما زال يحاور ملكا حتى ولج الجنة وأبى أن يخرج منها (١) ·
وما الى ذلك من أساطير يبرأ منها العلم الصحيح ·

واذ قد فرغنا من أمور علقت به ـ عليه الصلاة والسلام ـ وانتهينا الى شخصيته التي ذكرها المولى لنا ـ وحدها ـ قلنا :

ليس ثم دليل على صيامه ، فانه اذا كان نبيا قبل نوح ، فأمره أمر آدم عليهما السلام ·

وأما اذا كان نبيا بعده فسوف نتبين شرعته ·

فأما ما ورد أنه « كان يصوم الدهر » قبل نوح (٢) ، فانما ورد في الأقاصيص وهي ليست لنا علما ، ولا حجة فيها ·

---

(١) راجع للثعلبي النيسابوري ـ العرائس ص ٢٩ ، ٣٠ ·
(٢) نفس المرجع ص ٣٠ ·

نوح عليه الصلاة والسلام

نوح ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ من أولي العزم من الرسل ، ورسالته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في أصول عقيدتها ، وفي شيء من تشريعها ، كانت وحيا عاما لكل ما تلاها من رسالات ٠

ويذكر رواة مسلمون ـ في مصادرنا الاسلامية ـ الواردة لنا في نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ صيامه وقومه ، في آثار نعطيها ما تستحقه من دراسة ، بعون الله :

أ ـ جاء في مسند الامام أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه :

« حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، ثنا أبو جعفر ٠ ثنا عبد الصمد ، عن أبيه عن شبيل ، عن أبي هريرة قال :

مر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأناس من اليهود قد صاموا يوم عاشوراء ، فقال : ما هذا من الصوم ؟

قالوا : هذا اليوم الذي نجى الله موسى وبني اسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون ، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي ، فصامه نوح وموسى شكرا لله تعالى ٠

فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

أنا أحق بموسى ، وأحق بصوم هذا اليوم . فأمر أصحابه بالصوم (١) » . وهذا الحديث ـ الذي رواه أحمد ـ أدرجه الامام الحافظ ابن حجر ، في شرحه لصحيح البخاري ، دون تعقيب عليه (٢) .

واذا سكت ابن حجر عن « الحديث » في « فتح الباري » دل ذلك على « حسن الحديث » أو صحته ، كما بين ذلك في مقدمته ، حين عرض لمنهجه في ذكر شرح الكتاب .. فقال : عما يقدمه بين يدي هذا الشرح النفيس :

« .. منتزعا كل ذلك من أمهات المسانيد والجوامع والمستخرجات والأجزاء بشرط الصحة أو الحسن فيما أورده من ذلك (٣) » .

ثم نص الشيخ الساعاتي ـ في تخريجه لأحاديث المسند على أن « سنده جيد » فقال ـ عن الحديث :

« لم أقف عليه لغير الامام أحمد ، وسنده جيد (٤) » .

لكن بعض الدارسين يعل الحديث بوالد « عبد الصمد » وهو « حبيب بن عبد الله الازدي » ، لأنه مجهول ، لا علم لأحد بمكانته من التحديث : هل هو ثقة ، أو صدوق ، أو ضعيف ، أو متروك ، ولما كان الحكم بـ « وضع » الحديث ـ في هذه

---

(١) الامام احمد بن حنبل ـ المسند ٣٥٩/٢ ـ المطبعة الميمنية ١٣١٣هـ .
(٢) انظر للحافظ احمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ فتح الباري بشرح صحيح الامام ابي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري ـ ٢٤٧/٤ ـ المطبعة السلفية ومكتبتها بالروضة القاهرة (١٣٨٠) .
(٣) الحافظ احمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ هدى الساري مقدمة فتح الباري ص (٤) المطبعة السلفية ومكتبتها بالروضة ـ القاهرة .
(٤) الشيخ احمد بن عبد الرحمن البنا ـ الشهير بالساعاتي ـ الفتح الرباني لترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيباني ـ ١٧٧/١٠ ، ١٧٨ ـ ط اولى ١٣٥٧ مطبعة الفتح الرباني .

الحال ـ غير جائز ولا مقبول ، رأى أنه « ضعيف (١) » فقط •

قلت : ولكن الحديث استشهد به ابن حجر ، وهو نفسه صاحب « تهذيب التهذيب » وصاحب « التقريب » الذي بين فيهما أن حبيبا « مجهول » فكيف سكت عنه في « الفتح » وأورده بحيث يفهم منه أنه « حسن (٢) » ان لم يكن صحيحا ، وهو العالم بالرجال ، صاحب التآليف فيهم ؟

انما كان الأمر كذلك ، لأن للحديث شاهدا آخر ـ عند ابن حجر ـ قد أورده ـ بدوره ـ في « فتح الباري » أيضا ، وهو من رواية ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال ابن حجر :

« وقد أخرج أحمد ـ من وجه آخر ـ عن ابن عباس ـ زيادة في سبب صيام اليهود له ، وحاصلها ان السفينة استوت على الجودي فيه فصامه نوح وموسى شكرا (٣) » •

فللحديث اذا روايتان ، تشهد كل منهما للأخرى ، ولا على ابن حجر من سبيل اذا أورده بشرطه في « فتح الباري » • وقال ـ رضي الله عنه ـ معقبا :

« وكأن ذكر موسى دون غيره ، هنا لمشاركته لنوح في النجاة ، وغرق أعدائهما (٤) » •

روى الامام محمد بن جرير الطبري ، قال :

« حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن أبي جعفر الرازي (٥) ، عن قتادة قال :

---

(١) هذا راي بعض الاساتذة الزملاء بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة .
(٢) راجع حرف « الحاء » المهملة بكلا المصنفين لابن حجر .
(٣) ابن حجر ـ فتح الباري ٢٤٨/٤ .
(٤) نفس المرجع بنفس المقام .
(٥) الرواة في هذا الخبر هم : القاسم بن الحسن ، عن الحسين بن داود الملقب بـ : سنيد « مصغرا عن الحجاج بن محمد المصيصي ، عن ابي جعفر : عيسى بن ابي عيسى ماهان الرازي ، عن قتادة بن دعامة ابن قتادة السدوسي البصري » .

هبط نوح من السفينة يوم العاشر من المحرم ، فقال لمن معه : من كان منكم اليوم صائما فليتم صومه ، ومن كان مفطرا فليصم (١) » .

ومثل هذه الأخبار لا يتحدث بها التابعي الثقة عن رأي .

وما ورد لنا في صيام نوح يمكن أن نستنتج منه أن الصيام كان بشريعته فرضا ونفلا ، اذ كان في قومه يوم « الجودي » مفطرون ، ولو كان صيامه في هذا اليوم فرضا ما كان بحاجة الى تنبيه المفطر أن يصوم .

فأما ما أورده ابن ماجة بشأن صيام نوح الدهر ، فحديث ضعيف وان كان لا سبيل الى الطعن فيه بكذب ، قال رضي الله عنه :

« حدثنا سهل بن أبي سهل ، ثنا سعيد بن أبي مريم ، عن ابن لهيعة (٢) ، عن جعفر بن ربيعة ، عن أبي فراس ، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : «صام نوح الدهر الا يوم الفطر ويوم الأضحى» .

ورجال هذا الحديث جميعا ثقات الا ابن لهيعة ، فهو صدوق وهم ، مات عام أربع وسبعين ومائة من الهجرة ، واحترقت كتبه سنة سبعين ومائة ، ولا دلالة ــ بين أيدينا ــ تقطع بأن الحديث من روايته قبل احتراق كتبه ، وقد قال الامام الذهبي فيه :

(العمل على تضعيف حديثه (٣)) .

---

(١) راجع بتفسير الطبري ــ تفسيره للاية رقم (٤٤) من سورة هود .
(٢) بزنة كريمة .
(٣) الامام الذهبي ــ الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ١٢٢/٢ مطبعة دار التاليف بالمالية بمصر ١٩٧٢ . وراجع لابن حجر ــ تهذيب التهذيب ٣٧٣/٥ ــ ٣٧٧ .

واذا كان الحديث لدى المحدثين ضعيفا ، ولا دليل على أنه كذب ، فان دلالته « التاريخية » ليست بعيدة عن واقع الأمور :

فقد تحرينا في صيامه : الفرض والنفل ·

فأي مانع يمنع أن ينتهي صيام الفرض في شريعته بـ « عيد » للفطر ؟

و « القربان » أمر مقرر في الشرائع القديمة من عهد آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو من وجه يماثل « الأضحية » في الاسلام ، فما يمنع أن يكون لهم أضحية أو عيد للقربان ؟

ليس ما يمنع وجود العيدين ، بل ذلك هو الأقرب في سنن التشريع وهو الأقرب أيضا في تحريم الصيام في هذين اليومين ·

وقد أورد ابن كثير ـ رضي الله عنه ـ بتفسيره رأيا يرى أن المراد : بـ « الذين من قبلكم » في آية الصيام ـ هم قوم نوح ومن بعدهم ، فقد روى : « ان الصيام كان أولا (أي في الاسلام) كما كان عليه الأمم قبلنا من كل شهر : ثلاثة أيام ـ عن معاذ ـ وابن مسعود ، وابن عباس ، وعطاء ، وقتادة ، والضحاك بن مزاحم ، زاد :

« لم يزل ذلك مشروعا من زمان نوح الى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان (١) » ·

الصيام الأبدي في شريعة نوح عليه الصلاة والسلام :

ونعني بالصيام الأبدي : الكف الدائم عن نوع أو أكثر من

---

(١) الحافظ ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ٢١٣/١ دار احياء الكتب العربية .

الطعام أو الشراب على سبيل التحريم لا يمتنع بجواره تناول شيء آخر (١) .

ويبدو ان هذا التحريم لم يرد في شريعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

قال ابن كثير :

« ان نوحا ـ عليه السلام ـ لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها (٢) » .

يشير ـ رضي الله عنه ـ الى ما ورد بالعهد القديم :

« كل دابة حية تكون لكم طعاما ، كالعشب الأخضر ، دفعت اليكم الجميع (٣) » .

والقرآن الكريم يشير الى صدق ذلك ، قال تعالى :

« كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة (٤) » .

فكان يعقوب ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ ممتعا بتلك الاباحة حتى حرم هو على نفسه لحم الابل أو عروقها وألبانها (٥) .

---

(١) الصيام الابدي : اصطلاح خاص نطلقه في هذا الكتاب على الامساك الابدي عن شيء وسنرى تحريم ذلك في بعض الشرائع ، وتارة يطلق عليه « صوم » كما هو الحال في الامساك عن الكلام . الباحث .

(٢) تفسير ابن كثير السابق ٣٨٢/١ .

(٣) العهد القديم ـ التكوين ـ الاصحاح التاسع ٤ ، ٥ .

(٤) سورة آل عمران ـ الاية ٩٣ .

(٥) تفسير ابن كثير .

مـع البدائيـة ...

البـدائيـون ...

لم تكن حادثة الطوفان عادية لتمر بالبشر مر الكرام ، فلقد تركت أثرا نفسيا عميقا في كل نفوس أجيال الناجين وذراريهم ، وبخاصة مع الذين تطـورت بهم الأمور الى انحراف جديـد ، فأشعلت نفوسهم بمشاعر الحذر الرهيب من طوفان جديد ... الى درجة بات ـ معها ـ كل سيل طوفانا عليهم أن يتقوه بشعاف الجبال وقننها ، ومن ثم جعل كثير من المؤرخين هذا الحذر سببا في الهجرات الأولى التي عمرت أوروبا وغيرها من بقاع الأرض ، فكانت السيول أو الاحساس بها ، كفيلا بدفع موجات من البشر الى هجرات جديدة ، وباتت حادثة الطوفان المستقرة في وعـي البشر ، وقد اعشوشبت بجانبها الأساطير ، تمثل بجانب حقيقتها الدينية فلسفة تستخدم في « تفسير الكون » ببابل القديمـة وغيرها من البلدان والشعوب ، ونادرا ما لا تجد « نوحا » في تاريخ الأقدمين لأي أمة ، وبخاصة مواطنو الشرق الادنى .

ويعتبر « أوتانا بشتيم » نوح البابليين في قصة الكون (١) .

لقد تم كثير من الهجرات في عصور غير تاريخية ، بمعنى أن الاسباب العلمية المعروفة للكشف والتدوين التاريخي لم تصل

---

(١) ديلا يورت ـ بلاد ما بين النهرين ص ٣٥ ، ١٦٩ ـ الكتاب رقم ٣٥ من سلسلة الالف كتاب .

اليها بعد · وقد يحدثنا التاريخ عن هجرات كثيفة صعدت من جنوب الجزيرة العربية · وأخذت أكثر من طريق في انتشارها بأعلى الجزيرة ، لكنه لا يستطيع أن يتعدى واقع ما وصل اليه ليحدثنا عما كان من هجرات أعمق بداية من عشرات الآلاف من السنين لا علم له بها الا وهما فضلا عن ظن أو علم ، ومن هنا طرح فروضه لمجرد أن يستبين طريقه ليس غير ·

ومهما يكن من أمر فان الانسان كان قد أناخ فعلا بكثير من بقاع الأرض · وبأعداد وفيرة لا علم للتاريخ ببدايتها ، ولا كيفية وصوله اليها ، وبالتالي لا صلة بينه وبين الصراع الذي أدى اليها،وانتهى بتعمير هذه البقاع عن طريق الجهد الانساني·

وبدا من بين ذلك كله ، حقيقة أخرى تؤكد لنا أن بقاعا كثيرة من كوكبنا استطاعت بطبيعتها أن تحتجز كثيرا من البشر ، كما كان الحال في بعض أفريقيا واستراليا ، ومن ثم عزلت أولئك الأناس عن الصلة بمواقع جديدة كان الانسان يتطور فيها لأعلى ويتخذ أنماطا حضارية جديدة ·

وعاشت البدائية ــ سواء منها ما كان في الشرق أو في الغرب ــ فرقا تطور بعضها أشواطا حضاريــة بعدت به عن بدائيته ، وبقي البعض يعيش فيها حتى اليوم · وعلماء الحضارة يسجلون لهؤلاء تاريخا رهيبا بما فيه من عادات وتقاليد ارتفع الحيوان الأعجم عن مستوى بعضها ، فقد كانت نزعة الحيوان في العطف على صغاره دائمة في حين كان بعض هؤلاء البدائيين يأكل أبناءه أو يلقي بهم في النار ·

وفي ضميرهم استقر الشعور بالقوة العظمى التي تدير الكون، فكانت العقيدة الدينية التي دفعتهم الى طلب الزلفى منهـا ، فرسمت عقولهم مناهج الدين أنواعا :

أ ـ عبادة أربابها أجرام السماء ، أو مختارات مما يدب على الأرض ٠

ب ـ عبادة الأسلاف من الآباء والأجداد ٠

ج ـ عبادة العلاقات الجنسية ٠

د ـ التوتمية (١) ٠

وكل من هذه العبادات كان الصوم واحدا من شعائرها ، وجرى في معظم طقوسها على ضربين :

أولهما : فرض عام يشمل جميع الأفراد بالقبيلة يؤدونه في زمن واحد ٠

وثانيهما : صيام يرتبط بأحوال شخصية عارضة يمارس من أجلها ٠

ونضم الى هذا اللون ما تستدعيه « الوظيفة من صيام » ٠

وينبغي أن تلاحظ أن معظم طقوس هذه الأديان الاربعة انتقل مع عشائره عندما صعدت تلك العشائر مراحل أرقى ، فظهر بـ « روما » و « اليونان » و « الهند » في حين بقيت « التوتمية » تمثل ظاهرة من أقدم الديانات البشرية بين البدائيين حتى لتكاد تكون ـ في يومنا هذا ـ وقفا عليهم ٠

ولا يفوتنا أن شخصية الكاهن بين البدائيين ـ وهو أيضا الساحر والطبيب في معظم الاحوال ـ ذات نفوذ غير محدود ، فهو صاحب الكلمة ، وصاحب التشريع وبيده ـ في نظر القبيلة ـ القوة الكفيلة باخراج تشريعاته الى مستوى الممارسة ، فله على أفراد القبيلة تأثير نفاذ ٠

---

(١) سيأتي عنها مزيد تفصيل ، راجع مقدمة ول ديورانت لقصة الحضارة، وانظر تفسير الايتين ١٣٧ ، ١٤٠ من سورة الانعام.
ومزيدا من تفصيل الحياة بقرطاجنة .

وما دام الكاهن له هذه المنزلة ، فينبغي أن نعرض لأمره قبل أن نستطرد في بيان لوني الصوم ، وغيرها من شعائر هذه الأديان المتصلة به ، فقد عاش في حياة هذه القبائل بجانب الصوم ــ الصلاة ، والتوقف عن العمل ، والصمت الذي مثل ــ الى جانب ذلك كله ــ ظاهرة من أقدم العبادات في تاريخ البشر .

لقد كانت أيام الصيام كثيرة للغاية لدى أولئك البدائيين بما لها من مناسبات عديدة ، وربما كانت كثرتها وتواليها في بعض الأحيان مغرية بسوء الظن في صدور الناس بالكاهن الصائم ، فكان عليه أن يثبت للناس صدق صيامه بدليل مادي يقطع الشك ويعقل ألسنة السوء .

لذا كان الكاهن المكسيكي القديم يعمد الى عقل لسانه بقطعة من الخشب تخترق اللسان وتربطه بالشفتين ابتداء من اليوم الأول لصيامه ، هذا الصيام الذي كان يستغرق في أحد الأعياد المكسيكية القديمة ستين ومائة يوم بلا انقطاع ، يصومها الكاهن المعقول ، فاذا جازها بنجاح رفعه أداؤها في أنظارهم ــ الى مستوى أنصاف الآلهة ، فأما اذا عجز فعليه أن يكفر سنة عن هذا العجز بأن يسجن نفسه في دهليز أحد المعابد (١) .

لقد كان كهان هذه الديانات البدائية يدفعون ثمنا باهظا من أجل وظيفتهم ، وهو ثمن ــ في الواقع ــ يتفق وما ينالون من كسب ونفوذ عارم بين أفراد القبيلة التعساء .

وما كان الثمن الا عديدا من الواجبات يلزمون بأدائها ، وهي واجبات موروثة ، ليس الى التنصل منها سبيل ، وكان الصيام قاسما مشتركا في تلك الواجبات :

---

(١) راجع هلال اغسطس ١٩٤٧ ص ١٣٨ .

فهو حتمي ـ تقريبا ـ في جميع الخلوات الكهنوتية ·
والخلوات التي تتم من أجل الاستسقاء لينزل المطر فلا تموت الحنطة ·

وهذه الأخيرة خلوات يختلف نظامها في كبار الكهنة عن صغارهم ، فبينما هي للأولين ثمانية أيام يصومها الصغار أربعة فقط ·

وللخلوة ـ بدورها ـ نظام معلوم وشعائر مرسومة ، ويقتضي النظام أن يدخل الكاهن الخلوة عندما يخرج سلفه ، وتقتضي الشعائر ـ اذا دخل ـ أن يجلس بغير حراك صامتا ، مركزا أفكاره في المراسيم والطقوس (١) ·

ونرى ـ من المثالين ـ أن صيام الكهنة في تلك الشعوب كان حرمانا تاما من الطعام والشراب والكلام والعمل ·

وقد يكون بعض ألوانه مختلفا ، ففي الحق أن صفحات كثيرة من عادات هذه القبائل راح في طي من غيب لم نتنسم بعد رياحه ، وان كان لا يبدو ان الأمر ذو اختلاف كبير ، فقد جمدت هذه القبائل في مستوى لا يختلف جذريا عما كان عليه أسلافها الأولون ·

هذا الكاهن ، بما له من نفوذ ، هو الذي كان يشرع للقبيلة صيامها العام والخاص ·

فكان على شعب الكاهن المكسيكي القديم أن يصوم فترة معينة قبل أن يتناول طعامه من التمثال المقدس الذي كان يصنع من الغلال والخضر ويعجن بدماء صبيان يضحي بهم لهذه الغاية·

---

(١) راجع لـ « روث بندكت » الوان من ثقافات الشعوب ص ٩٤ . لجنة البيان العربي .

ولم يكن هذا اللون الوحشي وقفا على قدامى المكسيك ، بل كان منتشرا في أوساط البدائيين (١) ، فربطوا بتلك الشعيرة جرما دونه كل اجرام ٠

« قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين (٢) » ٠

ويبدأ صيام عشائر « السنانيموك Snanimuq (٣) » العام — في بعض ألوانه — بغروب الشمس ، وينتهي بظهورها ساطعة لا بوقت شروقها من اليوم التالي ، فاذا سترها غيم عكفوا على صيامهم الى أن يزول الغيم ويبدو قرصها ساطعا (٤) ٠

وكانت العقيدة الهندية التي يقدس أتباعها الشمس تأمر بصيام يومي له نفس المدة فيبدءون بالغروب ويختمون صيامهم بالسطوع (٥) ٠

واذا تركنا هذه الضروب من الأصومة الجماعية ، فثمة أحوال خاصة يلتزم فيها البدائي بالصوم الذي يشرع له من أجلها ، وغالبا ما يرتبط صيامه بحال منها فهو مقيم عليه ما دامت هذه الحال ، ومن هنا لم يكن يرتبط بيوم من الشهر معلوم ، ومن أحواله :

الوضع ، والطمث ، والعرس ، والبحث عن « التوتم » الخاص الذي يعتبر لصاحبه الحارس الأمين ٠

---

(١) راجع لـ « واديوارانت » قصة الحضارة الجزء الاول — المجلد الاول ص ١١٤ .

(٢) سورة الانعام — الاية ١٤٠ .

(٣) ، (٤) من عشائر الهنود الحمر بأمريكا ، راجع العدد ٢٦ ص ٢١ من مجموعة « دراسات في الاسلام » — المجلس الاعلى للشئون الاسلامية — القاهرة .

(٥) ابن النديم — الفهرست ص ٤٤٨ — المكتبة التجارية ١٣٤٨ هـ .

فعشائر « الأرابيش » بـ « غينيا الجديدة » تجعل صيام الوالدين معا مقررا في اليوم الأول من الوضع في نفس المنزل الذي أعد خصيصا لايواء الوالدة ، كذلك يجب عليهما معا أن يصوما بعد انتهاء فترة « الطمث » ، ثم تعود المرأة بعد ذلك الى بيتها ٠

وعلى أي فتاة من القبيلة نفسها أن تصوم خمسة أيام أو ستة متتابعة تمتنع خلالها عن الطعام والشراب تماما ، اذا هي بلغت الحلم ، وتم أول طمث لها ٠

كذلك على العروسين من هنود « الأزتك » بالمكسيك القديمة أن ينسحب كل منهما الى داره ـ بعد انتهاء وليمة العرس ـ ليبدأ صياما وتكفيرا يستمر أربعة أيام (١) ٠

والتوتمية (٢) ، وهي من أقدم الديانات البدائية لها صيام خاص بـ « التوتم الفردي » وهو « توتم » يعتقد صاحبه أنه نصيره وحاميه ٠

---

(١) ادوار منسي ــ من عادات الشعوب ١/٩٥ ، ١٠٠ ، ٢٠٥ .

(٢) تنتشر « التوتمية » بين قبائل كثيرة من البدائيين تعيش حتى اليوم باستراليا وغينيا الجديدة وكلومبيا البريطانية وايرلنده الجديدة ، ومن قبائل من الهنود الحمر بأمريكا ، ويفسرها دكتور علي عبد الواحد وافى فيقول : « تطلق كلمة « توتم » التي تنتسب اليها العقيدة التوتمية ، او النظام التوتمي على كل اصل حيواني او نباتي تتخذه عشيرة «ما» رمزا لها ولقبا لجميع افرادها ، وتعتقد انها تؤلف معه وحدة اجتماعية، وتنزله ، وتنزل الامور التي ترمز اليه ، منزلة التقديس .

فاذا كان الذئب ــ مثلا ــ توتما لعشيرة ما فمعنى ذلك ان هذه ــ العشيرة تتخذ هذا الحيوان رمزا يميزها عما عداها من العشائر ، ولقبا يحمله جميع افرادها للدلالة على انتمائهم اليه ، وتعتقد انها وفصيلة الذئاب من طبيعة واحدة ، وتنزل هذا الحيوان ، وما يرمز اليه ، منزلة التقديس ، وتقوم جميع عقائدها وطقوسها الدينية على اساس من هذا التقديس » .

راجع للدكتور علي عبد الواحد وافي ــ الطوطمية ــ الكتاب رقم ١٩٤ من سلسلة « أقرأ » دار المعارف بمصر .

والفرد ـ في القبائل التي تدين بالتوتمية ـ يقدس ، عادة « تواتم » ثلاث :

أ ـ توتم الاتحاد الذي يجمع لواؤه عدة عشائر ·
ب ـ وتوتم العشيرة التي ينتمي اليها ·
جـ ـ وتوتمة الشخصي هذا ·

ولهذا الأخير طقوس دينية ، درج الأفراد في هذه القبائل على ممارستها لأنها ـ في زعمهم ـ التي تؤدي الى اكتشاف « التوتم » الخاص ·

وللصيام دور رئيسي في هذه الطقوس ، فهو ـ وحده ـ السبيل الى اكتشافه عند معظم العشائر الأمريكية والاسترالية ·

فاذا أراد الفرد أن يكتشف توتمة الشخصي ، فعليه أن يبدأ عزلة تامة عن الناس يختار لها بقعة بعيدة عن أعينهم ، ويظل صائما مكبا على أوراده ليل نهار ، لا يدخر في ذلك طاقة حارما نفسه تماما من كل لذائذها الى أن تبدو له « رؤيا » ترشده الى « توتمه » ولو اقتضى الأمر شهورا ، فاذا عرف « توتمة » اتخذه (سخابا (١)) يعلقه في رقبته أو حيث يريد ، وينتهي عندئذ صيامه ، وما ترتب عليه من حرمان ·

وتعتبر قبائل « البيبلوس » في الجنوب الغربي من أمريكا الشمالية هذه الطقوس الفردية ـ « خبرات تجلب التصدع » ·

ومن ثم ترفض القيام بها ، واذا كان اكتشاف « التوتم » الفردي ضرورة ـ كما يزعمون ـ لما له من قوة خارقة وحماية واقية ، فصيامهم لطلبه لا تلازمه ألوان العنف والغيبوبة التي تعتري طلاب « التوتم » الفردي من القبائل الأخرى نتيجة لما يبذلونه من جهد ، وما يتعرضون له من جوع قارص ·

---

(١) تميمة ، وما يسميه العامة حجابا .

ويطلب كثير من « البيبلوس » الصيام من حيث هو شعيرة تعبدية عامة ويرفضونه كرتبة للتجلي الروحي وسبيلا للاستكشاف ويعتبرون القوة الحامية للشخص منهم تأتيه من انتسابه لطائفة دينية ، وحفظ شعائرها ، فهذه الشعائر ــ في زعمهم ــ كفيلة بحمايته والذود عنه طالما عكف عليها ، ومارسها، وانصاع لطقوسها ٠

واذا رفضت « البيبلوس » استخدام الصيام لهذا الغرض ، أعني اكتشاف « التوتم » الفردي ، فقد أبقته لمناسبات أخرى ، فهو مطلوب قبل الاشتراك في الرقص ، وسباق الجري ، وعديد آخر من المناسبات الدينية والرسمية ٠

صيام اللحم عند البدائيين

حب البدائي للحم فطري ، فهو نهم به ، شره ـ دائما ـ اليه ، لا يعرف مع طبيعته تلك مرتبة القصد والاعتدال ، وربما كان الشره ، وتلك الضراوة الى اللحم نتيجة التزامهم ممارسة الصيد، الذي كان ـ يوما ما ـ المصدر الغذائي الأول ، ولا تزال الممارسة له قائمة حتى وقتنا هذا ، ويعتبره بعضهم المصدر الرئيسي لغذائه ٠

والبدائي ـ اذا وجد اللحم ـ لا يلتفت الى ظروف المستقبل ، ولا يفكر في الادخار لوجبة أخرى ، ورغم ذلك ، كان الشك في امكان تحصيل وجبات أخرى ـ في المستقبل ـ أمرا جعل هذه الشعوب تأكل كل ما يصادفها من أصغر الحشرات الى الخيل ، ومن الزواحف الى الطير ، وختم بعضهم ذلك بلحم أخيه ، بل وتسمين بعض بني آدم التعساء لاعدادهم للذبح ، تماما ، كالأنعام (١) ٠

لكن قد يمتنع بعضهم عن اللحم ، أو نوع منه ، لفترة رسمتها طقوسه الدينية : فالزوجان من قبائل « الأرابيش » عليهما بعد الوضع أن يمتنعا عن تناول اللحم شهرا أو نحوه ٠

---

(١) راجع لـ « ول ديورانت » ـ قصة الحضارة م١ج١ ص ١٩ ٠

والقبائل « التوتمية » تعتبر سلامة أفراد « التوتم » الحيواني مظهرا من مظاهر تقديسه ، فحرمت ـ الا في ظروف مقيدة جدا ـ مسه بسوء فضلا عن تناول لحمه ، فاذا كان هذا « التوتم » فهدا ـ مثلا ـ وجبت حمايته ، ومن ثم ، امتنع تناول لحمه الا في هذه الظروف ٠

والأنثى من قبائل « الأرابيش » بجزر المحيط الهادي ـ تبتعد فترة الحمل ـ عن تناول الفأر الهندي ، أو الضفدعة ، أو الثعبان المائي ٠ وهي أصناف تأكلها جميعا في الأحوال العادية ، وتمتنع عنها ـ أثناء الحمل ـ مخافة أن تصاب هي أو حملها بسوء ٠

صيـام الصمـت عند البدائيين

أشار القرآن الكريم الى هذا اللون من الصيام عند بني اسرائيل ، وسوف نمر ببحث في شأنه عندما نطرق الحديث عنهم ٠

غير أن ما نلفت النظر اليه هو وجود هذه الظاهرة قبل بني اسرائيل ، وبين ديانات تنتشر في أقوام متحضرة ، وعشائر بدائية على سواء ، مما يدل على أصالة هذه الظاهرة ، وعمق جذورها الانسانية في الوجود حتى ليتعدى ذلك عصور التاريخ الى ما وراءها من أزمنة ٠

ولا تزال تلك الظاهرة في البدائيين الى يومنا هذا ، وقد مر بنا أن الكاهن ـ في هذه الأديان ـ يطلب منه الصمت في كل خلواته الكهنوتية ، ولا يزال كاهن « البيبلوس » كبيرا أو صغيرا يجلس صامتا بغير حراك مدة صومه ، وهي مدة تستغرق أكثر من نصف عام في بعض أحوالها ، وتقل حتى تكون أربعة أيام ٠

وليس الصمت خاصا بالكهنة كبارا وصغارا ، فانه مطلوب ـ أيضا ـ من أفراد العشيرة ـ في ظروف خاصة ـ منها الموت ، فيتحتم على المرأة أو الرجل عند موت معين ـ التزامه ، وتعتاد طائفة « البيبلوس » أن تنهي حدادها على الموتى بعد أربعة

أيام يخشون خلالها على الحي أن يصيبه الحزن بسوء ، فيعتزل الحياة المعتادة ـ هذه المدة ـ ويظل صامتا ، ويمتنع على الناس مخاطبته ·

واذا توفي زوج المرأة فعليها أن تمكث عاما صامتة ·

وتنتشر هذه العادة في العشائر البدائية باستراليا ·

واتخذ الصمت والصيام عن الطعام والشراب ـ معا ـ « عقوبة » تفرض على القاتل توقعها « البيبلوس » عليه ، فتحكم عليه بعزلة تامة يجلس فيها بغير حراك صامتا ممنوعا من الطعام والشراب مدة العقوبة ، فهم لا يدينون القاتل بقتله ، وانما بهذا الجزاء الذي يستطيع بعده ـ أن ينتسب الى طائفة الحرب التابعة للقبيلة (١) ·

---

(١) راجع لـ « روث بندكت » ـ الوان من ثقافات الشعوب ص ١٤٣ ·

الكــف عن العمــل

رأينا كيف يرتبط الصوم بين العشائر البدائية بدوافــع ضرورية لجماعتها كصومها من أجل الحصول على المطــر ، أو بدوافع المتعبد لغير المطر مما افترض عليها ، أو بأوضاع فردية ذات ظروف خاصة ·

ومر ـ بنا ـ أن بعض ألوانه لا يتم كماله الديني ـ عندهم ـ الا اذا جلس الفرد له بغير حراك ، أو اعتزل الناس في بيته ، وفي هذا أو ذاك كف تام عن العمل ·

وكثيرا ما يقترن الكف عن العمل بالصمت ، ويتخطى الأمر ـ في ذلك ـ الكاهن الى غيره من عامة الأفراد كالذين يصابــون بوفاة ذوي قرابتهم ··· وبعد :

فمما تقدم نعلم أن أولئك البدائيين يكثرون من الاقبــال على الصيام ويحرصون عليه ·

وأن شرائعهم الساذجة رسمت فلسفتها شعيرة الصيام ألوانا وفنونا فعرفته كفا عن الطعام والشراب والجنس ، مضافا اليه الصمت ، وترك العمل أحيانا ·

واذا علمنا أن بعض هذه القبائل البدائية قد جمدت عند مرحلة حضارية معينة أمكننا أن نقول :

ان ميراثها هذا في الصوم بألوانه يرجع الى أقدم العصور ·

الصيـــام في عصوره التاريخية

العصـر التاريخـي والصيـام

دخلت أوفر الأمم حضارة ، وأرقاها نظاما عصرها التاريخي في وقت مبكر اذا استطاعت بطريق ما أن تسجل أخبارها ، وتدون آثارها ، وتعطي ملامح حياتها للأجيال المقبلة ، بينما بقي غيرها يرتع في بحبوحة خصيبة بين بدائيته وبربريته ، فمصر ـ مثلا ـ دخلت عصرها التاريخي منذ ما يقرب من أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وسجلت حياتها سيادة وعلما ، وفلسفة وأدبا ، وتاريخا، ودينا في حين لا نجد « لألمانيا تاريخا يعرف الا في القـرن الأول للميلاد (١) » فلم تبدأ الأمم عصرها التاريخي في وقت واحد ، كذلك لم تتخلص من بدائيتها في وقت واحد .

وينبغي أن نعلم أن العصر التاريخي لأمة لا يعتبر خطـا فاصلا بين بدائيتها وحضارتها ، وليس له بالتالي علاقة بكمال انسانيتها أو بقائها على همجية معتادة ، ولا يعني دخول أمـة عصرها التاريخي أكثر من أنها استطاعت أن تترك للبشر أخبارا وآثارا تتعلق بشئونها وكثير من أمم الأرض دخل عصره التاريخي وهو مكب على حروب وحشية لم يتورع خلالهـا عن « سلخ »

---

(١) الاستاذ محمد مصطفى حلمي ـ مقدمة في معنى الفلسفة ص ١٧٣ . دار الطباعة الحديثة ـ مصر ١٣٥٦هـ .

المغلوب حيا ، وليس « شايلوك » تاجر البندقية نموذجا خرافيا لم يوجد بين الناس ، قد يكون شايلوك ذاته لا وجود له ولكن « روما » سنت حقوقا مطلقة للدائن من حقه ممارستها في المدين اذا عجز عن السداد وكان بوسع الدائن في العهد الأول للجمهورية فيما قبل الميلاد أن يقطع من جسد المدين ما شاء (١) • فليس رقي العادة ، ولا استعلاء التقليد هو مرحلة الارتكاز بين التاريخ والبدائية •

ولقد بقي طابع الوحشية في هذه الأمم التي أخذت تدرج أولى خطاها نحو الحضارة ، وتركزت وحشيتها في قتالها حتى بات مقررا لصاحب الغلبة أن يفعل بالمغلوب ما شاء ، فله أن يهدم أركان بلاده، وأن يحطم أوثان دينه، وكانت الآلهة لكلا الفريقين عندهم على ذات الحال من الغباء والحمق الشامل فقد كانت بدورها تسعد ــ أو يسعد كهنتها في الواقع ــ اذا سيقت آلهة المغلوب اليها ، وفرضت الغالبة ديانتها على البلاد المفتوحة ، وألزمت أهلها بالشرائع الجديدة ، وقد مضى قديما عصر حمورابي الذي كانت فيه بابل العاصمة الدينية التي يتلمسها الأشوريون في تقاليدهم الدينية ، ثم زالت سلطة بابل ، وانتعشت آشور ففعلت الدور نفسه واستقبلت يوما ــ بين السخرية والشماتة ــ آلهة بابل أسيرة وأصبحت آشور العاصمة الدينية التي يتجه اليها البابليون بعواطفهم •

ولقد يكون الفرد ــ من أبناء المغلوبين ــ في منجاة من فرض الديانة الجديدة عليه ، والزام روحه بها ، لكن ليس الأمر بالسهولة نفسها على كهنتهم ، فاذا استطاع العامة أن يتنكروا للجديد ، ويزوروا عنه فان كهنتهم ملزمين ــ بحكم وظائفهم ،

---

(١) دكتور محمد غلاب ــ الفلسفة الشرقية ص ١٩٧ ــ مطبعة البيت الاخضر •

وغلبة المستعمر ـ أن يمجدوا الآلهة الجديدة ، ويقيموا طقوسها، ولو اقتضى الأمر أن يحجر على تصرفاتهم أو تراقب أعمالهم بأيدي كهنة من قبل المستعمر في نفس الوقت الذي تختفي فيه رسميا شعائر الآلهة الأصلية ، وتغطي البلاد بالدعاية للآلهة الجديدة ، ولا يملك أفراد الشعب حيال ذلك الا أن ينفروا نفارا سلبيا من الأوضاع الجديدة دون بذل أدنى جهد لتغييرها ٠

في حين تبدأ أجيال جديدة تنمو بين آلهة المحتل دون أن تكون من الوعي الذي يمكن لها من فهم الأوضاع فتخلص للآلهة الطارئة عن رغبة ، ويتم ذلك كله في يسر وسهولة اذا تم للمحتل أن يثبت أقدامه طويلا ٠

وينبغي أن نضيف الى هذا الوضع وضعا آخر ـ سنتحدث عنه في موضعه بتفصيل ـ فقد كان بعض البلاد متمتعا بحماية طبيعية وقوة وطنية غلابة ، ويملك في نفس الوقت مفتاح العالم التجاري ٠

وتوفر هذا الوضع لشمال الجزيرة العربية فأتاح ذلك لجاليات مختلفة أن تقيم بتلك الأرض مستوردة ومصدرة للسلع التجارية ومارست أثناء ذلك كله شعائرها الدينية مما أتاح لبعض المواطنين الأصليين أن يعتنق من هذه الأديان ما اقتنع بفلسفته منها ومارس شعائره عن غبطة ورضا ٠

ويؤخذ من هذا كله :

أنه لا يمكن أن يقال : أن صياما ـ بعينه ـ له كذا وكذا من الصفات هو صيام ابتدعه المصريون مثلا ، اذ يعسر جدا ـ والحال هذا وفي مثل هذه العصور ـ رد أنواع الصيام الى جذورها واستكشاف تربتها ٠

وغاية الأمر هنا امكان الحديث عن النوع وتفصيله لا رده لأصله ٠

فاذا قلنا ـ مثلا ـ ان صيام الصابئة ثلاثين يوما ، فليس يعني هذا أن صيام الثلاثين وقف عليهم ، كما لا يعني هذا ـ من جانب آخر ـ انهم وحدهم أصحاب الثلاثين الذين فطروه فأوجدوه على غير مثال ، فالبقعة الواحدة في زمان واحد تمتعت بجمع أكثر من جنس ، واستوعبت أكثر من صيام ، وحسبنا أن يكون كل صيام هنا صادرا عن عقيدة دينية ، اذ يكفي هذا سببا في الكتابة عنه ، وقبل أن نخلص لموضوعنا : ينبغي أن نشير الى دعـوات غربية كانت تتناقض مع عادات تتصل بالصيام في طرف ، وان لم تكن صياما في المفهوم الديني ٠

دعوات وعادات

الصيام ـ وأعني به هنا : الكف عن الطعام والشراب ـ طبيعة أصيلة في كثير من الحيوان ، فهو يقبل عليه تلقائيا بطبيعة لا تعرف له رفضا وغريزة لا تفهم له فلسفة ، وسلوك لا يندفع حياله الى التمرد ، فصام العلق والعقرب والحية والثعابين والسمك والسلاحف ودود القز وغيرها من أعضاء مملكة الحيوان وبعضها يمتد صيامه الى قريبا من سنتين والبعض الى شهور ، ومع ذلك فقد استقامت حياتها ونتاجها ـ الذي ينتفع الانسان به في أحوال كثيرة ـ بطواعيتها لهذا الصيام ٠

ولقد كان من الممكن أن يعطينا هذا الحيوان درسا نافعا في هذا الباب يكفي لارشادنا الى الاستمساك بالصيام حتى يتم لتكويننا الحيواني طاقات ودوافع كثيرا ما تفسد بالبطنة والنهم ٠

غير أن أفرادا في التاريخ برزوا على الناس من أماكن قياداتهم في الفكر أو السياسة بفلسفات أو قمع ليغيروا من نهج طبيعتهم ويبيدوا الصيام من حياتهم ، لكن البشر في « مجال الفلسفة » اكتفى بالسخرية من المتفلسفين ، وفي « أجواء السياسة » اعتبرها عاصفة ستنتهي بالطاغين ٠

ففي ما بين القرن العاشر والسادس من قبل الميلاد ظهر « زرادشت » ليرسي أول ديانة تعادي شعيرة الصوم ، وتدعو لبطلان جدواه ، وقدم منهجه « أن يحيا الانسان حياة طبيعية فيزرع ، ويعنى بماشيته ويتزوج ويتناسل ويقوي بدنه بألا يصوم (١) » • وحرمت شريعته « الصوم لتتوفر القوة في جميع أفراد الشعب (٢) » •

ولقد سبقنا شعب فارس الى السخرية من دعوة « القوة » التي اعتبرها زرادشت نتيجة حتمية للامتناع عن الصيام •

فلقد ظل هذا الشعب فترة طويلة الى ما بعد حكم دارا الأول، وهو يجتنب « الاستمتاع الطليق » ، وقد اعتاد الاكتفاء بوجبة من الطعام واحدة في اليوم ، وجعل الماء شرابه الوحيد وكانت رياضته على هذا النظام سبب مجد فارس الحربي الذي مضى به تاريخها القديم ، فقد كان جيشها الضخم بشبابه المفتول لا يكلف خزانتها الكثير بينما مجده الحربي يقارب الأساطير •

كانت دعوة زرادشت مسببة بتوفير القوة للشعب ، في حين وجد الشعب قوته ومجده في وجبة واحدة من الطعام •

وكانت طبقة « الساموراي » أي حملة السيف العسكرية في الجيش الياباني القديم تقر فيما بينها نظام الوجبة الواحدة • وتعتبر الاستمساك من قواعد شرفها ، وزادت ـ طلبا للتقشف ـ أن تكون الوجهة كيفما اتفق فلا تحضر تحضيرا خاصا يقابل الحرمان بالتعويض ، وكان هذا التشريع بينهم نافذا حتى صار أقدس من القانون بين الناس (٣) •

---

(١) ول ديورانت ـ قصة الحضارة م١ جـ ٥ ص ٣٨ •
(٢) انظر المرجع التالي لابن النديم •
(٣) ابن النديم ـ الفهرست ص ٤٧٩ •

وليست دعوة زرادشت فذة في بابها ، فلقد وجدت دعوة كهذه أنصارا من المزدكيين الأوائل الذين قطنوا ما بين أذربيجان، وأرمنية ، وبلاد الديلم ودينور ، وفيما بين أصفهان ، وبلاد الأهواز ، فأولئك نادى فيهم « مزدك الأول » « بتناول اللذات والعكوف على الشهوات والأكل والشرب (١) » .

كما كانت لهم « مشاركة في الحرم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه (٢) » .

وجاءت العصور الوسطى فقدمت حاكما متفلسفا أراد أن يفرض عقيدة تجمع بين كل العقائد ، ففي الهند ظهر « أكبر » وقدم للناس عقيدته في القرن السادس عشر الميلادي ، وحين ذاك قضى بتحريم الصيام على المسلمين كما حرم عليهم حج البيت وتشييد المساجد ، وكان يمني النفس باقبال كافة طوائف الشعب عليه ولكنه مات « دون أن يجد من يصلي على روحه بين أنصار أي عقيدة أو مذهب (٣) » .

وشاء « توماس مور » ـ في نفس العصر ، وفي أوائل القرن السادس عشر الميلادي ـ أن يضع نفس الفلسفة على طريقة « زرادشت » فدعا في « يوتوبيا » الى تحريم الصوم حين كتب عن أحوال أهلها ـ وهم من اختراعه ـ يقول : « وهم لا يقرون وجهة النظر التي تحتقر الجمال وتبدد قوة الجسد بالصوم والتقشف ، وما اليهما : فليس من الحكمة عندهم أن ترفض اللذائذ مخدوعا بأن ذلك هو الفضيلة » وصدق النقاد حين اعتبره أكثرهم « ضيق الخيال مألوف الفكر ، ولا يقدم للقارىء

---

(١) انظر المرجع التالي لابن النديم .
(٢) ابن النديم الفهرست ص ٤٧٩ .
(٣) ول ديورانت ـ قصة الحضارة م١ ج ٣ ص ١٤٤ .

شيئا جديدا ذا غناء فضلا عن أنه لا يواجه الحقيقة الواقعة فيما يبسط من آراء (١) » .

ولقد تجمعت تلك الدعوات الشاذة لتستقر في زوايا التاريخ بمكان ادخره لايداع الأفكار الشاذة التي تحمل شعار الشعاوذة ووجوه المهرجين .

على أن دعوات مقابلة لهذا اللون وجدت استجابة ، وذلك انما يدل على مدى اقتناع البشر بنفع الصوم وجدواه حتى أنه ليسارع الى ما شابهه من ضروب لا تستند الى عقيدة دينية تقررها كعبادة مفروضة ، ولقد كان بعض هذه الضروب خطيرا في سلوك البشر :

فمن الصيام الذي لا يعد منهاجا دينيا صيام ثلاثة أيام قضى بها الامبراطور الصيني « ناي دزونج » الذي حكم الصين من عام ٦٢٧ الى ٦٥٠م فقد أصدر هذا الامبراطور قانونا يقضي بألا يصدق أي أمبراطور على حكم الاعدام الا بعد أن يصوم ثلاثة أيام (٢) ، وذلك بعد أن سره سرورا بليغا أولئك السجناء الذين صدرت ضدهم أحكام بالاعدام فصرفهم الامبراطور من السجن الى حرث الأرض مكتفيا منهم بوعد بالعودة الى السجن . فلما انتهى عملهم عادوا جميعا فأمر بالافراج عنهم ثم اتخذ هذا القرار .

وفي عهد « يوان شوانج » كان العلاج الطبي في الهند يبدأ بصيام سبعة أيام غالبا ما كانت تنتهي بالشفاء والا بدأ الطبيب عمله مستعينا بالأدوية والعقاقير .

---

(١) تراث الانسانية م١ ص ٣٦٩ ، ٣٨٢ وزارة الثقافة والارشاد القومي — القاهـرة .
(٢) ول ديورانت — قصة الحضارة م١ ج ٤ ص ١١٠ .

وتوجد وصية مصرية قديمة من وصايا « التنجيم » خاصة بطرد تأثير الخوف من السحر والأيام النحسات تطلب الى من وجهت اليه أن يمتنع عن الاكل والشرب في اليوم التاسع عشر من الشهر الرابع من فصل الفيضان وهو الشهر الذي يقابل كيهك في الشهور القبطية ، والوصية تعود الى عهد الرعامسة في الدولة الحديثة (١) ·

على أن أخطر ما درج عليه فريق من البشر في هذا الباب صيام ، وانه لذو شأن · وهو نوع من الصيام عجيب غريب ، ليس العجب منه أو الغرابة فيه يعودان الى كيفيته ، فليست « الكيفية » غريبة علينا بحال ، سواء كانت امتناعا عن الطعام والشراب أو كانت امتناعا عن اللحم ونتاج الحيوان من لبن وبيض وزبد وما الى ذلك ·

انما العجب منه والغرابة فيه بسبب ما يمارس من أجله ·· فهو يمارس بدعوى « طرد الجن » اذا مس انسانا ، ثم تعدى الأمر الى دعوى « السيطرة على الجن نفسه » ·

ولا نجد لهذا اللون من الصيام مصدرا علميا موثوقا به ، يمكن أن يعطينا « حقيقة علمية » بشأنه نطمئن اليها ، ونعلم بها مكانها من العلم ·

ومهما يكن من شيء ، فأهل هذا الصيام يسمونه « رياضة » وهي كلمة ترتبط ـ عادة ـ باسم ملحق بها مضاف اليها هو اسم « الجني » الذي تعد له هذه الرياضة ، فيقولون : « رياضة فلان » أربعون يوما ، ورياضة فلان سبعة أيام ··· الخ ·

---

(١) راجع ص ٣٣ ، ٣٤ من بغية الطالبين لاحوال قدماء المصريين احمد بك كمال ، مطبعة مدرسة الفنون والصنايع سنة ١٣٠٩ هـ.

ثم يقولون : على المتريض أن يصوم لهذه الرياضة بشرطها، وهو شرط يختلف من رياضة الى أخرى ••• وعلى « المتريض » أن يؤدي هذه الرياضة بحقها غير منقوص •

ومن العسير ـ هنا ـ أن نتعقب هذا اللون لبيـان أقسامه وضروبها وشروط أنواعه وما يحرم فيه ، وما يباح ، فلأهله « تقية » اذ يقولون :

ان هذه الرياضات أسرار اذا أذيعت حبطت قدراتهم على الشياطين ومن ثم فان الجن قد يقوم بالحاق الأذى بهم •

وهكذا أغلقت « التقية » الطريق أمامنا الى دراسته •

وما من شك أن هؤلاء الناس ، استطاعوا أن يسيطروا فعلا ، لا على الجن بل على فريق من الآدميين التعساء رضوا أن يكونوا ضحايا لهؤلاء « المتريضين » فاقتنعوا بمقدرتهم على « طـرد الجان » وتسخيره لمآرب أخرى تشبع رغبات كثير منهم ، وتحقق ـ في زعمهم ـ آمالهم : وذلك حيث :

يمكن قسر الجان على رد كيد الوشاة ، وافساد مكر العازلين، والجمع بين المحبين ، وابطال شر دبر بغيب ••• الخ •

وليس ذلك فقط فانه يمكن أيضا قسر الجان على تعقـب المجرمين وكشف السرقات والاعلام بمكان خبئها وما الى ذلك من ضروب الاعمال البوليسية وغيرها • كل ذلك يؤديه الجن ونفسه صاغرة لسيده من بني آدم •

ومنطقتنا هذه من الشرق الأدنى مليئة للأسف بالأفراد ذوي الاديان المختلفة الذين عرفوا بهذا الدور

فأي الفريقين خير مقاما :

هذا المرتعد فرقا من الجن ؟

أم الجن الذي صوره للناس طوع أمره ورهن مشيئته ؟

اللهم نسألك سواء السبيل •

أ ـ مع الصيـــام في الهند

عقيدة الهنـــد :

ان دراسة عقيدة الهند ، وما انفصل عنها من عقائد ، وما شرع لكل منها من صيام هي في الواقع دراسة لعقائد وصيام العالم القديم كله ليس في طور من حياته فحسب بل في كل أطوار نموه ابتداء من بربريته وبدائيته الى ارتقائه مستوى الأديان الفلسفية الداعية الى عقيدة « وحدة الوجود » ·

ولقد أقبلت الهند في طور بدائي على « توتمية » مثلتها ـ فيهم ـ نباتات متعددة ، وحيوانات مختلفة ، وفي جانب الحيوانات كانت تقدس بصفة خاصة عميقة القدسية تلك الحيوانات ذات القوى الجنسية العارمة ، ومن هنا نشأت فيهم عبادة بدائية ثانية هي « عبادة العلاقات الجنسية » التي استقرت في الهند وهي ترتقي مدارج حضارتها حتى اليوم ، وكان « غاندي » الزعيم الهندي الراحل أحد العاكفين عليها حتى أنه تلقى نبأ وفاة أبيه وهو في أحضان احدى الغانيات (١) ·

---

(١) راجع ص ٢٦ جـ٣ م (١) قصة الحضارة ـ ول ديورانت .

وكانت الأجرام الفلكية وبخاصة المجموعة الشمسية ديانة لها مكانتها في الهند وهي بدورها من أولى الديانات البدائية ، فكانت « الجندريهكنية » عقيدة يخص أهلها القمر بالتعظيم ، ويعدونه من الملائكة ، واتخذوا له تمثالا باحدى يديه جوهر يقال له « جندركيت » ومن طقوس عبادته السجود له ، وتقديم القرابين من الطعام والشراب واللبن ، وله صيام خاص يستغرق النصف من كل شهر قمري فلا يفطر فيه الأتباع حتى يطلع القمر فاذا انتهى الشهر وأتى الهلال الجديد أفطروا ، وأتوا الى صنمهم بالقربان ، ثم صعدوا الأسطح داعين ، فاذا انتهوا من دعائهم شرعوا في طعامهم (١) ٠

١ ـ البرهمية :

ثم تدخل الهند عصرا تاريخيا بالغزو الآري الذي احتل الهند قبل أكثر من ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، ووطد في الهند دعائم الديانة « البرهمية » ونشر أسفار « الفيدا » المقدسة فغزت قلوب الهنود وعاشت فيهم حتى اليوم واستطاعت أن تمتص ما حولها من عقائد أو تصبغ عليها من فلسفتها ٠

وأسفار « الفيدا (٢) » ذات سلطان روحي وعقلي خطير حتى على أولئك الذين أعلنوا انكارهم « لبراهما » رأس تلك الديانة ، وأوغلوا في البعد عن الروحانية وألحدوا في دين الغالبية وأعلنوا سخطهم على الفيدا نفسها ٠

---

(١) راجع ص ٤٤٨ الفهرست لابن النديم ٠

(٢) « الفيدا » معناها الحرفي : المعرفة ، فهي اسفار المعرفة ولم يبق من الفيدا الا اربعة اسفار هي :
رج ـ ساما ـ ياجور ـ اتارفا ٠ وكل واحد منها ينقسم اربعة اقسام هي : « مانترا » اي ترانيم ، والثاني « براهما » او قواعد الطقوس والثالث « ارانياكا » وهي تعاليم خاصة بالقديسين والرهبان والرابع « بوبانشاد » او المحاورات السرية وهي موجهة الى الفلاسفة ٠
باختصار وتصرف عن قصة الحضارة ج٣ م١ ٠

كما كان في مجال التفسير لنصوص الفيدا ميدان فسيح أمام الأذكياء الذين أعلنوا ايمانهم بأصولها وقد شاءوا أن يقيموا عقائد جديدة على حساب نصوصها ، فأقبلوا بأفكارهم الخاصة على نصوص الفيدا واستطاعوا أن يعثروا على ما يريـدون ، وأقاموا دياناتهم مستعملين لها شعارات برهمية في حين كان منها ما هو الحادي خالص لا يؤمن بقوة تدير الكون ، وكثرة الديانات بالهند في عصرها التاريخي ، والتحمت فيما بينها بصراع فانتهى بعضها الى الأبد في حين كتب البقاء لثمانية منها هي :

نيايا ـ وفايششيكا ـ وسانخيا ـ وبيرفاميمانسا ـ واليوجية ـ والافيدانتا ثم عقيدتا : البوذية ، والجانتيـة ذاتا الأصول الالحادية ·

وفوق بساط هذه العقائد تدحرجت ككرة من لهب اشتعل لواظها في نفوس الهنود جميعا ـ أخطر عقيدة صحبت ديانات الهند كافة تلك هي عقيدة « التناسخ » المسطرة في الفيدا ، عقيدة ليست هينة على نفس الهندي أو عابرة التذكار ، بل تستقر في ضميره وتحظى فيه بأرسخ مكانة ، ومن ثم تديم وخزه وتؤرقه ، فكانت عقيدة تقشعر لهولها الأبدان وتنطوي منها على تشاؤم مرير وأنى للانسان أن يمرح أو يسعد أو يمني نفسه بالنعيم اذا أيقن أنه في حياته سيظل فريسة الشقاء ، ونهبا عاجـزا مستساغا للآلام حتى اذا هلك لم يتركه الشقاء ولم تمهله الآلام بل سيكون أكثر تعاسة بما ينصب عليه من أنكال وجحيم فهو لن يموت ـ كما يبدو ـ بل سينتقل الى أجسام أخرى يظل يتردد بينها من وضيع الى أوضع على توالي الزمن دون علم بمصيره أو يقين من حظه ، فكل مرحلة تقذف به الى التي تليها دون اذن من ارادته ، أو فرصة لاختياره ، وربما صار في مراحل تناسخه

حيوانا أو نباتا لكنه أبدا لن يموت (١) ٠

لم تكن العقيدة رأيا لكاهن أو مذهبا لفيلسوف والا وجدت في الهنود أنفسهم من يتصدى لها ، ويقضي على خطرها ، بل كانت أصلا في دينهم ويقينا في نفوسهم ، واستسلاما لها من مشاعرهم ، آمن بها الصغير والكبير سواء منهم من ارتفع الى مصاف الحكماء أو انبث في عوام الجماهير ٠

وموقف الهندي من التناسخ هو موقف الانسان عامة من الألم ، انه لا يطيق احتماله ، ولا يطيق أن يستسلم له ، ففكر في مقاومة الخطر ـ خطر التناسخ ـ لكي يموت موتة واحدة لا ينتقل بعدها الى أجساد أخرى ٠

وكانت هذه المقاومة وظيفة كل دين أو فلسفة في الهند عامة، وأصبحت قوة أية مدرسة دينية أو فلسفية أو ضعفها راجعا مباشرة الى منهجها الذي طرحته على الناس للمقاومة ، فان كان له من قوة الاقناع ووضوح الوسائل ما يقنع الهندي بمقدرته على ايقاف التناسخ ـ أقبلت عليه ملايين الهنود ـ وتشبثت به ولازمته ومارست منهجه فليس غريبا أن يتردد بين هذه العقائد جميعا هذا السؤال :

كيف يقف تيار التناسخ لينتهي الشقاء ؟؟

وتعددت الاجابات وبرزت المحاولات ، وانتهى أو كاد ـ الاجماع على وسيلتين رأوا فيهما النجاة والخلاص :

أولاهما : المعرفة التي تحرر الانسان من قيود الأخطاء ٠

ثانيهما : الزهد الذي يتغلب به الانسان على عقبات اعتزال الحياة ٠

---

(١) راجع ١٠٨ الفلسفة الشرقية د / محمد غلاب ٠

وكان الفوز للبرهمية ، وأخذت تؤكد ديانة الفيدا ، وهي الديانة العامة لشعب الهند ـ أن الانسان يستطيع بالزهد ـ وهو من عناصر اعتزال الحياة وما تحويه من مظاهر وأعمال ـ أن يمتزج في النهاية بـ (براهما) الههم المعبود ويتخلص تماما من التناسخ فيتوقف عذابه وتبدأ سعادته ·

وأعلن « سانكرا » أنه لن يصل الى « براهما » الا من تحققت لديه المعرفة الكاملة وتخلص من جميع علائق المادة (١) ·

وبدا كأن الزهد والمعرفة نعمة الأمـن ، وملجأ الفـوز ، فسرعان ما انتشر الزهد بين الناس ونشر معه ألوانا عديدة من الصيام نلمح أصولها في « الفيـدا » نفسهـا فأسفـارها تعج بتشريعات الصيام ومناسباتها ·

فمحاورات « اليوبنشاد » الخاصـة بتعاليم الفلاسفـة في « الفيدا » توضح أن مطلبها الكشف عن الحقيقة ، ولا يتأتى هذا الكشف ويتيسر الا اذا سبقه تطهير كامل للنفس ، وينبغي لذلك أن يصوم الانسان أربعة عشر يوما حتى يوهب البصيرة التي يدرك بها « براهما » ويمتزج به في النهاية ، ويجب أن تمر هذه الأيام بلا طعام مطلقا فقط يتخللها الماء ·

وتذكر « البيورانا (٢) » الصيام في قطعة شعرية محفوفا بهالة من التقدير ومسبوقا بصفة تؤكد وجوده في فلسفة ترى استقلال الأفراد وهما و « وحدة الوجود » حقا :

« جاء ربهو بعد ألف عام »

---

(١) راجع ص ١٤٠ مشكلة الالوهية ـ د. محمد غلاب دار احياء الكتب العربية .

(٢) من اسفارهـم .

الى « نداغا » في مدينته ليزيده علما
فرآه خارج المدينة
في نفس اللحظة التي كان الملك فيها على وشك الدخول بحشد كبير من الأتباع ·
رآه واقفا على معبده معتزلا بنفسه عن الزحام
ذاوي العنق من أثر الصيام (١) » ·

ويعتبر الانتحار عن طريق موت بطيء أو سريع عملا مشروعا في عقائد الهند ولا غرابة في منطق هذه العقائد من تقرير هذه الخطوة الخطيرة ما دامت ستقضي على مرحلة « وجود » يحسن التخلص منها ، فيمكن أن يتخذ الصيام الدائم وسيلة للتخلص من الحياة عن طريق موت بطيء ، أو صيام ثلاثة أيام قبل أن يقضي المنتحر على نفسه بطريقة سريعة من عمل يديه ، وبواسطة الصيام الطويل أنهى آلاف الهنود حياتهم ، وهي نفس الطريقة التي قضى زوجان سعيدان على حياتيهما بها ، وقد توفرت لهما نعم الحياة ، من ثراء مالي الى مركز مرموق في قبيلة « لشافي » باقليم بهار — في الهند — عندما كان « ماهافيرا » وحيدهما في الثلاثين من عمره ، ولما رأى الشاب نكبة والديه لازم الزهد والتجوال وأصبح فيما بعد رأس الديانة «الجانتية» التي كان الانتحار يمثل فيها شرعا أساسيا يقبل عليه الأتباع ·

ويختلف كبار الكهنة البرهميين عن صغارهم في واجب الصيام :

فطبقة « السيناتا » التي تمثل كبارهم تصوم يوميا فترة تزيد قليلا عن ساعة فلكية تبدأ بغروب الشمس وتنتهي بغياب الشفق الأحمر يمتنعون خلالها عن الطعام والشراب ·

---

(١) ص ٢١١ جـ٣ م١ قصة الحضارة — ول ديورانت .

وفيما عدا هذا الصيام الخاص بطبقة « السيناتا » يجب على الكهنة عموما ــ صغارا وكبارا ــ أن يصوموا أول فصل الخريف والشتاء ، والربيع والصيف ، مضافا الى ذلك اليوم الاول ، والرابع عشر من كل شهر قمري ، كما يجب على البراهمة جميعا الصيام اذا عرض الكسوف للشمس ، ويستمر الصيام مدة الكسوف ، وهو صيام يجب فيه الكف عن الصلاة والاتصال الجنسي (١) ٠

وليس في صيام البشر صيام بلغت قسوته ما بلغ الصيام في البرهمية فهو أحيانا معلوم البدء ، معلوم النهاية ، ولكنه أحيانا ترتبط نهايته بختام الحياة في الانسان نفسه ، وما صار بهذه المنزلة الا تطبيقا للزهد الذي ينكر حق الجسد ، والمعرفة التي انحصرت في دائرة « الامتزاج ببراهما » في تلك الديانة الفلسفية المتشائمة بمذاهبها المختلفة وما فيها من تشريعات تمت بأقاليمها، فلم تتمكن البرهمية أن تغزو بها أراضي جديدة فأصبحت وقفا على الهند ، فهي من الهند والى الهند تعود ، وبين الهنود وحدهم تستطيع البرهمية أن تعيش دون أن تهبهم السلام مع نفوسهم أو مع الآخرين ٠

وبدهي أن يدور في نفس الفلك ، ويأخذ بهذه التشريعات كل المذاهب التي تفرعت عن الفيدا ، أو وقفت منها موقف التفسير لها والعمل بها فاهتمت بالصيام لأنه وسيلة الزهد الوحيدة ، وجعلته مرقاة هدفها ، ووسيلة الخلاص ، وخير آلة ــ ان صح التعبير ــ للقضاء على التناسخ ، ولولا الامعان في ممارسة هذا الزهد المتطرف ما تقاطرت علينا الأنباء عن « فقراء الهنود » وما ينزلونه بأنفسهم من عذاب وهم يتبارون في تحطيم

---

(١) راجع ص ٢٠ الصوم والاضحية . من سلسلة المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ــ القاهرة .

أرقام قياسية في الصوم ، أو دفن نفوسهم صائمين تحت الأرض ، وقد انتشت نفوسهم غبطة وهم يرون ـ بعد التجربة ـ الانظار المشدودة اليهم ترمقهم في اعجاب ٠

٢ ـ اليوجيـة :

واليوجية عقيدة من تلك العقائد المسلمة بأصول الفيدا ، ولها بجانب ذلك فلسفتها الخاصة التي ميزتها عن البرهمية العامة فغرضها الأصيل هو « فصل العقل عن الجسد » وبرنامجها لذلك ترجمة عملية لاسمها « اليوجا » فاليوجا هي « النير » ، وبرنامجها نير ثقيل في عنق اليوجي عليه اداؤه حتى يتمكن من اخضاع جسده لنير النظام التقشفي المتزهد ليبلغ ما يريد من طهارة الروح من علائق المادة ، فاليوجية محاولة (أن يبلغ الانسان التنوير الأعلى ، والخلاص الأسمى في حياة واحدة بأن يكفر في وجود واحد عن كل الخطايا التي اقترفها في تجسدات روحه الماضية كلها) كذا يعتقدون ٠٠٠!!

وقد يبدو هنا أن اليوجي يحاول أن يصل الى « براهما » وهو يتحمل لذلك هذا النير الثقيل ، لكنه لا يفعل طلبا لهذه الغاية ، أن اليوجي هنا زلت به فلسفة « اليوجية » فصورت له ـ وهما ـ عذاب روحه وجسده بالتناسخ ٠

ثم عصفت به فصورت له ما لا يكون أبدا ، الا علمته أنه بممارسة هذا « النير » يكون الها (١) ـ نعوذ بالله من الكفر بعد الايمان ـ وهو ـ من ثم ـ يعتقد أنه ـ بذلك ـ يملك القوة الخارقة التي تمكنه من فعل كل شيء ويكون سهلا ميسورا

---

(١) راجع ص ٢٦٣ ، ٢٦٥ جـ٣ م١ قصة الحضارة ـ ول ديورانت ٠

ـ عندئذ ـ أن يقضي على التناسخ ، ويفعل ما يريد ، لهذا يتحمل كل برامج « اليوجا » وينفذها بدقة ٠

وهكذا انتهت فلسفة هذه العقيدة بأقطابهم ، تلك العقيدة المعنية بالخلاص من المادة أن يقيموا على صيام دائم أبدا يحقق لهم ما يريدون ، ويتخلصوا نهائيا من الغذاء بكافة ألوانه وضروبه تاركين الجسد يستمد قوته وحاجته من الشمس مباشرة لأنها مصدر الحياة للنبات والحيوان معا (١) ، ويرون من قصر النظر الاعتماد على استمداد القوة من الغذاء وهو الذي يستمدها من الشمس ٠

ولم يعد الأمر هنا مجرد صيام ينتظر به الصائم فرحا بفطره، وانتعاشا بمرضاة ربه أو هما معا ، انه لا فطر هنا ، ولا رب يرجى رضاه ٠ فكانت اليوجية ـ في ذلك ـ مذهبا فذا فريدا في صيامها وغايتها من هذا الصيام ، ولا أعلم في ديانات الارض كافة دينا يصور لأتباعه امكان أن يكونوا آلهة الا هذا الدين ، فأما ما تفرع عن الفيدا من مذاهب أخرى ـ غير الجانتية والبوذية ـ فلا تفترق عن البرهمية في صيامها وعموم فلسفتها ٠ ولا زال أتباعها يطلبون مرضاة براهما ويتعبدون لذلك ٠

٣ ـ الجانتية :

والجانتية احدى ديانتين لا تقران الغيب ولا تؤمنان بالله ، فهي والبوذية ظهرتا عندما بدأت أمواج الزندقة في البرهمية تنتشر رويدا رويدا لتغمر عقائد الفيدا أملا في القضاء عليها ، ولا يكاد يفصل بين الجانتية والبوذية جيل من الزمان ٠

فقد ولد زعيم الجانتية حول منتصف القرن السادس قبل

---

(١) راجع « فلسفة راجا يوجا » ـ حسن حسين مطبعة المقتطف ١٣٤٥هـ.

الميلاد في حين توفي بوذا نحو عام ٤٨٠ ق٠م٠

ولا غرابة في أن تنشأ بالهند ديانات الحادية ، فقد نـزع بعض البشر الى هذا اللون من التفكير والسلوك ، غير أن الغريب هنا « اقرار الديانتين معا بالتناسخ » فكانتا كلتاهما متناقضتين اذ أن انكارهما للغيب كان مفروضا فيه حصر فلسفتهمـا في الجانب الحسي ، وفصل « قوة الغيب » من مناهجهما فكان ينتظر منْ هاتين المدرستين ، وأمثالهما حملة عنيفة على أفكار التناسخ، لكن رأسي المذهبين لم يتخلصا من أفكار البيئة فعاشـا مـع الحادهما وانكارهما لعالم الغيب يقران التناسخ ، وما التناسخ لديهما الا حلول الروح في أجساد عديدة متواترة بغير ما ارادة ولا اختيار لصاحبها ، ويتم هذا الحلول بدور غيبي ، ومعنى ذلك مباشرة « وجود قوة خفية » دافعة بهذه الروح الى تلـك الأجساد وهي تتصرف بملء رغبتها والبشر ينصاع لها طوعا أو كرها وذاك عين ما ينكره الحادهما ٠

وفي الحق أن كلا المذهبين صرفه الالحاد عن البرهمية ، ورده التناسخ اليها فكلاهما لم يتخلص من أثر البرهمية ، ودب في عظامه دبيب « الفيدا » لذلك كان أمرهما يسيرا عليها ، فما هي الا دورات من الصراع حتى استسلمت كلتا الديانتين ـ دون جلبة ـ لسلطان البرهمية بعد أن انشق كل من المذهبـين على نفسه ، وتمزق على أرضه وتفرعت الجانتيـة سنة ٧٩م الى فرقتين ما لبثتا أن تعددت فروعهما الى ثمانية وثمانين فرعا ، وانشقت البوذية ثمانيـة عشر فرعـا بعد قرنين مـن وفـاة « بوذا (١) » ٠

بدأ زعيم الجانتية دوره الديني عقب انتحار والديه ـ كما

---

(١) انظر الجانتية والبوذية في قصة الحضارة م١ ج٣ ول ديورانت ٠

تقدم (١) ـ فساح في اقليم البنغال الغربي زاهدا منكرا حقوق جسده ثلاثة عشر عاما كانت كفيلة بانتشار أمره ، واذاعة عمله ، فالتف الأتباع حوله وسلكوا طريقه ، واعتبروا نهجه أحسن مناهج الخلاص ، وما لبثوا أن أعلنوا عنه أنه (جنا) أي (قاهر) وعدوه من عظماء المعلمين ثم اختاروا لـه لفظ « ماهافيرا » فنودي به وكان يعني : « البطل العظيم » ٠

وصيام الجانتيين ليس مجرد مبدأ مقرر في عبادة فحسب ، بل هو عمدتها في الخلاص ، وخطوتها الأولى والاخيرة نحو الموت ، ومن الغريب أن « ماهافيرا » الذي مات ميتة طبيعية استحسن لأتباعه الموت على طريقة والديه فجعل الموت انتحارا بجوع دائم أبدي شعيرة يموت عليها أتباعه بجانب أنواع الموت الأخرى التي لا يعارضها « ماهافيرا » كما لا يعارض الصيام على أي ضرب ونوع ٠

٤ ـ البوذيــة :

يستحق بوذا ـ في جانب الصيام ـ دراسة خاصة قبل الشروع في دراسة الصيام البوذي ، وليس هناك مبالغة في الواقـع اذا قلنا : أن البوذية شيء وبوذا شيء آخر ٠

ان الدارس لحياة بوذا لا يستطيع أن يفر من مواجهة السؤال عن صيامه : هل صام بوذا ؟ وهل آمن بالصيام شعيرة نافعة ، وسلما لهدف مرسوم ؟

ان حياة بوذا كفيلة برد تفصيلي على هذين السؤالين بعد أن نطرح منها هذا العرض المثير الذي يصوره الأتباع في غير مـا تقدير لعقلية البشر ٠

---

(١) انظــر ص ٥١ .

وكما أحدثت فاجعة « ماهافيرا » في والديه انطلاقته التقشفية كذلك أحدث عديد من الرؤى المؤلمات انطلاقة بوذا لاكتشاف ما سماه « الحقيقة » وعكف في انطلاقته على الزهد اليوجي وبدأ « يوجيا » حتى انتهى به الأمر الى أن يطعم حبة واحدة من الأرز في اليوم ، ثم قسا على نفسه أكثر من ذلك حتى استطاع بمران متواصل أن يتحكم في تنفسه ويخضع لارادته زفيره وشهيقه ، ثم فجأة وبلا مقدمات ، وبعد نحو ستة سنوات من صيام طويل أعلن كفره بالزهد ، « وكاد يودي بحياته بعد أكلة كبيرة من لحم الخنزير ، وسخط عليه عندئذ نفر من أتباعه كانوا من أشد تلامذته تقديرا له واتباعا ، أما هو فقد أضرب عن الصيام ولم ير فيه سبيلا تؤدي لحقيقة ، وانتهى تشاؤميا خالصا ونادى نداء « ماهافيرا » فأعلن بدوره أن « النرفانا » ـ أي نعيم النفس ـ في التخلص من الحياة ، و « ثواب التقوى في أسمى منازلها ألا يعود التقي الى الحياة » ٠

كفر بوذا بالصيام وأضرب عنه ، وعلى أساس من ذلك بنى عقيدته ، وأخلاها من طقوس أو شعائر تعطي نصيبا من القدسية لعالم الغيب ، أو تجعل له رهبة في النفوس ، فلا وجود لهذا العالم عند بوذا ، ولا داعي لتحمل المشقة في سبيل اكتشاف حقيقته ٠

وبانقطاع أمله في « عالم الغيب » لم تبد أمامه الا متاعب الحياة ، فانتهى الى هذا التشاؤم الذي زهد ـ بسببه ـ في البقاء ، وعلى الرغم من ذلك مات ميتة طبيعية ، وعندما انخرط أتباعه في البكاء من حوله صاح تلميذه الثائر « صجاذا » : كفى يا سادة كفوا عن البكاء ففي مقدورنا أن نصنع ما شاء لنا هوانا (١) ٠

---

(١) راجع ص ٢٥ ، ٨٥ ، ١٩٦ ج٣ م١ قصة الحضارة . ول ديورانت .

وقد كان ، فعلوا ما شاء لهم هواهم ، وقد شاء أن يكونوا فرقا شتى ثماني عشرة لقيت ترحيبا في غير موطنها الاصيل .

ان بوذا قد صام ، وصام طويلا في ابتداء نسكه لكننا نشك أن يكون في النهاية مقررا صياما لأتباعه مهما فاجأتنا نصوص في ذلك فان أناة علمية في هذا السبيل كفيلة ببيان أن تعاليمه النهائية حرمت المسكرات ، بجانب وصايا خلقية لكنها خلت من تقرير الصيام رغم أنه يبدو شعيرة في الديانة البوذية لذلك نقول : ان البوذية من بعد بوذا ليست هي عقيدة بوذا .

ان البوذية شيء . وبوذا شيء آخر .

كان بوذا ملحدا ، وجعله فريق من أتباعه الها .

وكفر بوذا بالصيام واعتبره أتباعه شعيرة .

ومات ميتة طبيعية ومات أتباعه انتحارا وحرقا بالنار .

وقد عبده أتباعه : فريق عبده كآدمي معلم ممتاز ، وآخرون عبدوه الها ، والتزم الفريق الأول عقيدة بوذا الاصلية وتعاليمه الى حين ، وأقبل الآخر على برامج « يوجية » أعطاها وجها بوذيا، وخط كتابا مقدسا ما رآه بوذا ولا أوصى به ، ومن أشهر فئات الفريق الاخير « بوذا يساتو » التي اصطنعت لاهوتا ، ونظاما كنسيا وماء مقدسا ، وصياما في أيام محددة ، وتعدد صيامها ، وطالت أيامه كما تعدد في اليوجية ، واستطال .

وتميزت هذه الفرقة من بين العقائد الهندية بـ « تفاؤلها بالتناسخ » وسمته الولادة الجديدة ، وادعوا أنهم يعاونون الناس ويهدونهم الى الخير ولم يعودوا حصورين ، فأباحوا انخراط النساء في رهبنتهم .

ومن فرق البوذية فرقة فرضت صياما أبديا على الناسك من

أتباعها ، فليس يطعم غير وجبة واحدة في الضحى مستمرا على ذلك طيلة حياته وتختلف تلك الفرقة عن « بوذا يساتو » بفرض الرهبنة على الناسك فيجب عليه اعتزال النساء ٠

ورسم كهنة البوذية صيام أربعة أيام من كل شهر قمري : الأول ، والتاسع والخامس عشر ، والثاني والعشرين مضافا اليها يوم عند ختام الفصل المطير (١) ٠

(١) انظر ما كتب عن بوذا بكتاب : الحكماء الثلاثة سلسلة اقرأ ١٢٢ ٠

ب ـ قائمة الصيام الأبدي في الهند

عرفت الهند هذا الضرب من التشريع ولعلها من أولى البلاد التي أخذت به في عصور التاريخ ، ومارسته أزمانا طويلة ، فوضعت ألوانا من الطعام في قائمة تحريم دائم حتى اذا كان مستهل القرن الخامس الميلادي كانت الهند عامة ـ الا القليل جدا ـ ممتنعة تماما عن أكل : اللحم ، والثوم ، والبصل ، والمسكرات ٠

ولم يقع هذا التحريم في الهند في زمن واحد ، وانما انقضى زمن طويل كانت خلاله قائمة التحريم تحظى بمحرمات جديدة ، فقد كان أول مرسوم ملكي بتحريم اللحم خاصا بالمناهج التربوية، وقد صدر عام ٢٧٣ ق٠م وفيه أنه يجب على التلميذ في الثامنة بجانب ما يحفظ من نصوص أن يمتنع عن تناول اللحم ، وكان « أوشوكافارذانا » هو صاحب التشريع ٠

والغريب في هذا التشريع أنه صدر من أجل الطالب البرهمي الذي يجب أن يحفظ نصوصا من الفيدا،ولم يكن الدين البرهمي يمنع أكل الحيوان قديما ، بل كان يقدم قربانه حيوانا مذبوحا لكن اشتداد حركة البوذية وعنفها في الدعاية لمنع تناول اللحم

وجد صدى في نفوس الهنود حتى البرهميين منهم ، وعندما تضعضع أمر البوذية بالهند ، وأرادت البرهمية أن تقضي عليها « بضمة أخوية » كما يقول : « ديورانت » أعلنت الاقلاع عن ذبح الحيوان ، وعندئذ لم يجد البوذيون الهنود فارقا يعسر فهمه بين البوذية والبرهمية · فدخلوا البرهمية أفواجا ·

وأوغلت الجانتية في المبدأ فمنعت أي عمل قد يؤدي الى قتل الكائنات ، ولما كانت الزراعة تمزق التربة ، وقد يقضي ذلك على الحشرات ، حرمت الزراعة ورفضت بجوار ذلك أكل العسل واعتبرته حياة النحل ·

وسنرى هذه التعاليم تطوف بالعالم القديم من مصر الى اليونان ثم روما ، وتأرز في العصور الوسطى الى الارض العربية ويقرؤها العرب فيما قرأوا من حضارات العالم التي استوعبتها لغتهم فيرددها أبو العلاء ترديدا :

ولا تأكلن ما أخرج الماء ظالما ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح
وأبيض أمات أرادت صريحه لأطفالها دون الغواني الصرائح
ولا تفجعن الطير وهي غوافل بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضرب النحل الذي بكرت له كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كي يكون لغيرها ولا جمعته للندى والمنائح
مسحت يدي من كل هذا فليتني أبهت لشأني قبل شيب المسائح

وأبو العلاء الذي مسح يده من هذا كله ، ليس مبدعا لشيء من هذا كله ، وانما هو في ذلك يردد تعاليم الجانتية في العسل واللحم خاصة ، ونأمل أن لو كان قد رفض في حياته الثريد حتى لا نصاب بصدمة في « صدقه الفني » فمن طعم الثريد فقد أكل اللحم وزيادة ·

ج ـ الصمـــت

يرى الزائر في الهند ، والمتجول بأرضها في كثير من الأماكن أناسا كثيرين تستعرضهم عينه في دهشة لما هم عليه من هيئـة خاصة لازموا فيها وضعا لأجسامهم ، فمنهم من غرز أصابعـه براحة يده حتى برزت أظافره من ظهر كفه ، ومنهم من رفع ذراعا في الهواء وقد نذر أن يبقى على ذلك مدة حياته ، أو جلس في شبه سجدة على مدارج المعابد ، وهم جميعا صامتون قد تبرق عيونهم في وجوه تتصفحهم ، ولكن أفواههم مطبقة ، وألسنتهم تكاد تكون معقولة ٠

وينتشر ذلك بين البرهميين بشتى مذاهبهم بينمـا يعتبر الصمت شعيرة لازمة في اليوجا لا يمكن بغيرها قضاء الواجب :

« هناك ركز فكرة في « الواحد »
ممسكا بزمام قلبه وحواسه ، صامتا هادئا ٠
هناك ٠فليمارس اليوجا ليخلص الى طهارة الروح ٠٠٠ (١) »

د ـ العمـل

اذا كان الصمت من ألزم واجبات اليوجا فالامتناع عن العمل من شرائعها وبخاصة أي عمل تتسبب ممارسته في أذى الحيوان أو قتله ، وقد طلبت صراحة من أتباعها التوقف عن الزراعة ، ومعظم الذين يخلصون لليوجا تمام الاخلاص يتوقفون تماما عن العمل ، اذ لا حاجة بهم الى مطعم وفي حرارة الشمس الكفاية ، وتعدى المنع قطاع العمل من أجل الحياة الى المنع في أجسادهم فكثير منهم ـ برياضة مدروسة ـ يستطيع أن يوقف أنفاسه ،

---

(١) ص ٢٦٠ ج٣ م١ قصة الحضارة ٠ ول ديورانت ٠

وكيف يطلب العمل منهم من ظن في نفسه أنه يمكن أن يكـون الهـا ؟ والعياذ بالله ·

ولما كانت ـ البرامج من هذا النوع ـ مرغوبة في الهند فقد أضحى وجود فرق جرارة تجوب الأقاليم دون عمل منظرا مألوفا ، وليس غريبا في أحداثها ، فبوذا أو « ماهافيرا » أو غيرهما جاب الأقاليم ، ومن اقليم لآخر تتزايد أتباعه ، وموردهم من الرزق ما يتقاطر عليهم من بر المحسنين وليس في تاريخ هذين الرجلين ما يسجل لأحدهم أنه زاول عملا أو حث تابعا على عمل مما يحفظ وجه المرء ويصون عالته عليـه فأضحى الانتساب الى احـدى الطائفتين يعطي شرعية الخمول ·

الصيام في الشرق الأقصى

عندما ضعف شأن البوذية ، وهانت بالهند أخذت تختفي من مسقط رأسها في هدوء ، وتغيب عن سمائه بغير تحفظ ، لكي تشرق ساطعة قوية في أجزاء أخرى من آسيا والشرق الأقصى حيث وجدت أتباعا تتزايد أفواجهم يوما بعد يوم ، فانتشرت في تركستان والتبت ومنغوليا ، وسيلان وشبه جزيرة الملايو ، وفي بورما وسيام وكمبوديا وكوريا والصين واليابان ٠

وفي بعض هذه البلاد ، عضدت بنفوذ سياسي خطير لم تحظ به في ربوعها الأولى ، وكانت الى جانب ما حظيت به من نفوذ قد تخلصت من تشاؤمية بوذا ، فقد انتشرت في تلك البلدان بوذية صجاذا التلميذ الثائر الذي أعلن أن من حقهم أن يفعلوا ما شاءوا ، ثم كانت قد حوت أساطير مما يؤثره عوام النـــاس فرأى فيها الامبراطور الصيني « فوتي ٥٨ ــ ٧١م » أنها خير عون للحاكمين فأعلن في البلاد أنه تلقى وحيا بنشرها ، فاكتسحت الصين وأصبحت مركز الثقل في العقيدة وباتت تتمتع بسيادة قاهرة ٠

على أن بوذية الجنوب التي احتفظت زمانا بتعاليم بوذا ما لبثت بدورها أن آمنت بالتطوير وآثرت بوذية صجاذا ٠

ولا يعني انتشار عقيدة البوذية في هذه البقاع أنها لم تعرف غيرها شريعة ، ولم تمارس لغير البوذية صياما ، فلقد مرت معظم هذه البلدان بأديان بدائية كعبادة « الأسلاف » المعروفة باسم « شنتو » في اليابان ، فكانت متغلبة ـ بدورها ـ على الصينيين ، غالبة أشباحها على الناس ، والبوذية نفسها تعتبر من آخر ما طرأ من أديان تاريخية على الصين واليابان وهذه البقاع ، ومن قبل ذلك برزت في سماء الصين عقيدة ترتبط بنظرية « وحدة الوجود » كان من أقطابها « لاهو ـ تسيه ٦٠٤ ق٠م » وتاريخه يسبق وجود البوذية بالهند نفسها ، وكان « لاهو تسيه » داعية الى النسك الزاهد ، وكان بدوه من أقطاب الدعوى لاحتقار الحياة العملية وبالتالي الى اعتزالها ٠

وكان مذهبه ذا تأثير روحي كبير في نفوس الصينيين لاعتقاده بـ « مطلق » يمكن بهذا النسك « الاتحاد » به وقوي شأن هذا المذهب حتى القرن الأول بعد المسيح ثم استحال الى « مزيج من الخرافات تدور حول قوى الطبيعة وتكريمها عند وضع أسس المنازل أو حفر القبور (١) شأنه في ذلك شأن انهيار البوذية نفسها حتى صارت أوائل هذا القرن تمثل جيشا عرمرما من (الشحاذين) ٠

وعرفت البوذية اليابان في منتصف القرن السادس الميلادي وشقت طريقها اليها في مذاهب متضاربة ، وطوائف متخالفة يتصف بعضها بالتسامح ، ويجنح بعضها الى التعصب ، ويميل البعض منها الى النسك والزهد ٠

ثم كانت اليابان بعد مسرحا لأكبر ردة بوذية مثلها الكهنة البوذيون أنفسهم ، ومارسوها في اصرار ودون تحفظ ٠

---

(١) ص ٦١ اديان العالم الكبرى ، وليم باتون ، دار الشرق والغرب ٠

فالبوذية التي وجدت باليابان أباطرة أيدوا تشريعاتها تأييدا رسميا صدرت به قرارات ملكية منعت ذبح الحيوان تماما لم يحترم كهنتها تشريعاتها ، برغم أنها تشريعات مارسها البوذيون على اختلاف طوائفهم وفرقهم ، فأطاحوا باحترام الشعيرة ولم يحرصوا مع ذلك على مجاملة الأباطرة فذبحوا الحيوان سرا ، واذا خفت حيطتهم شجع ذلك التهاون منهـم الناس على ترك الحذر فأقبلوا على اللحم متناسين صرامة القانون ٠

فــارس : ديانـــات وصيــام

ان دلائل لغوية ، ومناسك دينية ، وعادات قومية تثبت جميعاً أن الفرس سلالة من أصل هندي ـ أوروبي هبط الى الشرقين : الأدنى والمتوسط غازيا ، واستقر في منازله تلك ليبني حضارة ومجدا حربيا ، ويغزو بآلهته : « أندرا ، ومترا ، وفارونا » « آلهة الفيدا » الهندية مشاعر وقلوب الملايين من سكان المنطقة فيدينون لها ويمارسون شعائرها بما فيها من صلاة ، وصيام ، وحج ، وقربان وهيكل ووثن .

لقد كانت فارس القديمة فيما وراء القرن الرابع عشر من قبل الميلاد احدى البلاد ذات الديانة الهندية ، وليس ببعيد أن تكون ممارستها لتلك الديانة بكافة شعائرها ، وضروب تفاسيرها عاشت بتلك البلاد حتى بعد هذا القرن بأزمنة .

وفي عهد « أزدشير بن بابك » الذي يسميه العهد القديم أحشويروش في القرن الخامس قبل الميلاد تقريبا انتشرت اليهودية بين أبناء فارس عقب حركة قمع واضطهاد عنيف كان أبطالها من اليهود المقربين لأحشويروش ، فقد حاول وزيره هامان أن يستأصل شأفة اليهود من البلاد لكن زوجة الملك

« اليهودية الجميلة أستير » ردت عليه كيده ، وبدل أن يشكر اليهود ربهم على النجاة أعملوا القتل بصورة وحشية في ممالك فارس حتى وصل قتلاهم في أحد الأيام الى خمسة وسبعين ألفا « وكثيرون من شعوب الأرض تهودوا لأن رعب اليهود وقع عليهم (١) » .

وما سطره كتبة العهد ــ في هذا المقام ــ يؤيده العلم فالواقع أن اليهود « أخذوا منذ القرون السابقة للميلاد ينشرون ديانتهم بين الشعوب الوثنية في مختلف الأقطار ... وكلما ابتعدنا عن فلسطين زادت نسبة العناصر الجديدة التي دخلت الدين اليهودي حتى كانت شعوب بأكملها تعتنق ذلك الدين (٢) » .

على أن من ملوك فارس من عطف على اليهودية باخلاص فـ « كورش » رد الى بيت المقدس ما سلبه « نبوخذ نصر » ، وبنى بيت المقدس بأورشليم (٣) وداريوس وزر له دانيال نبي بني اسرائيل ، وحين ائتمر بدانيال عليه السلام حزن من أجله داريوس واجتهد في انقاذه وبات صائما ، وقد فرح بنجاة دانيال من الأسود ، وكتب لأمه أن تخشى اله دانيال « الحي القيوم الى الأبد ، وملكوته لن يزول وسلطانه الى المنتهى (٤) » .

وقد تكون هناك مبالغة من كتبة العهد ، لكنها بحال لن تنفي أن جزءا من أهل فارس ــ على الاقل ــ مارس شعائر اليهودية صلاة وصياما .

كذلك كانت فارس بعد الميلاد مسرحا لدعوات مسيحية

---

(١) العهد القديم ــ استير ٨ ــ ١٧ .
(٢) ص ٢١ المسألة الصهيونية في نظر العلم ــ محمد عوض محمد ــ ١٣٦٦هـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر . من رسائل الجامعة العربية .
(٣) عزرا ١ ، ١ ــ ٣ ، ٧ .
(٤) دانيال ٧ ــ ١٨ ، ٢٧

منحرفة ففيها أعلن القس « ماني بن فتق » اثنينيته الصريحة فجعل للكون الهين : اله الخير ، واله الشر ، وهي نفس الاثنينية التي لم يتنكر لها زرادشت على أن « ماني » ما لبث أن تدرج بدعوته من الخير والشر ، والنور والظلمة فأعلن أن « المسيح أرسل لينير الأرواح (١) » ولم يكن هذا اضطرابه الاخير اذ لم تلبث « المانوية » أن جمعت عناصر شتى من البرهمية والميتهرية القديمة الى أفكار مسيحية ، وتكون من ذلك كله مزيج كانت الزرادشتية أقوى عناصره حتى باتت المانوية : زرادشتية منصرة أقرب منها نصرانية مزردشة (٢) ·

ويبدو أثر البرهمية النصرانية في مبدأ المانوية « انهاك الجسد طلبا للخلاص » كمبدأ عام يتناول بالتحريم اللذائذ والطيبات جميعا في المأكل والمشرب والجنس ، وبلغ التشاؤم بماني حدا جعله يعتقد أنه يجب على الانسان أن يسرع بمغادرة الدنيا ، وهو وان لم يناد بالانتحار لم يمنعه ذلك أن يعد « الانهاك » : الوسيلة الوحيدة لانقاذ الانسان من الشر المستطير الذي يسيطر على العالم ، ويعني هذا الانهاك ممارسة صيام حرماني طويل يؤدي اليه ·

ولذلك يقدم « ماني بن فتق » برنامج صيامه سلاحا مرهفا للقضاء على الانسان بدل أن يكون عاملا من عوامل « الاستعلاء » بالانسانية ، وبرنامج صيامه هذا يرينا أنه بدأ نصرانيا زرادشتيا وانتهى برهميا جانتيا فطلب :

١ ــ « صيام سبعة أيام أبدا من كل شهر ·

---

(١) راجع ص ٣٧ الاشعة اللاهوتية في مبادىء التعاليم المسيحية دكتور مول المطبعة الانجليزية الامريكانية ١٩١٨م ·
(٢) راجع ص ١٧٢ مقدمة في معنى الفلسفة ·

٢ ـ فاذا نزلت الشمس القوس ، وصار القمر نورا كله يصام يومين لا يفطر بينهما ·

٣ ـ فاذا أهل الهلال يصام يومين لا يفطر بينهما ·

٤ ـ ثم من بعد ذلك يصام اذا صار نورا يومين في الجدي ثم اذا أهل الهلال ونزلت الشمس الدلو ومضى من الشهر ثمانية أيام ·

٥ ـ يصام حينئذ ثلاثون يوما يفطر كل يوم عند غروب الشمس ·

٦ ـ والأحد يعظمه عامة المناينة (المانوية) ·

٧ ـ والاثنين يعظمه خواصهم ·

كذا أوجب عليهم ماني (١) » ·

على أن صيام الأحد والاثنين هو بعينه تقديس بابل في ديانتها للشمس والقمر ·

والى جانب هذا الصيام العديد حرم على أتباعه : اللحم والخمر وجعلهما في عداد المحظورات الأبدية كالايذاء بالنار والسحر ·

وقد شارك ماني غلوه وتطرف أكثر منه فرقتان نصرانيتان أخريان هما فرقتا : المرقيونية ، والديصانية فطلبتا الصيام أبدا (٢) وقد باد كلا الفرقتين ولم يعد لهما وجود ·

---

(١) ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ الفهرست لابن النديم .

(٢) راجع ص ٤٧٤ الفهرست لابن النديم .

بابـل وأشـور

أ ـ الوثنية القديمة :

كانت « بابل » تلك البلدة بجنوب العراق علما على مملكة واسعة الرقعة بنت حضارتها بين الرافدين : دجلة ، والفرات ، وكانت تحد شمالا بالسهل الأعلى لبلاد ما بين النهرين ، وجنوبا بالخليج الفارسي ، وغربا بالجزيرة العربية ، وشرقا بالتحصينات الأخيرة من التلال التي تكون الحد الحالي لبلاد الفرس ، وكان القسم الشمالي من هذه المملكة يطلق عليه بلاد بابل ، فأما ما والاه الى الخليج الفارسي فقد عرف ببلاد الكلدان .

وشعوب هذه المنطقة فيما قبل ألفي عام من قبل الميلاد كانت خليطا من أصول شتى : الصفر التورانيين ، الى الكوشيين ، والساميين الى أجناس آرية اكتسحت بابل في الوقت الذي حمل فيه الآريون أصحاب الفيدا على الهند ، فليس غريبا ـ والحال هذا ـ أن تبلغ آلهة تلك الأمة في احصاء رسمي خمسة وستين ألف الـه ، ولا نكون مبالغين اذا تجاوزنا هذا الاحصاء ، وقلنا : كان لكل بيت اله .

وقد أتاحت هذه الاجناس للعراق أن ينمو فيه شعب عريق

الحضارة ، ذو علم ، وصاحب فن ، وفلسفة ، وتشريع يسبق بها أعرق مدنيات أوروبا في اليونان ، وروما معا في العالم القديم بلا منازع ٠

وكانت آشور تقع شمال بابل في شكل مثلث جنوبه هو السهل المرتفع لبلاد ما بين النهرين ، ويحدها شمالا جبال « ماسيوس » ويذكر رولنسن « أن مساحة أشور تساوي مساحة بريطانيا على حين تقرب مساحة بابل من مساحة الدانمارك (١) » وقد استطاع الشعب الأشوري أن يتميز عن سواه في نحو القرن الخامس والعشرين من قبل الميلاد ، كما أن سلسلة ملوكهم تستمر في اتصال يكاد يكون تاما منذ ٢٢٥٠ ق٠م (٢) ٠

وتكاد ديانة الدولتين أن تكون واحدة ، ففي أغلب الأوقات كان أحد الشعبين يعبد آلهة الآخر ويقيم على طقوسه ، وكانت ديانة البابليين والكلدانيين ذات أثر مباشر على ما نما بتلك المنطقة بعد ذلك من عقائد فكرية غير سماوية ، وكان الصيام ركنا أصيلا في تشريعات تلك الديانة القديمة فبقي بذلك عنصرا في ديانات الأمم الصغيرة المجاورة فيما بعد ، وكانت أيام صيامها تعرف باسم « شيتو » ويتتبع « ديلابوت » واجب كبير الكهنة ببابل المسمى « أوريجاللو » في الاحتفالات الدينية التي تستغرق نحو عشرة أيام تبدأ من اليوم الثاني لشهر نيسان واصفا ما فيها من صلاة وتضحية وقرابين (٣) ولعل هذه الايام هي الايام الحرم : أيام الصوم والدعاء « شيتو » التي كانت عبادة للأجرام السماوية ٠

---

(١) ص ٢٩١ ــ ديلابوت ــ بلاد ما بين النهرين الالف كتاب .
(٢) انظر نفس المرجع ص ٢٩٢
(٣) راجع ص ١١٩ ، ٢٠٢ بلاد ما بين النهرين .

وكان صيام الكلدان :

« ثلاثين يوما عدد ما تقطعه الشمس في كل برج من بروجها يمسكون فيه عن الطعام والشراب من شفق شروق الشمس الى شفق غروبها ، ويفطرون على غير اللحوم من الألبان ، والنباتات الا ما حرم منها عندهم ويقسمون هذه الثلاثين الى ثلاثة أقسام :

أ ـ قسم يصومون فيه أربعة عشر يوما متتالية في فصل الشتاء ، موافقة لأعداد الكواكب السبعة المشهورة قديما وأفلاكها .

ب ـ وقسم يصومون فيه سبعة أيام في الربيع ، موافقة لأعداد الكواكب وحدها .

ج ـ وقسم يصومون فيه تسعة أيام في أواخر الصيف موافقة للأفلاك بضميمة فلكي الثوابت والمحيط (١) » .

ب ـ الصابئة :

وقد عمرت المنطقة بفرقة الصابئة في الأقاليم الجنوبية من أرض العراق فيما قبل ألفي سنة من قبل الميلاد ، ولا تزال الصابئة تعيش حتى الآن ولكن في كثافة محدودة من السكان ، وعلى مدى هذا الزمن كانت ديانتهم مفتوحة لتضم ما يستحسنون لها من شعائر وفرائض للديانات الأخرى .

وعاشت مع التاريخ تتقبل من كل دين عنصرا ، ومن كل عقيدة شريعة سواء في ذلك أديان الارض أو السماء ، فمن بابل

---

(١) ص ٨٨ الحراب في صدر البهائية والباب . محمد فاضل ـ دار التقدم ١٣٢٩ هـ .

أخذت تقديس الكواكب ، ومن مناهج ابراهيم الخليل أبي الأنبياء عليه السلام أخذت التوحيد ، ثم اعتنقت ما حرمت الهند من ألوان الطعام ، واذ ظهرت النصرانية ، مارست التعميد، وعندما برز الاسلام أخذت الوضوء وصلاة ركعات ، وكان منهاجها في الصيام مماثلا للمنهج البابلي المتقدم في صيام الكلدانيين : ثلاثين يوما مفرقة على السنة ، ويذكر ابن النديم وهو صاحب أول مرجع في شأنهم : أنهم يصومون هذه الثلاثين مجتمعة وفي مكان آخر من الفهرست ذكر أنهم يصومونها مفرقة، وليس في ذلك تناقض من ابن النديم ، فالقوم كما عرفنا لا يروق لهم الثبات على حال واحد ، وهم يأخذون أحيانا بالسرية في أمر دينهم ، ثم هم أضافوا الى هذه الثلاثين غيرها نافلة ٠

يقول ابن النديم فيهم :

« والمفترض عليهم من الصيام ثلاثون يوما أولها : لثمان مضين من اجتماع آذار (١) وتسعة أخر أولها لتسع بقين من اجتماع كانون الأول ، وسبعة أيام أخر أولها لثمان مضين من شباط وهي أعظمها ٠

ولهم تنفل من صيامهم ، وهو ستة عشر ، وسبعة وعشرون يوما ٠

وقال عن عيدهم في « نيسان » :

ويوم الثامن منه يصومون ويفطرون على لحوم الخراف » ٠

وعن تشرين الثاني يقول :

« يصومون في أحد وعشرين تسعة أيام آخرها يوم تسعة وعشرين لرب البخت « المشتري » ٠

وعن شباط يقول :

---

(١) وهو نفس اليوم الذي عرفه النصارى الشرقيون ليبدعوا بواسطته في تحديد اليوم الاول للصيام الكبير ، على ما سيجيء . الباحث .

يصومون فيه سبعة أيام أولها التاسع منه ، وهذا الصوم للشمس الرب العظيم رب الخير ولا يأكلون في هذه الأيام شيئا من الزفر ، ولا يشربون الخمر ولا يصلون في هذا الشهر الا للشمال والجن ـ والشياطين (١) » ٠

« وقد يتنقلون بصيام أيام النسيء ، ويروى عنهم أيضا أنهم يصومون خمسة أسابيع يأكلون فيها الطعام نهارا وليلا ، ويجتنبون أكل اللحوم المباحة لهم ، وهي غير ذات الذنب ، ويقال: ان الصيام بنوعيه قديم عندهم يرجع الى أيام البابليين (٢) ، ويعتبر الصابئة من أولى الديانات التي أخذت بنظام «الاجتماع» الفلكي لتوقيت صيامها،ومنها تعلم غيرها،واتخذ طريقها (٣) »٠

---

(١) ابن النديم ــ الفهرست ص ٤٤٣ ــ ٤٤٨ ــ ٤٥٠ ــ ٤٥٢ ٠
(٢) عباس محمود العقاد ــ ابو الانبياء ص ١١٣ ــ دار اخبار اليوم ــ اغسطس ١٩٥٣ ٠
(٣) فعل ذلك النصارى في الشرق ــ كما سيجيء ٠

ج ـ مع « التوحيد » في تلك البلاد :

وفي « أور » جنوب « بابل » ظهر ابراهيم الخليل ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ وسط وثنية تامة تعرف الآلهة أصناما ، وتنتشر في معابدها وعلى أيدي كهنتها أخبث «شعيرة» رسمتها وثنية ، حيث قضت أن تترك كل عذراء بكارتها بالمعبد لأول من يطلبها ·

هناك ظهر الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قبل الميلاد بنحو ألفي سنة ، فكان أول الكافرين بدعوته أبوه ، ولم يمنع هذا أن يجهر الخليل بدعوته في قومه ويحطم كبرياءهم في أوثانهم ، فتأخذهم العزة بالاثم ويلقونه في النار فتكون بردا وسلاما على ابراهيم ·

وانتقل ـ عليه الصلاة والسلام ـ بدعوته غربا ثم جنوبا ، ونادى بها في مكة ، حيث ترك ولده « البكر » اسماعيل ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ووالدته ـ هاجر صلوات الله وسلامه عليها ·

واذا كانت شريعة نوح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تقرر فيها الصيام ، فكان لونا من عباداتها ، ونقل صيامه أئمة ثلاثة

من أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هم : معاذ ، وابن مسعود ، وابن عباس رضي الله عنهم فلا غرو أن تكون تلك الشعيرة مقررة في رسالة الخليل وهي رسالة تالية لرسالة نوح ــ عليهما الصلاة والسلام ــ ٠

ولقد ورد ذلك صريحا في الحديث المتقدم لابن ماجه ــ رضي الله عنه ــ من رواية ابن لهيعة ــ رحمه الله ، ففي تتمته :

« وصام ابراهيم ثلاثة أيام من كل شهر ، صام الدهر وأفطر الدهر » والحديث حسن عند السيوطي (١) ، وان ضعفه غيره فانه لا يملك الحكم عليه بـ « الوضع » فضلا عن تصويره لحال هي من مسلمات الأمور ، ذلك :

أن ضعف الحديث لن ينفي صيام الخليل ــ عليه الصلاة والسلام ــ فلم يثبت أن عبادة رئيسية قررت في شريعة سماوية ، مثل : الصلاة والزكاة والصيام ثم نسخت فيما تلاها من رسالات ، وانما يحدث أن ينال التشريع من « كيفية » التي تليها ، لا أن يلغيها ، والصيام سابق على شريعة الخليل ، فمن نفى كان في حاجة الى دليل وهيهات ٠

---

(١) يقول بعض النقاد : ان السيوطي يتهاون احيانا في تحسين الحديث ، ولست أراه متهاونا في حديثنا هذا ، ونظرة في نصه ترينا ذلك ، وها هو نصه بالجامع الصغير :
صام نوح الدهر الا يوم الفطر ويوم الاضحى ، وصام داود نصف الدهر ، وصام ابراهيم ثلاثة ايام من كل شهر ، صام الدهر وافطر الدهر .
ولقد سبق ان عالجنا صيام نوح عليه الصلاة والسلام بما فيه الكفاية ، وورد فيه حديثان : احدهما لابي هريرة والثاني لابن عباس ، فضلا عن نقل معاذ وابن مسعود لصيامه ، رضي الله عنهم .
وصيام داود له نص صريح في الصحيح غير معارض لهذا ، وصحته لا جدال فيها ، ثم لا دليل ينفي صيام الخليل ابراهيم ــ عليه الصلاة والسلام .
(راجع الحديث السيوطي ، شرح العزيزي على الجامع الصغير للسيوطي ، ص ٢٥٥ من المجلد الثالث ــ الناشر : السيد علي البقلي).

ثم يستحيل أن تسمو شريعة وثنية على شريعة سماويــة ، فتضم الأولى ضربا من عبادة سامية تسمو بالانسان ، وتخلو منه الأخيرة ، واذا كان الصيام شعيرة مقررة في مختلف الوثنيات من حول ابراهيم الخليل حتى في قومه ، كما هو واضح من الفصول المتقدمة فكيف تخلو منه شريعة الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أيضا ٠٠٠ هيهات ٠٠٠

مهما يكن من أمر ، فان هذه الأيام الثلاثة قد يكون صيامها فرضا ، وقد يكون نفلا ، فلم أقف على تحديد للون تشريعها ٠

ويستنتج الامام الجليل محمد بن جرير البطري عند تفسيره لآية الصوم :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات » ٠ ان « رمضان » كان فرضا في شريعة ابراهيم الخليل ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ قال رضي الله عنه :

« وأولى الأقوال عندي بالصواب قول من قال :
معنى الآية : كما فرض على الذين من قبلكم من أهل الكتاب، أياما معدودات : وهي شهر رمضان كله ، لأن من بعد ابراهيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان مأمورا باتباع ابراهيم ، وذلك أن الله ـ جل ثناؤه ـ كان جعله للناس اماما » ٠

وقد أخبرنا الله ـ عز وجل ـ أن دينه كان الحنيفية المسلمة، فأمر نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمثل الذي أمر به من قبله من الأنبياء (١) » ٠

وشريعته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم تختلف عن شريعة

---

(١) راجع تفسير الاية بالمجلد الثالث من تفسير الطبري .

نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما أبيح طعمه ، اذ لم يقع نسخ في هذه الأحكام حتى شريعة موسى الكليم ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ فلما جاءت التوراة جاء فيها التحريم (١) ٠

ومعنى : « صام الدهر وأفطر الدهر » ٠

أن صيام الخليل ثلاثة أيام من كل شهر له أجر شهر ، فان الحسنة ـ في أبسط جزائها ـ بعشرة أمثالها ، فكأنه صام حياته كلها ٠

وما مضت قرون بعد ابراهيم حتى طرقت دعوة « التوحيد » أبواب « بابل » بشريعة نسبت الى موسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فعندما استولى « نبوخذ نصر » على بيت المقدس عام ٥٨٦ ق٠م ساق الى بابل الملك ووزراءه وأهل بيته وصناع مملكته ، وكل ذي خبرة ، ولم يترك منهم الا بعض الفلاحين والبستانيين ، ومكث هؤلاء أسرى بأرض بابل حتى عام ٥٣٩ق٠م حين سقطت بابل في يد « كورش » الفارسي ٠ وفي هذه المدة ، وما بعدها حتى نهاية الأسر ، أقام في بني اسرائيل أنبياء يدعي اليهود أن منهم « عزرا » وكتبوا ـ في العهد القديم ـ أنه هو الذي أملاهم الشريعة ، وحرص عليها فيهم ٠

على أي حال ، لقد قدر لدعوة « التوحيد » دعوة أبينا ابراهيم أن تستقر ثانية بهذه البلاد قرابة سبعين عاما ، وتحت سماء بابل لبيت دعوته ، وعاشت شريعة بني اسرائيل ، كما أرادوها ، على الاقل بين أهلها ، وصام بهم « عزرا » وصلى فانهم يدعون أنه تولى امامتهم حتى عاد بفريق منهم الى بيت المقدس ٠

---

(١) راجع ـ في التفسير ـ ما جاء في قوله تعالى : كل الطعام كان حلاًلبنى اسرائيل الآية ٩٣ من ال عمران ٠

« فنينوى عاصمة أشور هي بلدة الرجل الصالح : يونس بن متى كما سماها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (١) ، وتمثل نينوى ضربا فريدا بذاته فذا بنوعه بين البلدان التي كفرت فنزل عليها العذاب ، ولم يرفع الله سبحانه عذابا أنزله على أمة وقضى به عليها غير نينوى » ٠

يقول قتادة بن دعامة السدوسي :

« لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت الا قوم يونس لما فقدوا نبيهم ، وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة ، ولبسوا المسوح ، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا الى الله أربعين ليلة ، فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم (٢) » ٠

وفي ذلك يقول تعالى : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين » ٩٨ يونس ٠

ويذكر سفر يونان « يونس » أن أهــل نينوى آمنوا بالله « ونادوا بصوم ٣ ــ ٥ » وشمل الصيام الصغير والكبير ، وفرضه الناس على البهائم « لا تذق الناس ولا البهائم ولا البقــر ولا الغنم شيئا ٣ ــ ٧ » ٠

وحين شرعت الكنائس أصواما قرر الأنبا أبرام البطريرك الثاني والستون للكنيسة السريانية « صيام نينوى » ثلاثة أيام تذكارا ليونان ــ يونس ــ وعنه أخذته الكنيسة الأرثوذكسية المصرية (٣) وقررته على أتباعها صياما ٠

---

(١) راجع لفضيلة الشيخ محمد الخضري بك ــ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ص ٦٧ ــ المكتبة التجارية ١٣٥٤هـ .

(٢) ص ٤٣٣ تفسير القرآن العظيم لابن كثير المجلد الثاني .

(٣) راجع للقس شنودة حنا كتابه « الصوم في كنيستنا القبطية الارثوذكسية ص ٢٤ مطبعة الاسكندرية ــ محرم بك .

الصيـام في مصـر القديمـة

في مقام الاحاطة بصيام المصريين القدماء ينبغي أن نلم بكنه العقيدة التي دانوا بها ، وارتبطت بها حياتهم ·

العقيدة التي رسمت لهم طقوسا خاصة شكلتها عباداتهم فنونا من : القربان ، والصلاة ، والصيام ، والحج الى جانب مناسك أخر أتخمت بها تلك الديانة على مر العصور ·

اننا بمعنى آخر ينبغي أن نقدم اجابة واضحة على عدد من الأسئلة فيما يتعلق بموضوع الصيام عند هؤلاء القدماء ، أسئلة عـن :

أ ـ الالـه أو الآلهة التي دانت لها مصر القديمة ·
ب ـ الأحوال التي دعتهم للصيام ·
ج ـ حكم أداء هذا الصيام عن طريق الالزام تارة ثم القيام به منوطا بالرغبة تارة أخرى ·
د ـ كيفية هذا الصيام ·
هـ ـ متى يقع ، وكم يستغرق من زمن ·
و ـ صفته بين الشعب والكهنة ·

يقول جيمس هنري برستد في عقائد قدامى المصريين : « اعتقد المصريون في آلهة كثيرة ، ولكنهم آثروا عبادة اثنين كان لهما السبق على جميع الآلهة الأخرى ، أحدهما : أوزوريس الذي لم يقهره الموت ، والآخر هو الشمس التي تبهر البصر بضيائها في سماء مصر الصافية ، هذا هو الاله رع (١) » ·

ونضيف الى هذين « أنثى » سيطرت عقيدتها في النهاية على وثنيات مصر أجمعين وحببت الى المصريين : « أزيس » التي أضحت المعبود المفضل لديهم ، وسرت عقيدتها مع الرياح ، فنفذت في الشرق ، وزحفت الى الغرب وغزت الشمال ، وفي الغرب قاومت تحدي الحكومة الرومانية حتى أصبح مرسوم الغاء طقوسها حبرا على ورق ، فقد كان أتباعها من الكثرة والقوة بحصانة تراجع أمامها السلطان ، فأيد « كلجيولا » عبادتها واستسلمت لها الدولة ، ومضى في تكريمها أكثر فأنشأ لها من أموال الدولة ضريحا فخما في ميدان المريخ ، ونطقت باسمها أشعار « جوفنال » ·

كانت أساطير أوزوريس كافية بتكوين منزلة أثيرة له في نفوس المصريين جميعا فاعترفوا له بنعم كثيرة ، فيفضله ــ كما زعمت الأساطير ــ تعلموا الزراعة ، وعرفوا كيف يتعهدونها ، وتتحدث عنه الأساطير فتقول :

أنه حكم مصر حكما عادلا ، فريدا في عدله وحكمته فحنق عليه أخوه « ست » وبادر الى التخلص منه بوضعه في تابوت جميل والقائه في النيل ، فتتبعت الزوجة الوفية « ازيس » جثمان زوجها حتى استطاعت أن تسترده من لبنان ، وعلم « ست » الذي صار ملكا بعد أخيه بالأمر فتربص لها واستطاع أن ينتزع

---

(١) ص ٩١ انتصار الحضارة هنري برستد .

الجثمان ويقطعه اربا ، يبعثرها في الوادي وتركها لا يلوي على شيء ، لكنها ازدادت حماسا في جمع أجزائه قطعة قطعة وأعادتها الى مكانها من الجسد ثم روحت عليها بأجنحتها فدبت الحياة في جسده ، وحرك أوزوريس البائس ذراعه ثم انقلب على جنبه ، ورفع رأسه ، وكان من الصعب أن يعيش حياته الأولى فـوق الأرض فأصبح لزاما عليه أن يحيا حياة أخرى خلفها وقنـع بأن يكون الهـا للموتى بعد أن كان ملكا على الأحياء ٠

وتعددت معابد أوزوريس في مصر ، فكان له معبد في «أدفو» وآخر في « دندرة » وثالث في « فيلة » بالقرب من حدود النوبة ، وكانت فيلة جزيرة تمثل « أباتون » أوزوريس ، أي حرمـه الخاص ، عدا ما انتشر له بداخل القطر من أقصى الشمـال لأقصى الجنوب ٠

وكما نرى رشحت الأساطير أوزوريس ليكون رمزا لعديد من المعاني الذهنية الكريمة الى جانب المحسوسات فهو « النيل » و « التربة » و « الزراعة » ، وهو حاكم المملكة الموحشة ـ عالم الموتى ـ وهو الذي لا يقهره الموت كما أنه هو الفيضان بعينه ، وواهب الخصب ، ثم هو أقوى من الالـه « رع » أليس « رع » هو الشمس ؟ وهي بدورها حين يحل المساء تنزل خلف التلال الغربية لتدخل بوابة العالم السفلي ، عالم الموتى الذي يحكمه أوزوريس (١) ٠

وبهذه الأساطير وتلك المعاني نشأت المعتقدات التي جعلته في أذهان المصريين وأفئدتهم « القوة المطلقة » فقدمه المصريون جميعا كالـه هو أقوى الآلهة صاحب « السلطان على الآلهـة العظيمة ٠٠٠ والأعلى بين الاعظمين والاعظم بين الأعلـين ،

---

(١) راجع ص ٨٠ الحياة اليومية في مصر القديمة الن شورتر ٠

والأب الأعلى للآلهة (١) » ٠

ولم تكن الرموز هذه بناقعة غلة أمام كل هذه القوى والنفوذ اللذين يرسمهما الكهنة فقدموا له « تجسيدا » يراه الشعب ويلمسه وأصبح عجل « أبيس » يمثل أوزوريس في عهد الدولة الحديثة ، وصار « تيسا » أيضا بمدينة « منديس » ٠

وهذه الأساطير ، وتلك الرموز ـ وقد اشتملت ما يتصل بعقيدة المرء أو عمله ـ تركت للمصريين عددا وفيرا من الأعياد يحتفلون فيها ابتهاجا بأوزوريس أو حزنا عليه ، وقد عد المؤرخ أحمد « بك » كمال أمين المتحف المصري نحو خمسة وعشرين عيدا أو تزيد موزعة على السنة تتصل اتصالا مباشرا بأساطير أوزوريس (٢) ٠

أوزوريس الذي طغى على « رع » واحتل مكانته وأصبح أقوى الآلهة عند المصريين ٠

وكما تضاءل « رع » بجوار أوزوريس تضاءل أوزوريس بجانب « أزيس » فقد أخذ نفوذ أوزوريس يتلاشى شيئا فشيئا ضاربا في طريق الغروب من سماء حياة المصريين في حين بدا شفق أزيس تقوى صفرته ثم تشرق شمسها وتصعد الى القمة شيئا فشيئا يصاحب صعودها كل الشعائر التي كانت تقدم لأوزوريس بعد أن حورت صيغتها لتناسب ذات ازيس الأنثى ، ولا نغالي اذا قلنا : ان جذور عبادتها التي طغت قد بدأت تسقي في عهد مبكر لا يقل بحال عن ألف سنة قبل العهد الروماني

---

(١) ص ٤٨٥ ديانة مصر القديمة ادولف ارمان دار احياء الكتب العربية .
(٢) راجع ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ من العقد الثمين في محاسن وبدائع الاقدمين من المصريين للمؤلف : احمد بك كمال .

٣٥ ق٠م وما أن كان العهد الروماني حتى سيطرت ازيس على العقائد في العالم المتمدين اذ ذاك ٠

كانت ازيس مجرد آلهة صغيرة تابعة لأوزوريس وزوجة مخلصة محبة له ثم تقدمت درجات عاطفية كبيرة في نفوس الناس حتى ملأت أفئدتهم كآلهة وأصبحت « الجوهر الجميل للآلهة جمعاء » وتجسدت بقرة ، تماما كما تجسد زوجها « عجلا » وفي أحد أناشيد العصر الروماني نجدها أصبحت آلهة لكل مدينة من روما بايطاليا الى الهند وفارس ، ومن البحر الأسود الى البحر الأحمر ، كانت السيادة في كل مكان للآلهة ذات الاسماء العديدة لستين بلدا وقطرا وشعبا ، كانوا يعبدونها مقتنعين أنها :

« الفضلى الجميلة ٠٠٠ الطاهرة المقدسة » فعبدت في روما على أنها « محاربة » وفي « بامبيكي » على أنها « اترجاتس » وفي كريت على أنها « أرتميس » وفي « صيدا » على أنها « عشترتى » وشيد لها الأتباع معابد كثيرة في الشرق والغرب في مصر و « مالسسين » على بحيرة جاردا ، وفي « بنفنت » و « روما » و « بومبي » ٠

وظلت عقيدتها تنمو حتى نهاية القرن الثاني الميلادي ثم أخذت تفيء الى الغروب وتترك الأرض التي عبدتها جزءا بعد آخر ، وتقلص نفوذها كله الا بقية ضئيلة تعبدت لها في العالم الروماني ، وقامت بتدريس العقائد المصرية حتى القرن السادس الميلادي حين لفظت أزيس آخر أنفاسها (١) ٠

هذه نبذة سريعة في عقيدة المصريين القدماء التي صحبت تاريخهم ، مستقاة من أدق المصادر العلمية فيما كتب خاصا

---

(١) راجع ص ٤٢٥ الى ٤٩٠ من ديانة مصر القديمة لاودلف ارمان .

بتاريخ ديانة مصر القديمة وهي تشير في جلاء الى ظواهر ثلاث في تاريخ تلك الديانة وهي ظواهر هامة تعطي الموضوع قوة الربط واتصال الحلقات ٠

فتداعى الاله من القمة الى السفح ملموس في تاريخ الوثنية المصرية ، يبدأ الاله في الصعود من حيث لا شيء حتى يبلغ قمة مجده ويتربع عرش قداسته ، ويزري بالآلهة الآخرين وتدور الأناشيد من حوله ، وترتفع الطقوس لذاته ، وينتشر اسمه في كافة الأدعية والصلوات ، ويبقى في ذلك المجد حينا من الزمن ثم تسأم القمة وجوده ، وتلفظ مجده فيأخذ في الهبوط ببطء وتدريج ، وتنكمش روحانيته وتذوي في القلوب سلطته الى أن يتداعى مجده تماما في حين يصاحب هذا الهبوط لاله ارتفاع ببطء أيضا لاله آخر حتى اذا بلغ الأخير قمة قداسته يكون سلفه موضع السخرية ، وهدف التندر والنكتة في أفواه الشعب « وابيس وأوزوريس ورع » وغيرها مر بهذا الطور ٠

كان ابيس مجرد عجل لا قيمة له في عهد الأسرة الأولى حيث يظهر على حجر « بالرمو » يعدو بجانب الملك دون أن تحيطه مظاهر التقديس ثم تطور نحو القمة حتى صار تجسيدا لأوزوريس وتقدس شأنه وعلا كعبه ، وحج قبره ٠

و « رع » أعلى المعبودات المصرية الذي طغى على « نون » أبيه وأزرى به ومحا من جانبه الآلهة : « تفنون » و « شو » وغيرهما تقلص نفوذه بعد أن تقدم به الزمن « ودبت فيه الشيخوخة فأصبحت عظامه من فضة ، وأعضاؤه من ذهب وشعره من اللازورد الحقيقي » ٠

لاحظ الناس ذلك ودبروا له سوءا « واستجار بالآلهة

وخاطبهم قائلا : « هل رأيتم بنـي الانسان كيـف يأتمـرون ضدي » •

وحين صعدت ازيس القمة وأصبح أوزوريس في السفـح تناسى الناس أنه الـه وهزأوا منه واعتبروه مجرد « الرجـل أوزوريس (١) » •

ويعتبر « التجسيد » ظاهرة ثانية تلازم الآلهة :

فيتجسد « رع » قطاِ كبيرا ، و « نوت » تتجسد بقرة مثلما تجسدتها ازيس ، وتتجسد « تفنوت » لبؤة متوحشة في الصحراء النوبية ، وتتقمص « تحوت » قردا كبيرا (٢) •

وعظمي الظواهر وثالثتها (تكرار طراز العبادة) واستخدام نفس الطقوس للخلف من الآلهـة ، فالمظهر الحماسي لالـه من الآلهة ، وشدة التعلق به تعبر عن نفسهـا في ألوان عدة مـن الشعائر والتكاريس يدين بها المصريون جميعا : ملكا وكهنـة وشعبـا •

هذه الشعائر تكرر نفسها مع الخلف من الآلهة وتنتقل اليه في بساطة يساعد على ذلك مدى الزمن الكبير المصاحب للصعود والهبوط ، فاذا تقرب لأوزوريس بصلاة ، وصيام ، وحـج ، وقرابين فالأمر كذلك بالنسبة لزوجه ازيس ولـ « رع » مـن قبلهما حتى أنه يمكننا اذا وجدنا طقسا لأزيس أن نقطع بوجوده لأوزوريس أو على ـ على الاقل ـ بتطوره عن طقوسه ، فلم يكن الالـه يصعد فجأة ، ويهبط فجأة حتـى تصدر للجديـد مراسيم شعائر جديدة •

---

(١) انظر ديانة مصر القديمة أدولف ارمان ... راجع الاعلام .
(٢) راجع ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٧٥ ، ٤٧٥ ديانة مصر القديمة .

لقد كان الأمر يستغرق مئات السنين تتلى أثناءها الصلوات والترانيم حتى يأتي الوقت الذي يستقل فيه الصاعد بهـا ، ولا يستدعي الأمر عندئذ أكثر من علاج لفظي يحفظ للنصوص وقارها لتناسب تماما الالـه الجديد • وبذلك يؤدي الكهنـة ما يرونه واجبا نحو الدين الذي اخترعوه •

وقد وصلت الينا صور من شعائر أوزوريس : صـلاة ، وصياما ، وحجا وقرابين مما كان له قبل التجسيد وبعده •

وكان الصيام فيها فرضا يشمل خدمة المعبد وكهنته •

كان على خادم المعبد : صيام سبعة أيام متتالية عن غـير الماء ، قبل أن يلتحق بالمعبد ، وقد تمتد هذه الى اثنين وأربعين يوما •

وكان تكريس الكاهن يمر بمراحل ، ويخضع له الكاهـن سواء كان معبده بمصر أو غيرها فالفرائض لا تتغير وأصـدق مثال لذلك تكريس « لوكيوس » أحد كهنة ازيس بروما :

ففي المرحلة الأولى قضى لوكيوس عشرة أيام صائما عن أكل اللحم ، وشراب النبيذ حتى انتهى التكريس الأول ، وفي التكريس الثاني لقنه الكاهن « اسنيوس ماركلوس » واجباته المتعلقـة بالمسائل المقدسة وذلك بعد صيام عشرة أيام أخرى ، وتطوع لوكيوس في التكريس الثالث فأطال فترة الصيام رغبة منـه لا فرضا عليه (١) •

ويبدو واضحا من ذلك أن صيام الكهنة كان يجمـع بـين تشريعي : الفرض والرغبة •

فأما صيام الشعب فكانت له مواعيد مقررة دورية ، كما كان

---

(١) راجع ص ٤٨٢ ديانة مصر القديمة .

يرتبط أحيانا بحدث مفاجيء : فكان الشعب يصوم أربعة أيام من كل عام تبدأ عندما يحل اليوم السابع عشر من الشهر الثالث من فصل الفيضان المسمى « أخت » وهو ما سمي بعد بهاتور من الشهور القبطية (١) وتحتفل مصر عندئذ بعيد حزين يقام رسميا في « بوصير » ويشترك فيه الرجال والنساء جميعا ليبدي الجميع مشاعرهم نحو ازيس وزوجها ٠

وكانت تكثر في هذا المعبد مظاهر الحزن في أعمال شاذة فتحدث النساء جروحا بأجسادهن ، ويحملن الطين على رؤوسهن (٢) الى غير ذلك ٠

وكان الاحتفال بعيد وقوع أوزوريس في قبضة عدوه وأخيه « ست » يقام كل عام مصحوبا بالصيام ويحتفل له بتضحية ثور تفصل رأسه وتنزع أطرافه ، وأطراف العجز والأكتاف ، ثم يحشى جسده بمختلف اللذائذ والطيبات ، ويعد لافطار الصائمين (٣) ٠

فأما اذا مات عجل « ابيس » فتقضي الشعائر أن يعم الحزن مصر كلها وترتدي النساء ثياب الحداد ولا يدخل أفواههن شيء غير الماء والخضر مدة سبعين يوما يصمن خلالها تماما عن غير هذين اللونين من الطعام والشراب حتى يتم دفن ابيس (٤) ٠

وفي الواقع هي فترة ابتدعها الكهنة تعطيهم فرصة العثور على عجل آخر بنفس الشكل حتى يصرحوا بعدها بهبوط الاله

---

(١) راجع لضبط هذه المقارنة كتابي : « مصر : الشرق الادنى القديم د. نجيب ميخائيل ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ والعقد الثمين ص ٦٠ للاستاذ احمد كمال .

(٢) راجع ص ٦٠ العقد الثمين لاحمد بك كمال .

(٣) راجع ٥٠ هيرودوت في مصر ترجمة د. وهيب كامل دار المعارف .

(٤) راجع ص ٤٢٨ ديانة مصر القديمة .

في « ابيَس » آخر ، فضلا عن انتظار انتهاء زمن التحنيط ٠

وهذا اللون أو ذاك من صيام الشعب يتصل بما له من عقيدة رسمها هؤلاء الكهنة وأحاطوها بالأسرار ، والرموز المبهمة فحملت الى النفوس ايحاءات شتى من الرغبة والموهبة ، والخوف والأمل ٠

وكانت تشريعات مصر في الصيام هذا متنوعة تجمع بين الفرض والنافلة ، والامتناع المطلق عن الطعام والشراب ، والامتناع عن أحدهما ، وحددت له الأوقات الثابتة وناطته أيضا بالظروف العارضة ، وساهمت بجانب الهند ، في تحريم اللحم ، وحملتا ذلك الى كافة أنحاء العالم حتى شرعه ـ للأسف ـ كهنة بعض الأديان السماوية قبل الاسلام ، وهو تشريع ما أتى به أنبياؤهم ، ولا نجده حتى فيما يتداولونه من كتب يقدسونها ٠

وليس ما قدمنا من صيام مصر هو كل ما صامت مصر ، فلا نزال حتى الآن نجهل بعض شأنه ، ولا تزال أرض مصر تحوي آثارا ، وتضم متونا ، لم تر الشمس مذ دفنت بجوار (مومياواتها) فما قدمناه من صيامها انما هو هذا النذر الذي رأى النور وفض عنه غبار القبور ٠

صيـــام اليونـــان والرومـــان

قد يلفت النظر الى اليونان فلسفتها أكثر من دينها وعقائدها لكنا نكون مبالغين طامحين الى أكثر من الواقع اذا اعتبرنـــا « عقول أرسطو العشرة » تفكيرا رياضيا بحتا خلا من أثر آلهته المتعددة بتلك البلدة التي درجت فيها طفولته كما حدثنا أستاذنا دكتور محمد البهي ٠

وليس تأثير الدين على الفلسفـــة وقفـــا على أرسطو دون سواه ، فان فيثاغورس قد تأثر به الى حد بعيد حتى كاد يكون رأس دين بشري مستقل تطور حتى كاد يكون شعوذة ٠

وحسب القارىء أن يلم بديانة اليونان حتى تتكون لديه تلقائيا ديانة الرومان أو تكاد ، فالأدوار الدينية بـــين البلدان واحدة ، وعناصرها الأولية موجودة بكل من مصر وبابل والهند، وبعض العقائد غرس شرقي بحت ثابت ببراهين مادية ، وقد سبق أن بينا كيف وجدت « أزيس » مكانا لها في أكثر من بقعة بأوروبا قبيل وأثناء وبعد عصر الميلاد الى نهاية القرن السادس منـــه ٠

كذلك عندما استطاع « أورليانوس » أن يقضي على نفوذ

« زنوبيا » ملكة تدمر العربية عام ٢٧٢م ، وينقلها الى بلاده أسيرة في يديها قيد من ذهب ، فانه لم يلبث أن شاد هيكلا جديدا أحدثه بروما وأقامه لاله الشمس الشرقي تخليدا لذكرى ذلك النصر المبين (١) ، ونقل الى الهيكل الجديد حلى هيكل الشمس الذي بتدمر وذخائره ، وتعتبر هذه الديانة الطارئة بروما ديانة عتيقة في الشرق وبخاصة في بابل وأشور وبين الصابئة ، وفي الهند

فاذا أضيف اليها أيضا عبادة « ازيس » التي انتشرت في أوروبا أمكن أن نعلم أن صيام « شيتو » و « أزيس » كان نسكا بين اليونان وروما في معابد الشمس ومعابد أزيس على الأقل كما تقتضي قواعد التكريس ٠

وكان « للفيدا والجانتية » أثر لا سبيل الى انكاره بين اليونان القدماء وبخاصة بين عباقرتهم ، ولن يغير هذه الحقيقة أن يقال ان « الفيدا » آرية الاصل قدمت من أوروبا ، فسواء كانت شرقية بحتة أو قادمة من أوروبا فالأمر لن يختلف ، وقد أثرت الفيدا والجانتية على كل من « ليكورجوس » مشرع أسبرطة ، واليوناني « فيثاغورس » الفيلسوف الرياضي ، فكلاهما أنهى حياته بجوع متعمد وحرمان دائم أتى عليه ٠

فأما « ليكورجوس » فبعد أن رأى شرائعه تثمر خيرا كثيرا في شعب « اسبرطة » عز عليه أن يدور بها الزمان وتتزحزح قيمتها من النفوس ، وتهوي شيئا فشيئا ثم تذهب هباء ، فأراد أن يدفع مواطنيه الى الحرص عليها واستبقائها كريمة على نفوسهم ، عزيزة عليهم ، فأوهمهم أنه يريد أن يطمئن على سلامة شرائعه باستفسار وحي « أبولون » بأثينا ، وأخذ عليهم

---

(١) ص ١٠٠ تاريخ العرب فيليب حتي وزميليه دار الكشاف جـ١ .

عهدا وميثاقا أن ينفذوا شرائعه الى أن يعود ، ثم رحل الى أثينا وتمم ما أراد ، وقرب قربانا لأبولون ، واستمع الى كهنتـه ، يقول بلوطرخوس :

« ثم أدى تقدمة أخرى ، وعانق أصحابه وابنه وارتضى أن يموت حتى لا يتحلل مواطنوه من قسمهم » ٠

كان في تلك السن التي يكون فيها الانسان من القوة بحيث يستطيع الحياة ، ومن النضوج بحيث يستطيع الموت اذا أراد ، رأى جميع متمنياته محققة على وجه التقريب ، فأمات نفسه جوعا معتقدا أن موت السياسي أوفر فائدة لمواطنيه من حياته العاطلة (١) ٠

وعبارة بلوطرخوس : « ومن النضوج بحيث يستطيع الموت اذا أراد » تبين احترام القوم للاقدام على الانتحار ولا تزري بالمنتحر فهو « ناضج » الفكر عندهم يستطيع أن يموت اذا أراد، وذلك تشريع برهمي جانتي بحت ٠

و بعد ليكورجوس بنحو ثلاثة قرون ولد فيثاغورس ٥٥٨ق٠م وعاش حياة غامضة ليس سهلا معها تبيان فلسفته من دينه على أنه حاول أن يقيم صلب دين متشدد ، فيه قسوة منهاج مدرسته الفلسفية وهذا الغموض الذي صاحب حياته صاحب كذلك موته فيقال : انه في آخر حياته اختفى بطريقة غامضة (٢) ٠ وتزعم رواية أخرى « أنه فر الى ميتابنتم metapontum حيث امتنع عن الطعام أربعين يوما ، ولعله كان يحس أنه يجب أن يكتفي من العمر بثمانين عاما وأمات نفسه جوعا (٣) » ٠

---

(١) ص ١١٢ جا العظماء بلوطرخوس دا رالعصور ١٩٢٨م .
(٢) ص ٥٤ الفلسفة الاغريقية ج١ د محمد غلاب الانجلو المصرية .
(٣) ص ٣٠١ ج١ م٢ قصة الحضارة .

ولقد مضى فيثاغورس في تلك الجانتية البرهمية وصار معها تابعا طائعا لا يقبل التجديد في شأنها فاعتنق الحلول ورأى « أن جميع الحيوانات التي تدب على الارض أهـل لحلول النفس البشرية فيها ، واذا ثبت ذلك فمن المحتمل أن يكون كل حيوان ظرفا لنفس بشرية ، واذا فذبح الحيوانات أو قتلها جريمـة كبرى لا تقل عن قتل الانسان ... ومنذ ذلك العهد أصبح أكل اللحوم محظورا على كل فيثاغورسي مخلص (١) . ولم يقف الأمر عند تحريم اللحم فحرم بجواره : الثوم ، والبصل ، وما اليها من أطعمة تخلف رائحة كريهة بالفم .

واذا كان أمر اللحم خاصا بالفيثاغوريين في اليونان فقد عم الشعب ـ الروماني كله ، ولقد مر حتما ـ وقت طويـل على الرومان حتى أصبحوا يأنفون أنفة طبيعية من اللحم ، فقد كان الجيش الروماني في عهد يوليوس قيصر نباتيا تماما حتى انه لما أنقصت كمية القمح اللازمة له « واضطر هذا الجيش لأكل اللحم شكا الجند من هذه الحالة (٢) » .

على أنه في دائرة الفلسفة قامت دعوات للتقشف والزهد عند الكثيرين من عمالقة الفلسفة اليونانية ومارسوها عمليـا حتى بلغوا بها غاية قد لا يرتقى اليها الصيام في الديانة نفسها ، ففي عام ٥٣٠ ق.م نشأت عدة مذاهب ومدارس في « دلفي » ، و « ايلوزيس » و « أثينا » كانت أولى غاياتها الاتصال المباشر بالآلهة عن طريق التنسك » . وبلغ الزهد بسقراط مدى قاوم معه « البرد والجوع والعطش أيامـا (٣) ، وليس الا انسان واحد فقط في تاريخ تلك الفلسفة الزاهدة هو الذي هز غصونها

(١) ص ٥٧ الفلسفة الاغريقية ج١ .
(٢) ص ٧٣ ج١ م٣ قصة الحضارة .
(٣) ص ١٥٢ ج ١ الفلسفة الاغريقية .

في عنف عاصف ، انسان خبير باللذة التي مارسها حتى أشبع بها غرائزه وحواسه ، وتلقاها على يدي بغيتين من طبقة هتايراي hetarai هما داني Danae وليونتيوم Leon tium (١) ، فبين أحضانهما اعتصر أبيقور اللذة فلم يعرف بعدهما كيف ينادي بالزهد وكما أفرط (أبيقور) في اللذة ، أفرط (فرفريوس) في حياة النسك ، ووضع فيها كتابا مسهبا يكفي لاظهار البون الشاسع بين أبيقور وفرفريوس .

وليس كل ما لدى القوم من صيام هو وليد الأديان الطارئة أو نتيجة للأخذ بالزهد ، فقد كان للقوم دينهم ، وكان لهذا الدين صيام :

صيام خاص بالدور الكهنوتي للصغير والكبير .
وصيام تختلف أنواعه للشعب .

فمنه ما يؤدى قضاء بحق الشعيرة ، ومنه ما يؤدى لظروف عارضة كما كانت وظيفة التنبؤ بالغيب تقتضي صياما بدورها ، هذا التنبؤ الذي اعتبر وظيفة رسمية في روما مقرها دار البلدية التي كانت تعج بعض حجراتها بالمتنبئين ، وفي اليونان كان المعروف السائد أن النساء أكثر استعدادا لاستقبال الوحي من الرجال ، وبخاصة عذراوات المعابد اللواتي أطلق على المتنبئات منهن « سيبيلات Siliyls » ولم يكن يتولى الاخبار بوحي دلفى الا النساء ، وهو وحي اعتبره أفلاطون (حقيقة) يعتمد عليها علميا .

ولنأخذ مثالا للتحضير لجماعة من الكهنة صغارا وكبارا :

كانت « دمتر » آلهة أقيم أعظم معابدها في « الوسيس »

---

(١) راجع ص ١٠٣ ، ١٠٦ جـ ٢ م٢ قصة الحضارة .

وقد ذاعت شهرتها حتى عبدت في « أثينا » نفسها أواخر القرن السابع قبل الميلاد وقد وضع الكهنة لها طقوسا خفية وقسموها الى نوعين :

أسرار صغرى ٠
وأسرار كبرى ٠

تقام الأولى في فصل الربيع بالقرب من أثينا ، ويغمر فيها طلاب الأسرار أنفسهم في ماء الوسيس قبل أن يسيروا أربعة عشر ميلا الى الهيكل في الوسيس وهذه المرحلة تقتضي الصيام والاستحمام ، وفي الاعداد للمرحلة الثانية « طلب الأسرار الكبرى » وكانت تدوم أربعة أيام « تبدأ بادخال من تطهروا في الأسرار الصغرى بالاستحمام والصوم ، أما الذين مارسوا هذه الطقوس في مثل ذلك الموعد من العام الماضي فكانوا يؤخذون الى بهو « الاندماج » في الجماعة السرية حيث يكون الاحتفال السري ، وهناك يفطر المبتدئون الصائمون بأن يتناولوا عشاء ربانيا ، احياء لذكرى دمتر (١) » ٠

وكان شعب الاغريق يقبل جميعه على أنواع مختلفة من الصوم أيام النوازل والخطر كما كانت هناك بلدان تستقل بصيام خاص بها فكانت مدينة « تورنتم » تصوم في كل عام شكرا لله على النجاة من حصار نزل بها فلما تخلصت منه لازمت هذا الصيام (٢) ٠

وكانت هناك أيام صيام تسبق تنقيح القوانين كل سنة ، فكانت المحصنات الأثينيات يصمنها متقشفات حافيات « ومن

(١) ص ٤٤٢ ، ٢ جا قصة الحضارة .
(٢) راجع ص ٥٧ وما خلفته اليونان . نشر مطبعة اوكسفورد . ترجمة لجنة التأليف والترجمة والنشر المطبعة الاميرية سنة ١٩٢٩م .

الممكن المقابلة بين هذه وبين تعرية الأقدام الذي كان الرومان يأخذون أنفسهم به زمن القحط ، والذي ذكره بترونيوس ، وترتوليان ··· وكانت عبادة ديونسيوس في « ترافيا » مصحوبة ــ قبل فيثاغورس ــ برياضات من التقشف (١) ، وكان الشعب كله يصوم عشرة أيام قبل الحرب استنزالا للنصر ·

وينبغي ألا يغيب عن خاطرنا حرية (المعتقد) التامة للشعب الاغريقي فاذا كانت تلك أصوامه العامة التي يشترك فيها ، فان ثمة معتقدات مختلفة بين أوساطه بل بين طوائفه لها شعائرها وصيامها ·

وقد عرف هذا الشعب أنواعا سبعة للآلهة : آلهة للأرض ، وأخرى للسماء وثالثة لما تحت الأرض ، ورابعة للخصب ، وخامسة لأبطال القوم ، وسادسة للآلهة الحيوانية ، وسابعة للآباء والأسلاف ، ولم تك تلك كافية فأصبح لكل حرفة اله وطغى عددها على الحصر ·

ولم تستطع هذه الأديان أن تدخل على نفوسهم بالرهبة أو تحد من قدرتهم على التآلف بمباهج الدنيا ، وقد كتب عنهم لويس ديكنسون فقال : « كانوا غافلين عن الصلة الروحية بالله غافلين عن المعصية باعتبارها ازورارا عن القوة القدسية ، غافلين عن الندم والتوبة بصفتهما وسيلة لتعويض السمو النفسي المفقود » ، ثم استطرد شرحا لنفسية الاغريقي فقال : « وكانت وظيفة دينه هي تهدئة الضمير بالطقوس لا احياؤه بالتحذير والملامة (٢) » ·

على أن ذلك لا يمنع أن يكون ما حيك حول الصيام من

---

(١) ص ٥٧ المرجع السابق .

(٢) ص ٩٣ الفن والمجتمع هربرت ريد ــ فتح الباب عبد الحليم مطبعة شباب محمد صلى الله عليه وسلم .

ترغيب نفسي كان كفيلا لاقناعهم بممارسته ، وقد بلغ الاقناع به في روما حدا اعتقد معه الرومان « ان الصائم يستطيع أن يقتل الأفعى اذا تفل في فيها (١) » وربما أعطانا هذا القول فكرة عما دار حول الصيام من خرافات غير معقولة لدى القوم ·

وكان للتنبؤ صيام :

فكان على الكاهنة ـ استعدادا للتنبؤ ـ أن تصوم ثلاثة أيام لا تتناول خلالها الا ورق الغار لتمضغه وتأخذ من رحيقه ، حتى اذا أمضتها جلست على نضد عال ذي ثلاث قوائم تحته موقد مشتعل تتصاعد أبخرته الكريهة المنتنة التي تجبر الكاهنة العذراء على استنشاقها حتى يتولاها اضطراب شديد يفسره الكهنة بأنه من عمل الآلهة ، حتى اذا أخذت في الهذيان ـ أو تظاهرت به ـ تناول الكهنة كلماتها بحرص ـ تلك الكلمات ذات الصلاحية للتفسير بوجوه عدة ـ ولا ينون أحيانا عن ايذائها اذا تأخر الوحي ، وقد يصيغون كلماتها شعرا يذيعونه على طالب النبؤة ، فقد كان بامكان كل فرد أن يستنبىء كاهنة المعبد ما دام يدفع الثمن ·

ولم تك روما أرفع حظا من ذلك فقد كانت معاركها الحربية تدور بوحي من هذه الكهانة الخرافية ·

---

(١) انظر ول ديورانت ـ قصة الحضارة م٣ ج٢ ص ١٩٢ ·

مع الديانــات السماويــة

بين يدي السماء :

مذ صلحت الأرض لحياة الانسان ، وباتت تمونه بحاجاته ، عاش الانسان ورسالات السماء تهديه وترعاه : « وان من أمة الا خلا فيها نذير (١) » فقد أبت رحمة الله الا أن تحفظه ، وتجعله على بصيرة من أمره ، لا في جانب العقيدة فحسب ، بل في كل جوانب حياته : عقيدة ، وعمل ، وعلاقات ·

وكانت رسالات السماء أسبق الى تحقيق « وحدة الانسان » فلم تقر ــ يوما ــ بامكان فصل عقله عن عاطفته ، أو ضغط شريف مشاعره من أجــل فكره ، فكــانت تتولى أمره ــ بحزم شريف مليء بالتقدير والتكريم ــ على أنه : روح وبدن ، وعقل وعمل واتزان وعاطفة ، ورغبة وأمل ، وطاقة واندفاع وأنه ــ على كل ذلك ــ وحدة لا تتجزأ ، وأن العاطفة والروح ، والعقل والعمل والرغبة والأمل ، كل ذلك يستقر في قلب هذا الانسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم ، واستخلفــه ــ في الأرض ــ ليحيل خرابها عمارا ، وفسادها صلاحا ·

---

(١) سورة فاطر ــ الاية ٢٤ .

ولقد كان من أعسر الأمور على الانسان ـ اذا ترك لنفسه ـ أن يوفق بين هذه المشاعر المختلفة ، والواجبات المتعددة ، ولم يكن سهلا عليه أن يشبع رغبته ، أو يحقق أملا دون أن يفسد عملا ، أو يهدر عاطفة أو يضر بالآخرين ·

ولو سلم ذلك مرة ، وحسن تقديره فترة ، فلن يكون النجاح حليف كل الدورات لأنه لن يمكنه أبدا أن يكشف طبيعة ذاته ، ويستبين كنه حقيقته وينظر أبعاد مشاعره ، وينتصف للقيم الطيبة بين كل ذلك ، فيوجه أموره على طريق انساني مستقيم، فالله ـ وحده ـ هو الذي يدرك ـ في خلقه ـ ما خلق وهو ـ وحده ـ الخبير بما صنع ، فكانت ـ من أجل ذلك ـ رسالاته الى الانسان · تلك الرسالات التي اصطلحنا على تسميتها : « رسالات سماوية » ، لنفرق بينها وبين ما أطلق الانسان من فلسفة وعقائد صارت دينا لقوم دون آخرين ، فحملت رسالات الله للانسان شريعة كانت ممارستها أمرا ونهيا صمام أمان لا تتضارب أمامه مشاعره وحاجات الآخرين ، ولا ينتكس الحق عنده بين قلبه وعقله وأمله ، ثم هي ـ من قبل ذلك وبعده ـ تسمو به عن الذلة لآخرين ، وتوجهه لمهمته الثانية : « مهمة تعمير الكون » فقد كان من المحال أن يضطرب المرء في نفسه ، ويفقد اتزانه ثم يكون صالحا لعمارة الكون ·

وانتشرت رسالات السماء حيث كان الانسان تبصرة وحجة، فارتفع بها أقوام ، وضل آخرون ، آمن بها من عرف لنفسه حقها ، وقومها فأحسن التقويم ، وضل من أخذته العزة بالاثم فاستنكف أن يكون عبدا لله ·

على أن بعض رسالات الله الى البشر لم تكن بمأمن من هوى بعض الأتباع ، فابتدعوا لها « رئاسة » ليست من طبيعتها ، وجعلوا لتلك الرئاسة حقوقا ما أنزل الله بها من سلطان ،

حقوقا سطت على الرسالة فأضاعت حصانتها ، فتغيرت بأيديهم ، وتلوثت بتحريفهم ، وانتهى بعضها الى « عقيـدة » لا يربطها بـ « الأصل » السماوي شيء ، وليس بعيدا ـ أبدا ـ أن تكون أشد العقائد وثنية انما هي حصيلة تحريف وتبديل لعقيـدة سماوية نزل بها سفف التأويل والحذف والتبديل الى الحضيض حتى اتخذت ـ من دون الله ـ أندادا ٠

ان ديانة السماء ذات « أصول » لم تتغير أبدا في أي رسالة أوحى الله بها الى واحد من رسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وذات تشريع لممارسة العبادة من صلاة وصيام وزكاة ٠٠٠ الخ ، وهي فروع قد تتغير من رسالة الى أخرى حتى يكلف الناس من العمل ما يطيقون ، والصيام واحد من هذه التشريعات شريعة قديمة استمر بقاؤها في أديان السماء حتى اليوم ، ونص عليه في كتبها ومنها بين الناس ثلاث :

أ ـ الموسوية التي أتى بها موسى الكليم ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ في نحو القرن الخامس عشر من قبل الميلاد ، ثم استحالت الى « اليهودية » ٠

ب ـ المسيحية التي أرسل بها المسيح عيسى بن مريم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ثم استحالت الى النصرانية ٠

ج ـ الاسلامية التي ختمت بها رسالات السماء وأتى بها خاتم النبيين والمرسلين : محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ٠

وللصيام في كل منها تشريع :

الصيــام في اليهوديــة

صيـــام موسى ، وصيام قومــه

أذن الله لموسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فتلقى ألواح التوراة وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ٠

وأقام ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أجلها أربعين يوما في « سيناء » صائما ، فلما انتهى موعده مع ربه ـ عز وجل ـ عاد الى قومه بشريعته ٠

وتزعم اليهود أن صيام « الأربعين » هذه فرض على موسى وحده وهو خاص به ليس عليهم منها شيء ٠

ويذكر مفسرو القرآن العزيز صيام موسى هذا عند تفسيرهم لقوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة (١) » ٠

قال المفسرون : انه عليه السلام صامها وطواها (٢) ٠ أي لم يتخللها فطر أبدا ٠

وتذكر التوراة ، أي العهد القديم ، المتداول بيد القوم هذا

---

(١) سورة الاعراف ــ الاية ١٤٢ ٠

(٢) تفسير ابن كثير ٢٤٣/٢ ٠

الصيام في موضعين منه (١) ·

وسواء كان فرضا على قومه أم لم يكن ، فهو ـ على أي حال ـ « واقع » معترف به منهم ، وكان كفا عن الطعام والشراب والجماع ، ولا جدال في ذلك ضرورة أن لقاءه بربه كان ـ في تلك الأيام ـ مقصورا عليه ·

فأما بنو اسرائيل فانما يصومون « الفرض » يوما واحدا في العام هو يوم « الغفران » يدعون أنه ـ وحده ـ ما افترض عليهم ، وما عداه من أصوامهم فهو نفل ورغيبة ، ويبدأون صيامه قبل غروب التاسع من (تشري) رأس سنتهم العبرية بنحو ربع ساعة الى ما بعد غروب العاشر بنحو ربع ساعة فهو لا يزيد بحال عن خمس وعشرين ساعة متتالية ، ويطلقون عليه يوم « الكبور » وهو عاشوراء اليهود ، وما زال فيهم حتى اليوم (٢) ·

وجدير بالذكر أن العهد القديم خلا من نص يقصر فرضية صيام اليهود على يوم الكبور فقط ، غاية ما في الأمر أنه بقي في العهد القديم ما يشير اليه ولا يطلب الصوم فيه نصا ، وليس بعيدا أن يكون فرضا فيهم بضميمة غيره اليه ، على أن تأويلهم في كيفية الصوم لم تجاوز الحق فقد خلا صيامهم من فترة السحور · وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر (٣) » فقد حرم على أهل الكتاب ـ واليهود منهم ـ أن يستمر فطرهم من بعد الغروب الى الفجر ، وامتاز المسلمون بحل تلك الفترة لهم ·

---

(١) سفر الخروج ٣٤ ـ ٢٩ ـ وسفر التثنية ٩ ـ ١٠ .
(٢) راجع في العهد القديم سفر اللاويين ١٦ ـ ٢٩ ، ٣٤ .
(٣) رواه مسلم في صحيحه وابو داود والترمذي والنسائي ، انظر الجامع الصغير بشرح العزيزي باب الفاء .

وانما كان ابتداء صيام اليهود بالغروب تبعا لحسابهم القمري ، ويبدأ اليوم في هذا الحساب بغروب الشمس ·

على أن اليهود لم يحافظوا على حرمة ذلك اليوم ، ولا حرمة حسابه بما أدخلوا عليه من نسيء ما قال به موسى ولا أنبياء بني اسرائيل ـ والعهد شاهدنا على ذلك ـ لقد زادوا شهرا كل ثلاث سنوات أطلقوا عليه « آذار الثاني » حتى يقع رأس سنتهم العبرية بصورة دائمة فيما بين شهري سبتمبر وأكتوبر من كل عام (١) ، ويعني جريهم بهذا الحساب ، لا اختلاف يوم الكبور فحسب ، بل سقوطه كلية في بعض السنوات بفضل ما يتجمع من هذا الشهر كل ثلاث سنوات على مدى الزمن ·

وكم يكون الجحود بالغا والنكران عظيما اذا افترض الله عليهم يوما فيخونونه ، ويضيعونه ، ويستبدلونه بآخر فقد اشترطوا أيضا ألا يكون يوم الجمعة أو الأحد أو الثلاثاء (٢) ·

وأما صيام النفل فأيامه موزعة في بساط السنة ، وترتبط بأعياد لبعضها مناسبات وقعت لهم بأنحاء شتى من العالم القديم : مصر ، بابل ، فارس ، وغيرهما مما حلوا به ـ قبل الاسلام ـ وتاريخهم مشحون بهذه المناسبات حتى يكاد كل صوم وارد بالعهد القديم أن يرتبط بحادث أو يتصل بمشكلة تأذنتهم فيشرعون لها صوما وينادون به فيهم ·

ففي مصر ـ وقد عاد فريق منهم اليها كما ذكر العهد

---

(١) لليهود تاريخان : تاريخ ابتداء الخليقة وبحسابه يقولون : ان موسى ظهر عام ٣٣٥٣ منه ، وتاريخ عبرى يبدأ عندهم بحادث هجرة ابراهيم « اذهب من ارضك ومن عشيرتك ، ومن بيت ابيك الى الارض التي أريك فأجعلك أمة عظيمة ـ تكوين ١٢ ـ ١٢ وسنة هذا التاريخ الاخير : بسيطة وتبلغ نحو ٣٥٤ يوما ، وكبيسة وهي نحو ٣٨٤ يوما .
(٢) انظر في بلوغ الارب للالوسي : اعياد اليهودا / ٣٦١ المكتبة الاهلية

(أرميا ٤٣ ـ ٧) ـ تعرض اليهود لحرق معبد « يهوا » المشيد بمنطقة « اليفانتين » وكان الكهنة المصريون قد ضاقوا بهم ذرعا ، وبخاصة كهنة « خانوم » فانتهز الحاكم الفارسي هذه الفرصة ليتقرب الى المصريين فأمر بالمعبد فأحرق ثم هدمه غير عابىء بمحاولاتهم ، ولا منصت لشكاواهم ، فعكفوا على البكاء والصراخ ، وارتدوا ملابس الحداد ، وأقاموا على صيام مع نسائهم وأطفالهم (١) .

واستطاعت « أستير » الزوجة اليهودية الجميلة لملك فارس « أزدشير بن بابك » الذي يطلق عليه العهد « أحشوبروش » أن تنادي فيهم بصوم ثلاثة أيام قبل أن تنقذهم من مؤامرة هامان وزير الملك ، تلك المؤامرة التي أراد بها استئصالهم من ممالك فارس ، فلما نجحت مؤامرتها ضد الوزير وصلب هذا الأخير اتخذوا لذلك عيدا ، وقر فيهم هذا الصيام الى يومنا هذا ، وسمي هذا العيد « فوريم » نسبة الى كلمة « فور » التي تعني « القرعة » وهي القرعة التي عملها هامان لابادتهم فردت عليه، ويقع هذا العيد في الرابع والخامس عشر من « آذار » (العهد القديم ـ أستير) .

ويذكر العهد الصيام في مواطن أخرى عديدة مصحوبا ببيان أيامه تارة وغفلا من البيان تارة أخرى ، وقد يذكر أمر الحادثة الواحدة مرتين (٢) كما يقص الكتاب في غير موضع : كيف أفسد الرياء عليهم هذه الشعيرة (٣) .

---

(١) راجع ص ٣٧٠ ديانة مصر القديمة .
(٢) راجع صموئيل اول ٣١ ــ ١٣ ، واخبار الايام اول ١٠ ــ ١٢ بالعهد القديم .
(٣) راجع ارميا ١٤ ــ ١٢ ، يوئيل ١٢ ــ ١٢ ، ١٣ ، زكريا ٧ ــ ٤ ، ٥ بالعهد القديم .

وتبلغ أعيادهم المرتبطة بصيام نحو خمسة عشر عيدا أو تزيد ، بعضها يقضي بصيام يـوم وبعضهـا بسبعـة أيام ، و « الفصح » من أهم هذه الأعياد ويعني « الاجتياز والعبور » وهو عيد اجتيازهم البحر مع موسى عليه السلام ، ويدور هذا العيد بسبب النسيء بين ثاني عشر آذار الى خامس عشر نيسان٠

نفل داود على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام

ويعتبر صيامه عليه السلام ذروة صيام النفل كله ، فقد كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وهذا اللون من النفل أقصى ما ارتضاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأمته اذا تنفلت ، ولم يقبل خاتم الرسل أن يعكف المسلم أو المسلمة على صوم دائم وقال : « لا صام من صام الدهر » فكان أحب مرغوب النفل في الاسلام صيام ابراهيم الخليل ثلاثة أيام من كل شهر ، وكان أقصى النفل صيام داود عليه السلام ، وبثلاثة أيام أوصى أبا هريرة ، كما أرى عبد الله بن عمرو صيام داود أو القياس الذي لا ينبغي تجاوزه ، اذ عندما انقطع عبد الله بن عمرو رضي الله عنه الى الصيام ، وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمره راجعه وعرض عليه الاكتفاء بثلاثة أيام من كل شهر فقال : يا رسول الله اني أجد قوة ، قال عليه السلام : فصم صيام نبي الله داود ولا تزد عليه ، يقول عبد الله ، قلت : وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام ؟ قال : كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وقال عليه الصلاة والسلام : وهو أفضل الصيام . قال ابن عمرو : فقلت : اني أطيق أفضل من ذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا أفضل من ذلك (١) .

---

(١) صحيح البخاري ١/٢٩٨ ، ٢٩٩ المطبعة البهية سنة ١٢٩٩هـ باب صوم الدهر .

قائمة الصيام الأبدي

حرم « العهد » على بني اسرائيل أنواعا من المطعوم تحريما تاما ، كما حرم بعضها في ظرف خاص ، أو لما لحقته من صفة معينة أدت الى تحريمه وتلك هي المحرمات مستقاة من لفظ العهد :

١ ـ قربان :

ففي حياة بني اسرائيل الدينية شريعة القربان ، والقربان يقدم عن طريق « كاهن » في مناسبات عدة كالسلامة ، أو الخطيئة، أو الاثم ، أو النسيان أو غيرها .

ويكون في بعض أحواله حيوانا من البقر أو الغنم أو الطير، وفي بعضها الآخر يكون دقيقا وزيتا ولبانا أو فطيرا .

ولهذه القرابين قانون صارم يتناول شأنها تفصيلا ويبين ما يجب حيال كل منها ، فبعض القرابين مثل « تقدمة الكاهن » تحرق كلها ويحرم أكلها ، وبعض القرابين يحرق جزء منها ويكون الباقي من نصيب الكاهن يحل له أكله ـ وبعضها يفسد التقدمة كلها اذا أكل منه في اليوم الثالث كذبيحة السلامة .

٢ ـ حيوان :

فقد حرم عليهم من حيوان البر كل حيوان « مشقوق الظلف (١) أو مجتر » فالجمل والأرنب والوبر مما حرم أكله ، لأنها مجترة وان كانت غير مشقوقة الظلف ، وحرم عليهم الخنزير لأنه مشقوق الظلف وان كان غير مجتر وعد الكتاب مما حرم أكله تطبيقا للقاعدة أو زيادة عليها : ابن عرس ، والفأر ، والضب بأنواعه والجرذون ، والورل ، والوزغة ، والعظاية ، والحرباء ، ومنع سفر التثنية طبخ جدي بلبن أمه ١٤ ـ ٢١ ·

وحرم عليهم من حيوان البحر كل ما ليس ذا زعانف وحرشف (٢) (فلوس) ·

وحرم عليهم من الطير : النسر والأنوق ، والعقاب ، والحدأة، والباشق بأجناسه ، والغراب بأجناسه ، والنعامة ، والظليم ، والسأف والباز بأجناسه ، والبوم ، والغواص ، والكركي ، والبجع ، والقوق ، والرخم ، واللقلق ، والببغاء بأجناسه ، والهدهد ، والخفاش ·

وحرم أيضا ـ من الحيوان ـ كل ما يمشي على بطنه ، أو على أربع من كل ما كثرت أرجله من كل دبيب يدب على الأرض، ولا يستثنى من ذوي الأربع الا ما كان ذا « كراعين » يثب بهما على الارض فما كان كذلك كالكبش وغيره فقد حل ·

وحرم عليهم في « عيد الفطير » فقط وبصفة خاصة ـ أكل اللحم النيىء والمطبوخ ـ وجاز لهم تناول اللحم المشوي ، ومما حرم عليهم في عيد الفطير أيضا أكل الخمير ·

---

(١) الظلف ـ بزنة علم : الظفر المشقوق .
(٢) حرشف ـ بزنة : جعفر : قشر السمك .

٣ ـ شحـــم :

حرم عليهم شحم البهائم التي تقدم قرابين ، بالاضافة الى ما جاء في العهد :

كل شحم ثور أو كبش أو ماعز لا تأكلوا · لا ويين ٧ ـ ٢٣ ·

٤ ـ الميتـــة :

حرم ميتة ما حل طعامه ، وجرم شحم الميتة ، وشحم بهيمة افترست ويعتبر في حكم الميتة ما حل طعامه من كل حيوان حي نطح انسانا فقتله ، لأن العهد يحكم بقتل الحيوان ، ويعتبره بالتالي ميتا (١) ·

٥ ـ النجـــس :

مثل الدم ، فكل الدم المسفوح حرام في الطير أو البهائم ، وما وقع من ميتة ما تقدم على طعام يحرم بدوره لأن الميــت يحيله نجسا ·

٦ ـ الخمـــر :

ورد تحريم الخمر عند الدخول في خيمة الاجتماع تلك التي ضربت لهم أثناء التيه في الصحراء ، وعدا وصية أوصى بهـا « يونا داب (٢) » بنيه ألا يقربوا الخمر ، لا نجد نصا في العهد يحرمها تحريما تاما ، واذا خلت الأسفار الخمسة الأولى مـن العهد ، والمفروض أنها تمثل التوراة كما يدعون ، من تحريم للخمر ، فهل تعتبر هذه الوصية الواردة في غير « التوراة » شيئا ذا قيمة في التحريم ··؟ ·

---

(١) راجع سفري : اللاويين ٧ ، ١١ ـ والخروج ١٢ ، ٢٢ ·
(٢) سفر : ارميا ٣٥ ـ ٦ ·

اننا نعلم من القرآن الكريم أن ما بأيديهم ـ على ضخامته ـ ليس كل التوراة على الرغم من أنهـا أصغر من ذلك الحجم بكثير ·· وكثير جدا ، فانهم لما قالوا : « ما أنزل الله على بشر من شيء » كان رد المولى ـ عز وجل ـ عليهم : « قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا (١) » ·

كذلك انتشر في التعبير الكنسي كلمتا : « أسفار قانونية » و « أسفار غير قانونية » ·· وليس في العهد ـ على أي حال ـ أن موسى صلوات الله وسلامه عليه شرب خمرا أبدا ·

(١) سورة الانعام الاية ٩١ .

الصيـام عن اللحم ونتـاج الحيوان

ليس في شريعة « العهد » صيام عن لحم حيوان حل أكله ونتاجه من لبن أو بيض ، لا دائما ، ولا لفترة يحرم أثناءها تناول هذا أو ذاك بينما يحل فيها غير ذلك من الطعام والشراب في أي وقت من ليل أو نهار ٠

انما هذا اللحم ، وهذا النتاج طعام ، مثله مثل أي طعام حل، وأي شراب حل يحرم كله أثناء الصوم فقط ، فاذا حل الفطر حل ذلك كله تماما ٠

وان كتب السماء جميعا لم تشرع هذا اللون أو ذاك من الصيام أبدا ٠

ذلك أن موقف هذه الشرائع من قضية اللحم ونتاج الحيوان هو موقفها من « التناسخ » ٠

فهذه الشرائع السماوية جميعا تقرر أن للانسان حياتين : حياته الأولى بالدنيا ، وحياته الثانية بالآخرة ، ولا تقرر التناسخ بدوريه الأدنى والأعلى فلا تقول احدى هذه الشرائع : « ان

الانسان يموت ظاهرا ولكن روحه تظل تنتقل معذبة من جسد لآخر ، من آدمي لخنزير ، ولكنها لا تموت » ٠

كذلك لا تقول شريعة منها : أن الانسان يموت في الظاهر لكنه يولد ولادة ثانية يسمو فيها ، فيكون ملكا من الملائكة ، أو يسمو أكثر فيصير الها ، نعوذ بالله ٠

والايمان بالتناسخ هو المعبر المباشر لتحريم اللحم ونتاج الحيوان ٠

والمؤمن بالتناسخ يؤمن بأن (جسد) أي حيوان يمكن أن يكون (ظرفا) لروح انسان ٠

وبمسايرة هذا المنطق يحرم البرهمي ، أو الجانتي ، أو الفيثاغوري بداهة طعام الحيوان ، لأن في أكله أكلا للحم أخيه، ومن هنا شرع في تلك العقائد ألوان من هذا الصيام ٠

وأي رسالة تحرف فتعتقد « الحلول » تؤمن بهذا المبدأ ، ولو كانت سماوية في أصولها التي عبث بها ٠

نعم ، ان بعض هذه الشرائع حرف « فعلا » وأمسك كهنته بطرف من « الحلول » الذي أثمرته ديانات الهند ، فقرروا للأتباع ايمانا بأن الله حل في انسان رآه الناس وعايشوه ، ثم تحول ثانية الى الـه ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا وكان أن انطلقوا في الشوط فلزمهم هذا الصيام ، وقرروه افتراء على الله ٠

مهما يكن من أمر ، فانه ــ اذا كان هناك ــ « حلول » أو « تناسخ » أو « تجسد » أو « تقمص » أو ما الى ذلك ، فأنت واجد ــ لا محالة ــ نزعة الصيام هذه ٠

قلـــت :

ان شرائع السماء لا تحرم ما أحلت من لحم أو غيره في صيام أو افطار ، وهذه هي الأسفار الخمسة التي نسبت الى موســى ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ تبرأ ـ على ما فيها ـ من هذا اللون من التشريع ، وهي الأسفار التي تعتبر أسفار الشريعة ، وفيها علم ما حل وما حرم لأتباعها ٠

ولا ينبغي ترك هذا « المبحث » قبل توفيته حقه من عناية ودراسة حتى تستبين لنا براءة كتب السماء من هذا التشريع ٠

أورد العهد ـ في غير نصوص أسفار موسى ـ وبالدقة في سفر دانيال عليه السلام قوله زمن السبي ـ أي بعد وفاة موسى بقرون عدة ـ : « في تلك الأيام ، أنا دانيال ، كنت نائحا ثلاثة أسابيع : أيام ٠ لم آكل طعاما شهيا ، ولم يدخل في فمي لحم ، ولا خمر ولم أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع (١) » ٠

وكان ذاك عقب رؤيا فهم منها دانيال وجوب الجهاد ٠

فهل يعتبر هذا النص دليلا على شعيرة صيام « بالكف عن اللحم ونتاج الحيوان ؟ » ٠

وهل نشر دانيال هذا الصيام في بني اسرائيل ؟

وهل دانيال عليه السلام مشرع في بني اسرائيل ؟

ليس في النص الزام بصيام من هذا النوع ، وما حديــث دانيال الا خبر عن حال لازمها استجابة لزهد شخصي في لذيذ المأكل والمشرب ، والتنعم كله نتيجة آلام الأسر التي يعانيهـا بنو اسرائيل من حوله في أرض السبي ٠ فكانت رؤياه ـ التي فهم منها وجوب الجهاد للخلاص ، وأحس معها أنه مسئول عن

---

(١) دانيال ١٠ ـ ٢ ، ٣ ٠

ذلك الخلاص ـ صارفة له عن شهية المطعم والمشرب • كما كانت صارفة أيضا عن العناية بمظهره فترك العطر الذكي ، والطيب الفواح •

والعهد ـ بين أيدينا ـ شاهد على أنه لم يشارك دانيال أحد من بني اسرائيل في حاله ، وكان من الممكن لو أن هذا التشريع من توراة موسى أن ينادي به في قومه ، وما أسرع ما يستجيب له بنو اسرائيل ، وهم في ذل الأسر طلبا لمرضاة ربهم كما هي عادتهم في الطاعة عند الذلة ووقت المحنة ، ولعدم مشاركة أحد من بني اسرائيل له في هذا الصيام لا يمكن أن نعتبره نفلا عاما بوجه من الوجوه • ولو قد كان لأمكن اعتباره نفلا كالذي نادت به « أستير » فاستجيب لها وصام بنو اسرائيل بأمرها ثلاثة أيام، لكن دانيال كان فذا فيه فكيف يكون تشريعا عاما بعد ؟• ودانيال ـ عليه السلام ـ أمين لم يذكر أن هذا الصيام كان بأمر من الله•

ثم ان دانيال لا يستطيع ـ كنبي وظيفته في بني اسرائيل أن يحفظ فيهم التوراة من العبث ـ أن يقضي بصيام من هذا النوع فيخالف بذلك ما قاله موسى لكل اسرائيلي :

« اذا وسع الرب الهك تخومك كما كلمك وقلت : آكل لحما لأن نفسي تشتهي أن تأكل لحما فمن كل ما تشتهي نفسك تأكل لحما ، تثنية ١٢ ـ ٢٠ ، ٢١ » ولم يستثن موسى عليه السلام وقتا يمنع فيه اللحم ، والنص أيضا لا يحرم اللحم في العوز •

ترى هل يقال بعد ذلك : ان هذا اللون من الصيام تقضي به التوراة •

ثم بعد ، كيف يعتمد على حادثة دانيال من يرى : أن شريعته تأمره اذا صام أن يدهن ويتعطر ؟ أليس عجيبا حقا أن يدعي

مدع أن دانيال مرشده الى هذا الصيام وهو يؤمن بجزء من أمره ويكفر بالباقي فيمتنع عن اللحم ويقبل على الخمر والطيب ·

ان ما فعله دانيال عليه السلام أقرب الى الصيام التام منه الى استبعاد ألوان من الطعام مع الاقبال على غيرها ، بل كان صياما دائما مدة ثلاثة أسابيع ، كان صيام طي ، تطوى فيه الأيام بلا فطر يتخللها ، ويعرف أيضا بـ « وصال الصوم » ·

وهذا اللون من الصيام مارسه موسى وعيسى (١) ومحمد صلى الله عليه وسلم ، فموسى عليه السلام صام أربعين يوما لم يأكل خلالها ولم يشرب ولم يعتبر هذا اللون فرضا على قومه، وعيسى عليه السلام صام مثلها تماما ولا يقبل المسيحيون على صيام أربعين يوما متواصلة عن المطعم والمشرب ، وصام محمد صلى الله عليه وسلم هذا الصيام وأراد أفراد من صحابته مشاركته في مواصلة الصيام فنهاهم عن ذلك فلما ألحوا واصل بهم يوما ثم يوما ثم رأوا الهلال (٢) فقال عليه الصلاة والسلام : « لو تأخر لزدتكم ، كالتأديب لهم حين أبوا أن ينتهوا ، وقال عليه الصلاة والسلام في ذلك : وأيكم مثلي اني أبيت يطعمني ربي ويسقين ، فاكلفوا من العمل ما تطيقون (٣) » ·

هذا هو الوصال في الصوم ، ولا يستطيعه غير الأنبياء ولذلك لا نجد مع دانيال أحدا من قومه شاركه صومه ·

ثم بعد ، فان النبات كائن حي يتحرك ويحس ويتنفس ويتكاثر ، ويخرج ويفرز هرمونات خاصة تتحكم في هذه العمليات الحيوية ، ووحدة بناء هذا الكائن الحي (الخلية)

---

(١) هلال شوال .
(٢) انظر الفصل الرابع — ٢ متى ، والرابع ١ ، ٢ لوقا .
(٣) راجع باب الوصال من ابواب الصيام بصحيح البخاري ج١ ص ٢٩٦.

مثل الحيوان ولا فرق بين خلاياه والخلايا الحيوانية الا في القليل « الذي يمثل الفروق الفردية بين كائن وآخر » ثم هو يموت ٠

ولا يمكن أن يقال : ان كنه الحياة في النبات مختلف عنه في الحيوان فاننا لم ندرك كنه الروح في الانسان أو الحيوان عامة لنستطيع أن نحدد الفرق ٠ لكننا أدركنا ـ بالعلم ـ أن خلايا النبات تحتوي على « الانزيمات (١) » التي تتشابه وأنزيمات الانسان ، فأنزيمات التنفس في كلاهما واحدة ٠

كذلك الجسيمات مثل أجسام « جولجي (٢) » و «الميتوكندريا (٣)» و «الليسوسوم (٤)» و «الميكروسوم (٥)» والنواة حيث تحتوي كل منها على الحمض النووي (٦) وأحماض (٧) ٠

في الحق ان من أكل النبات وحده أكل الحيوان وزيادة ٠

---

(١) الانزيمات عوامل مساعدة حيوية وعضوية تساعد على اتمام التفاعل الحيوي .
(٢) جسيمات جولجي هي المسئولة عن افراز الماء .
(٣) هـي المسئولة عن التنفس .
(٤) تحتوي على الانزيمات الهاضمة للبروتين .
(٥) هي الجسيمات التي تتم عليها بناء البروتينات .
(٦) وهي المسئولة عن التحكم والهيمنة على جميع العمليات الحيوية التي تتم في الخليـة .
(٧) وهي تساعد في بناء البروتين في الخلية علـى الميكروسوم « بتلخيص وسماع من الاستاذ الدكتور عبد الغني ابراهيم باز ـ كلية الزراعة ـ المنيا . جمهورية مصر العربية » . الباحث

الصمــت في بني اسرائيل

الصمت في هذه الديانة جدير بالدراسة ، وهو فيها أنواع ، يرتبط كل منها بسبب ، ولما كان هذا الدين سماويا في أصله ينشد لتابعيه كريم الأخلاق والحب فيما بينهم فاننا لن نفتقد فيه « صمتا » مرغوبا فيه للنجاة من زلل القول ، وعثرة اللسان التي تفصم ما بين الناس من وشائج وتقضي على ما بينهم من تحاب شأنه في ذلك شأن الاسلام ، وشأن ما ورثت الانسانية من حكمة طيبة هادفة ، فالكل في هذا الصمت سواء ، فقد أجمعت الانسانية في كل صقع وفي كل زمان على : أن اللسان مهلكة ، وأن من علامات العاقل حسن سمته وطول صمته ، وكان عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه يقول : والله الذي لا الـه الا هو ما على الأرض شيء أحق بطول السجن من اللسان (١) .

والصمت ـ في هــذا الجانب ـ يمثل ضربا اجتماعيــا في السلوك .

وغير صمت السلوك في بني اسرائيل « آية الصمت » .

---

(١) ابو نصر المقدسي ـــ اللطايف والظرايــف ص ٤١ مطبعة المعاهـــد الدينية سنة ١٣٢٥هـ .

فقد كان الصمت آية في بني اسرائيل ، وعلامة تبين قدرة الله الشاملة حين يمسك على الناطق لسانه ، ويعقل عليه بيانه، يحمله على ذلك حملا لا رغبة له فيه ، دون مرض به ولا علة فما يستطيع بعد مخاطبة أحد ، آية له وللناس من حوله وللقرون من بعده ۰

ثم صمت الشعيرة ، وهذا تعريف له أحدده ـ بمشيئة الله ـ من خلال دراستي لهذا الصيام الذي تتبعته سنوات ، فهو :

« صمت الناطق رغبة منه عن الحديث الى الناس خلوصا للعبادة وحدها » فليس هو محمولا على الصمت دون ارادته كسابقه ، وليس يفعل ذلك حصانة للسان فقط من زلل القول وانما يؤدي صياما هو الكف عن مخاطبة الناس عبادة وشعيرة كما يؤدي غيره من أنواع العبادات ، وهذان اللونان الأخيران من الصمت أوردهما العهد القديم ، وحكاهما القرآن الكريم فيما أورد من شئون الأمم السابقة ، وبذلك حوت تلك الديانة ضروبا ثلاثة من الصمت هي :

صمت السلوك :
وآية الصمت :
وصمت الصيام عن الكلام :

فالصمت كسلوك اجتماعي ناجح يبقي على الناس حبهم واحترامهم يعطينا فيه العهد نصوصا صريحة تعتبر ارشادا قيما في هذا الباب وأدبا عاليا فيه ، فهو مثلا : يرى « الجاهل يكثر الكلام » جامعه ١٠ ـ ١٤ ـ وفوق اتهامه الثرثار بالجهل يعد المجادل في الخصومة السريع الغضب الكثير السب ناقص الفهم فيقول الكتاب : « المحتقر صاحبه هو ناقص الفهم ۰۰ أما ذو الفهم فيسكت » ـ أمثال ١١ ـ ١٢ ، والصامت عاقل « لذلك يصمت العاقل » عاموس ٥ ـ ١٣ ۰

وسفر أيوب عليه السلام يحوي في ذلك الضرب دورا تدفع كلها في رفق الى ما يجب على المرء من التحلي بالصمت رفقا بنفسه وحفاظا على الناس ، وتأتي المزامير بمثل ذلك مبشرة بحياة طيبة وأيام كثيرة مترعة بالخير لمن صان لسانه عن الشر وشفتيه عن الغش (١) ٠

ولآية الصمت اشارتان صريحتان في حزقيال :

فقد أساء بنو اسرائيل ، وتكررت منهم الخطيئة حتى وهم في أشد الأوقات التي تدفعهم الى التماس رضا ربهم ، وأصبحوا بيتا متمردا لا يستحق رحمة الله ، ولا يستحق خدمات حزقيال ولا جهاده من أجلهم فخوطب حزقيال في شأنهم وقيل له :

« اذهب ، أغلق على نفسك في وسط بيتك ، وأنت ، يا ابن آدم ، فها هم (أي بنو اسرائيل) يضعون عليك ربطا ، ويقيدونك بها فلا تخرج في وسطهم وألصق لسانك بحنكك فتبكم ولا تكون لهم رجلا موبخا لأنهم بيت متمرد ، فاذا كلمتك ، أفتح فمك فتقول لهم : هكذا قال السيد الرب : من يسمع فليسمع ، ومن يمتنع فليمتنع ، لأنهم بيت متمرد ـ حزقيال ٣ ـ ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ » ٠

وحين أخبر حزقيال هارب بضرب (أورشليم) قال :

« ٠٠٠ وكان في السنة الثانية عشرة من سبينا في الشهر العاشر في الخامس من الشهر أنه جاء الى منفلت من أورشليم فقال : قد ضربت المدينة ، وكانت يد الرب على مساء قبل مجيء المنفلت ، وفتحت فمي حتى جاء الي صباحا فانفتح فمي ولم أكن بعد أبكم ٠ حزقيال ٣٣ ـ ٢١ ، ٢٢ » ٠

---

(١) راجع المزمور ٣٤ ـ ١٢ ، ١٣ ٠

وحكى القرآن الكريم آية الصمت هذه في بني اسرائيل عن زكريا عليه السلام حين بشرته الملائكة بنسل من زوجه العقيم ، فقد طلب عليه السلام الى ربه آية يعرف بها « ليتلقى تلك النعمة بالشكر الخالص ، فهداه الله الى شكر لا يشغله أثناءه شاغل ، ولا يصرفه عن ربه فيه صارف فقال له ربه : « .. آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا ، واذكر ربك كثيرا وسبح ربك بالعشي والابكار (١) » .

والقرآن الكريم يصور في زكريا عليه السلام جلال النبوة ، وسمو أدبها ويشير الى سلامتها من الزلل ، وعصمتها من الخطل، ويبين أن « قدرة الله هي كل شيء » اذا أراد الله أمرا خلقه مهما كانت الأسباب المباشرة له مفقودة ، لقد رأى زكريا صلوات الله عليه أسباب الحمل معدومة فهو هرم وزوجه عاقر ، فعجب من بشارة الله بحمل امرأته ، عجب الآمل المغتبط بقدرة ربه ، وأبقى الله عليه سعادته وفرحه بقوله « هو علي هين .. وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا (٢) » . وأكرم الله زكريا عليه السلام بيحيى « مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين (٣) » .

وما كان لزكريا أو غيره من أنبياء الله الأطهار أن يكذبوا بشارات ربهم قيد لمحة ، ولا مقدار برهة ، وما كذب زكريا وحيه ، ولا نسب العجز لربه . وكيف ؟ والله أكرمه عقب ذلك فلم ينزل عليه سخطه ، وأشبع في نفسه عاطفة أبوته ، وهل كان يبقيه ربه نبيا ، ويبعثه للناس رسولا وهو يكذب وحيه ، ويطعن في قدرته ، حاشا لله . انما الكاذب الفاجر هو من اتهم زكريا صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) ٤١ آل عمران .
(٢) ٩ مريم .
(٣) ٣٩ ال عمران .

بقي صيام الصمت :

وسبق أن بينت ما أريد به ، وأنه : « صمت الناطق رغبة منه عن الحديث الى الناس خلوصا للعبادة وحدها » .

وهو شعيرة دينية واردة في بني اسرائيل ، ويبدو أنها كانت منوطة بالرغبة ولم أعثر في « العهد » على وقت محدد لها .

وسبق أن وجدنا هذه الشعيرة شائعة أيضا في ديانات بدائية ، وغير بعيد أن تكون تلك الديانات تلفقتها عن أديان سماوية قد درست ، ويكاد يكون هذا اللون من الصيام موجودا بكل عقيدة تقوم على الكهانة ، والهيكل والمذبح والمحرقة ، ويقوم فيها الكاهن بواجبات دينية تلزمه ، وتعد له المقاصير داخل المعبد ، وينذر الأبناء فيها خدما له وللهيكل ، وعندئذ يظل الكاهن مقيما بالمعبد ويختلط بالمتعبدين بحساب لقضاء شعائرهم وتلقينهم الصلوات ، وتناول قرابينهم واتمام ما يتعلق بها ثم يئوب الى عزلته ، وعزلة الكاهن مدعاة لصمته ، واعتكافه ضرب من عبادته الصامتة وقد كثرت في العهد القديم عبارة : قدسوا صوما ، نادوا باعتكاف ، وهي تعطينا فكرة عن أهمية هذا اللون من العبادة .

واليهودية دين يقدمه « العهد » في نظام : الكهانة ، والهيكل، والمذبح والمحرقة ومدارج الكهنوت ، وأشكال المسوح ، ونسيج ملابسه ، وربما خلت بادىء ذي بدء ـ وهي بالصحراء ـ من مقاصير داخل المعبد لأنهم كانوا في ذلك التيه يصطحبون « خيمة الاجتماع » التي تمثل « بيت الرب » يرتحلون معها ويقيمون من حولها ، لكن الأمر تطور فيما بعد حين استبدلت الخيمة ببناء ، وأصبح هناك « بيت الرب » بأورشليم ، وبنيت بداخله المقاصير ، وأعدت الصوامع ، وتوزع الكهنوت بصفة رسمية الى حين قبل أن تفسد تلك المقاصير وتملأ بالأوثان حين ضل

بنو اسرائيل حتى ألقوا ببناتهم وبنيهم في النار « لمولك » ذلك الوثن الذي كانت ضحاياه فلذات الأكباد ، وفي « العهد القديم » : « بل في بيتي وجدت شرهم (١) » ٠

وقد كان اختلاط بني اسرائيل بالكهنة يتبع نظاما خاصا فقد يكون البيت مفتوحا للجميع ، ولكن تقدمة التابع أو ذبيحته مرتبطة بنظام ، كما أن مدارج الكهنوت منحت كثيرا من كبار الكهنة عزلة أطول ، فألقت عن كاهلهم أعباء كثير من الاعمال كان على الصغار أداؤها ، مما أتاح للصمت أتباعا أكثر ٠

وقد عنى كثير من كتبة أسفار العهد بتسجيل أنماط من هذا الصمت ، واذا كنا نأسف لما افتقدناه منها في أسفار تعتبر غير مقبولة مضافا الى ذلك انسلاخ بعض الأسفار الموجودة من الترتيب التاريخي (٢) ، ففيما بقي من النصوص قدر يمكن أن يعطينا شكلا اجماليا لهذا الضرب من العبادة ٠

وتشير بعض هذه النصوص الى أن استغراق الصامت في صمته يكون أحيانا مصحوبا بذلة التوبة والندم مع الشعور بالخطيئة والاحساس بالتقصير ٠

ولعل الصمت حينئذ يمثل فرصة التوبة التي تشفع لصاحبها كما في توبة آخاب وذلته فقد « شق ثيابه ، وجعل مسحا على جسده ، واضطجع بالمسح ومشى بسكوت (٣) » ـ ملوك أول ٢١ ـ ٢٧ ٠

ومن أندر النصوص لهذه العبادة نصيحة داود عليه السلام

---

(١) راجع حزقيال ٨ ـــ ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ وارميا ٣٢ ـــ ٣٥ ، ٢٣ ، ١١
(٢) راجع ص ٨ لمحات من التاريخ في الكتاب ، كاترين هنري . تلخيص حبيب سعد . دار التأليف والنشر للكنيسة الاسقفية .
(٣) من السكوت بالتاء وليس من السكون بالنون . الباحث .

لبني اسرائيل : « ... ارتعدوا ولا تخطئوا ... تكلموا في قلوبكم على مضاجعكم واسكتوا (٣) » ـ مزمور ٤ ـ ٤ ، وكان داود عليه السلام كثير الاعتكاف ، روي أنه كان يعتكف يوما ويخرج للناس يوما .

ولم يترك بنو اسرائيل هذا اللون من العبادة وقت الأسر ببابل ولا أثناء تشريدهم (١) .

ويؤمر حزقيال بالصمت فيطيع وقد خوطب في ذلك :

« يا ابن آدم هأنذا آخذ عنك شهوة عينيك (أي امرأته) بضربة ، فلا تنح ، ولا تبك ، ولا تنزل دموعك ، تنهد ساكتا ، لا تعمل مناحة على أموات ، لف عصابتك واجعل نعليك في رجليك ، ولا تغط شاربيك ولا تأكل من خبز الناس ، فكلمت الشعب صباحا ، وماتت زوجتي مساء . وفعلت في الغد كما أمرت ـ حزقيال ـ ٢٤ ـ ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ » .

وقد صمت حزقيال هنا دون أن يعقل منه اللسان ، وان صمت عن أمر من ربه .

وجاء بسفر صفنيا : « اسكت قدام السيد الرب لأن يوم الرب قريب » . صفنيا ١ ـ ٧ .

ثم لا يزال هذا الصوم في بني اسرائيل الى ظهور المسيح ثم يكون بعد في عقيدة نصرانية تزاوله حتى اليوم ، وغير بعيد أن يكون هذا اللون هو الذي انتشر عنه الصمت حدادا على ميت أو غيره دقيقة أو أكثر .

ويحدثنا القرآن الكريم عن صيام الصمت في بني اسرائيل

---

(١) راجع سفر ارميا ٨ ـ ١٤ .

فقد مارسته مريم البتول صلوات الله وسلامه عليها ، ولم يكن صيامها الذي أوردته الآيات بعد ـ هو الأول والأخير ، فـان مريم عليها السلام نذرت محررة للبيت ، بيت المقدس ـ وعاشت تتعبد بمقصورتها داخله ، فقد استجابت مريم ، لصيام مطروق وعبادة مألوفة ، مألوفة لها ولقومها حتى انها حين أشـارت الى المسيح في المهد لم يحتج القوم لصمتها بل احتجوا من احالتها الجواب عليه ، فلما تكلم أحنوا رؤوسهم لبراءتها عليها السلام ، قال تعالى : « فحملتـه فانتبذت به مكانـا قصيا (٢٢) فاجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنـت نسيا منسيا (٢٣) فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا (٢٤) وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا (٢٥) فكلي واشربي وقري عينا فاما ترين من البشر أحدا فقولي اني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا (٢٦) فأتت به قومها تحمله قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريا (٢٧) يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا (٢٨) ، فأشارت اليه قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبيا (٢٩) قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا (٣٠) وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا (٣١) وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا (٣٢) والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » (٣٣ ـ مريم) ٠

الكـف عـن العمـل

أوجب العهد على بني اسرائيل الامتناع عن العمل أياما هي:

١ ـ السبت من كل أسبوع ، وقد شدد في أمره تشديدا ليس مبعثه مجرد الزجر أو انما الكراهية للعمل فيه فحسب ، بل جعل الاعدام هو العقوبة لكل من يعمل فيه ٠٠ « كل من صنع عملا في يوم السبت يقتل ـ خروج ـ ٣١ ـ ١٦ » ٠

وليس القتل هنا مجازا عن الطرد أو النبذ بل هو الاعدام حقيقة وقد طبق على رجل وجد يحتطب يوم السبت أثناء التيه فجاءوا به الى موسى وهرون عليهما السلام فأمر به ٠٠ « فأخرجه كل الجماعة الى خارج المحلة ، ورجموه بحجارة فمات » ـ عدد ١٥ ـ ٣٦ ٠

كذا قيل ٠٠

٢ ـ اليوم الأول ، واليوم الأخير من عيـد الفطير الـذي يستغرق سبعة أيام ٠ يذكر العهد الامتناع في هذين اليومين عن العمل ٠٠٠ « لا يعمل فيهما عمل ما الا ما تأكله كل نفس فذاك وحده يعمل منكم » ٠ خروج ١٢ ـ ١٦ ٠

٣ ـ اليوم الخمسون من قربان الحصيد :

يقدم قربان الحصيد غد سبت تأتي عطلة العمل بعده بخمسين يوما . فيوم الخمسين هذا ورد بشأنه ... « محفلا مقدسا يكون لكم .. عملا ما من الشغل لا تعملوا ... فريضة دهرية في جميع مساكنكم في أجيالكم » لاويين ٢٣ ـ ٢١ .

وثمة أيام أخر لا يسمح فيها بالعمل الا عملا واحدا هـو تقديم القربان ، وهو في الواقع ، أداء لشعيرة دينية وليس عملا مرتبطا بالاقتصاد ووسائل العيش وأورد العهد في ذلك :

١ ـ يوم « تذكار هتاف البوق » :

وهو اليوم الذي يكـون أول الشهر السابـع ، فهو لبني اسرائيل .. « عطلة تذكار هتاف البوق محفل مقدس ، عملا ما من الشغل لا تعملوا .. لكن تقربون وقودا للرب » ـ لاويين ٢٣ ـ ٢٥ .

٢ ـ يوم الكفارة من عاشر الشهر السابع :

وهو بدوره لا عمل فيه الا القربان ، ومن مارس فيه عملا قضي عليه بالموت ، أورد العهد في ذلك ... « وكل نفس تعمل عملا ما في هذا اليوم عينه أبيد تلك النفس من شعبها » .. لاويين ٢٣ ـ ٢٩ .

٣ ـ واليوم الأول من عيد المظال ، والثامن عقبه :

فهذان يومان يكونان عطلة ، فعيد المظال يبدأ في الخامس عشر من الشهر السابع ويستمر سبعة أيام ، فأوله وتاليه عطلة عمل « لاويين ٢٣ ـ ٤١ » .

٤ ـ ووردت اشارة بسفر أليشع تفيد عطلة رأس كل شهر (١) :

....

وما تقدم من ايقاف عمل الانسان يتعدى أيضا الى ايقاف بعض مصادر الانتاج نفسه وتعطيله هو الآخر ، ويأخذ رقم (سبعة) دورا جذريا في هذا الموضوع ، ومصدر الانتاج هنا الأرض :

١ ـ « ست سنين تزرع حقلك ، وست سنين تقضب كرمك ، وتجمع غلتهما ، وأما في السنة السابعة ، ففيها يكون للأرض سبت عطلة ، سبتا للرب لا تزرع ـ حقلك ، ولا تقضب كرمك ، زريع حصيدك ـ لا تحصد ، وعنب كرمك المحول لا تقطف سنة عطلة تكون للأرض » ـ لاويين ـ ٢٥ ـ ٣ ، ٤ ، ٥ .

ولعل ذلك كان ابتلاء لهم يشعرون منه بمدى مقدرتهم على مقاومة الجشع وهم يرون الكرم مدلى وقد أمروا بتركه وفي العهد .. « لكي أمتحنهم ، أيسلكون في ناموسي أم لا » ـ خروج ١٦ ـ ٤ .. ولم يترك العهد لهم في ذلك حجة .. « واذا قلتم : ماذا نأكل في السنة السابعة ان لم نزرع ولم نجمع غلتنا ؟ فاني آمر ببركتي لكم في السنة السادسة فتعمل غلة لثلاث سنين فتزرعون السنة الثامنة ، وتأكلون من الغلة العتيقة الى السنة التاسعة » لاويين ٢٥ ـ ٢٠ ، ٢١ .

فاذا ضوعفت السبع سنين الى سبعة أضعاف فكانت تسعا وأربعين ثم حلت الخمسون كانت بدورها (أي الخمسون)

---

(١) راجع ملوك ثاني ٤ ـ ٢٣ ، ٢٤ .

عطلة للأرض « يو بيلا تكون لكم السنة الخمسون لا تزرعوا ، ولا تحصدوا زريعها ، ولا تقطفوا كرمهـا المحول ـ » لاويين ٢٥ ـ ١١ ٠

وفي القرآن الكريم اشارة الى السبت الذي خالفوا أمره ٠٠ « وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وآخذنا منهم ميثاقا غليظا ـ النساء ١٥٤ » ٠ وقد نهينا أن نحتال على أمر الله كما احتالت اليهود ، قال نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا ترتكبوا مـا ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل (١) ٠

---

(١) تفسير ابن كثير المجلد الاول ص ١٠٧ ٠

الصيام في النصرانية

الصيـام في النصرانيـة

تمهيد في النصرانية :

أمر الأمبراطور « قسطنطين الكبير » بعقد «المجمع النيقاوي» فعقد في عام ٣٢٥ من الميلاد ، وفيه قامت نخبة من رجال الدين النصراني بوضع لائحة تضمنت العقيدة النصرانية ، أطلق عليها « قانون الايمان » أو : « دستور الايمان (١) » ذلك القانون الذي حدد مبادىء العقيدة النصرانية في اثني عشر مبدأ، قضت ـ على ضوئه ـ بكفر كل من خرج عليه أو على احدى نقاطه ، وبذلك أسدل الستار على العقائد السالفة التي نسبت الى المسيح ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ لا سيما العقائد التي لا تساير منطق هذا الدستور الجديد .

وكان القوم يؤملون أن يقضي هذا القانون على كل خلاف ، كذلك كانت الأحاسيس النافرة من الجدل ، الضيقة بمآل الأمور تتلهف الى دين بلا شقاق ، وظنت أن النصوص القانونية الجديدة ستتمتع بمركز روحي أسمى من الجدل ، وأحكم من الذبذبة

---

(١) راجع لـ « اغناطيوس فرزلي » ـ التعليم المسيحي الارثوذكسي ص ١٢ مطبعة جريدة اناتولي الاسكندرية .

في مهب النقاش لا سيما ، وقد أصبح من « الهرطقة (١) » : « انكار عقيدة ايمانية واحدة منها » ٠

غير أن قضية الايمان « بكنيسة واحدة جامعة رسولية » كانت مبدءا لم تتحصن أمامه النفوس من الاغراء ، فنشب الخلاف من جديد ، وأصبح واضحا أن العقائد المختلفة انضوت تحت لوائين : أحدهما الكاثوليكية ، والآخر : الأرثوذكسية ، ثم ظهر ـ فيما بعد ـ فرقة « المحتجين » منشقة على الكاثوليكية وعرفت باسم « البروتستانت » و «الانجيليين» فانتهت النصرانية الى ثلاث فرق ، يقول عنها « الأب نعمة الله العنداري » : وكل من هذه الثلاث تدعي أنها الكنيسة الحقيقة التي أسسها المسيح (٢) ٠

وكان الخلاف في هذه المرة حادا عاصفا حتى أن أحد البطاركة في القسطنطينية عقد مجمعا قرر فيه أن الكاثوليك وثنيون ، ولم يكن الكاثوليك أقل حدة ولا ألطف عصفا فأعلنوا بدورهم أنه لا وحدة ايمان عند الأرثوذكس ، وأضحى « قانون الايمان » في خمس أو ست قضايا منه موضع نزاع من جديد ، وضاقت البروتستنتية بهذا كله فاعتصمت بالأناجيل ، ونادت بحرية المعتقد ، وعدم سلطة رأس الكنيسة على الأتباع (٣) ٠

ولم تكن الأناجيل « المتداولة » صاحبة الشأن في هذا كله ٠ وأخذت كل فرقة من تلك الفرق تباشر نشاطها الديني ،

---

(١) الهرطقة معرب لفظ بمعنى كفر والحاد ، والوصف منه : بمعنى كافر او ملحد ، واستعمل في العربية لفظ قريب منه هو « الزندقة » والوصف منه : « زنديق » .
(٢) ص ٩٥ « سلاحك ايها المسيحي » للعنداري مطبعة المرسلين اللبنانيين ١٩٣٠ جونية (لبنان) .
(٣) راجع ص ٩٩ من نفس المرجع .

وتعنى بدراسات وكهنوت مستقل ، فتميزت كل منها بفلسفة خاصة ، كانت أصلا لتشريعاتها المختلفة للمجتمع الكنسي التابع لها ٠

ولهذا كان للصوم وجه مختلف عند هذه الفرق ، وكانت دراسة الفلسفة العامة لهذه المذاهب ، مدخلا ضروريا لموضوعنا هذا حتى يمكن أن يبرز الصيام النصراني في اطاره العلمي غير مرتبط بحلقات مفقودة ٠ وحتى يتم بيان ما اذا كان للأناجيل « المتداولة » مجال في التشريع ٠

المـذهـب الكاثوليكـي

١ ـ الصيـــام

تقرر الكنيسة الكاثوليكية أن الكتب المقدسة « لم تذكر كل شيء » ثم تضع بناء على ذلك ـ مبدءا خطيرا خلاصته : أن « البابا » ـ بابا روما ـ نائب المسيح في الارض ، وأنه معصوم من الخطأ في أحكامه الدينية فكل ما يشرعه في جانب الايمان ، وما يحدده في العقيدة يعتبر قضايا يقينية غير قابلة للتحوير أو التبديل كما أنها أيضا ليست بحاجة الى موافقة الكنيســة عليها · وله أيضا أن ينشر تعليما ايمانيا ويحتم حفظه · لأن فحص الآيات أمر خاص به منذ أجيال عديدة (١) ·

كل هذه المبادىء وغيرها حصرت السلطة الروحية في شخص « البابا » فأصبح يتمتع بنفوذ لا حدود له · فالكنيسة كلهـا ـ وهي عبارة عن الأتباع جميعا ـ تنقاد لأمره فمن حقه سن التشريع ، وتقرير المبادىء ، والنظر فيما مضى منها وتطويره ،

---

(١) انظر الصفحات ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٧٦ من « شرح التعليم المسيحي » ج١ للقس يوسف لويس مطبعة البرتيري ١٩٣٩م وص ٢٢٢ من « سلاحك ايها المسيحي » للعنداري .

وهذه الحقوق جعلت البابوية الكاثوليكية في ذاتها انجيلا آخر مفتوحا يستطيع أي البابوات أن يسطر فيه ما شاء ولو لم يكن ما سطر من تشريع مستمدا من نصوص الأناجيل ، ويسمى مع ذلك شريعة كنسية ، ومن هذه الشرائع الكنسيـــة : الصيام والانقطاع (١) ٠

فالصيام (شريعة كنائسية تكيفها الكنيسة حسب مقتضيات الزمان والمكان) ، ويحتل الصيام الوصية الثانية من وصايـا الكنيسة ، ونصها : (صم الصـوم الكبير وسائـر الأصـوام المفروضة) ٠

ويبدأ الصوم في الكاثوليكية من نصف الليل الى نصف النهار والامتناع فيه عن المآكل والمشرب ليس غير ، ولا يلتزم الكاثوليكي بصيام السبت والأحد والأعياد التي تأتي في أيام الصيام لكن جعلت الكاثوليكية من العبادات المرفوعة « لمريم » صيام السبت٠

ويبتدىء الالزام بالصيام « بعد انهاء السنة الخامسة عشر من العمر ، وينتهي بالسنة الستين للرجال ، والخمسين للنساء على الأرجح » ٠

والصيام اللازم في الكاثوليكية هو « الصيام الكبير (٢) » فقط بعد أن أبطلت غيره كما سيجيء ، ولا دليل على ذلك من الأناجيل كما قررت ٠

والانقطاع بدوره شريعة كنسية وهو خاص « بالامتناع عن أكل اللحم والألبان والبياض بأنواعها يومي الأربعاء والجمعة

---

(١) اصطلاح خاص بالامتناع عن اللحم ونتاج الحيوان . الباحث .
(٢) راجع الصفحات ١٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ من « سلاحك المسيحي » للعنداري .

من كل أسبوع وكل أيام الصيام الكبير وانقطاعات الميلاد ، والسيدة ومار بطرس » ويلزم الانقطاع « كل الكاثوليك من سن السابعة كاملة الى آخر الحياة » ، وأجازت الكاثوليكية « أكل اللحم والبياض يومي الأربعاء والجمعة التابعة أعياد الميلاد حتى الغطاس ، والتابعة عيد الكبير حتى العنصرة وفي أسبوع المرفع » ويتأكد الانقطاع بشكل جازم « أيام : اثنين الرماد ، وخميس وجمعة وسبت أسبوع الآلام ، والأربعاء والجمعة من كل الصيامات (١) » .

وحتى رأس الكنيسة المطلق في « التشريع » يلازمه حق آخر له أيضا هو حق « الاعفاء » فمن حق البابا أن يعفي من شاء من الواجبات الدينية أو بعضها ويفسح له في ذلك ، وهذا « التفسيح » حق لكل أسقف يستمد سلطته من البابا في « أبرشيته » وللقس استعمال هذا الحق في الصيام والانقطاع وغيرهما من الواجبات الدينية .

وهذا الحق في جانب التشريع أو فسخه أو التفسيخ منه « يمكن استعماله في اعفاء أو الزام الجماعة الكاثوليكية كلها بالتخلي عن طقس ديني أو ممارسته كما أمكن استعماله في حق الأفراد في ظروف خاصة » ، وقد عد ذلك أغناطيوس فرزلي هذه السلطة تمكنت الكنيسة من فرض عقوبات شاذة : كأن تضع « دكتاتورية في الدين (٢) » .

وقد مكن هذا الوضع للكاثوليكية فيما مضى أن تفرض على بعض المتهمين بجرائم متفاوتة أصواما طويلة بجانب فرائض شتى يمارسونها عدة سنوات لا شهورا ولا أياما ، واستنادا الى

---

(١) راجع ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ « سلاحك ايها المسيحي » . للعندراي .
(٢) راجع ص ٨٤ التعليم المسيحي الارثوذكسي اغناطيوس فرزلي مطبعة اناتولي الاسكندرية .

حبلا حول عنق انسان وتلزمه أن يقوم حافي القدمين صائما سبعة أسابيع أو أربعين يوما ـ يعتمد فيها على الخبز وحده مما عده القس يوسف لويس ـ وهو كاثوليكي عبئا ثقيلا لا يطيقه عموم الناس (١) .

واذا كانت الكنيسة الكاثوليكية قد فرضت بحقها في التشريع ألوانا شاذة من الصيام فقد فسحت في أمره لكل الجماعة الكاثوليكية حين أبطلت الالزام بالصيام في عيد الميلاد ، وعيد السيدة ، وعيد مار بطرس وبولس ، وأبقت الالزام في جانب الصيام

ب ـ الصمت في الكاثوليكية

الصمت ـ في الكاثوليكية ـ رياضة نفسية أخذت بها الكنيسة ومارسها الكاثوليك : كهنة وشعبا ، في الأديرة والكنائس ، وخارج الأديرة ، والكنائس .

ويبدو أن الكاثوليكية أخذت فيه بوصايا العهد القديم ثم جعلته تشريعا كنسيا يقال : ان مجمع الرسل بأورشليم أقره نحو سنة ٧٠ م .

وهو يختلف في رجال الدين عنه في الشعب :

فهو بين الشعب منوط بالرغبة ، وأيامه قليلة محدودة ، والأمر فيه ميسر حتى لا يتعارض مع العمل الذي يقوم به الفرد اذ يستحيل أو يتعسر صمته أثناء تأديته عمله لذلك يختار من الأوقات ما يناسبه وللكاهن أن يساعد في رسمه للتابع بحيث يروق له ويتيسر .

---

(١) راجع ص ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ « شرح التعليم المسيحي » للقس يوسف لويس .

وأما في الجماعة الدينية كالأديرة فهو لازم ، ويرتبط عادة بأيام لها أعيادها ومناسبتها الدينيــة ، فضلا عن أن جماعــات الأديرة تكاد تكون صامتة دواما ٠

ولم يبلغ الصمت بين الطوائف الدينية الكاثوليكية ما بلغه بين طائفــة الترابيست Les Trappistes من الملازمــة لــه والدوام عليه ٠

عمرت هذه الطائفة جنوب فرنسا ـ قبل أن تتفرق وتنتشر ـ وغالت مغالاة شديدة في الصمت حتى أوجبت على نفسها ألا تتكلم طيلة حياة أفرادها وألا تهجر مكانها حتى الموت ولعل هذا هو السبب في نسبتهم الى كلمــة La Trappe التي مــن معانيها « جب أو كهف » ٠ ويبدو أن هذه الطائفة لم تكن مقصورة على الرجــال فقــد أورد قامــوس « لاروس » مؤنثــا للفظ هــو La Trappistine وقــد أخــذت هــذه الطائفــة من زمن في الانقراض وبقي الصمت بصورته الأولى يعيش بين الكاثوليك حتى اليوم ٠

المذهب الأرثوذكسي

الصيام

يختلف الأرثوذكس عن الكاثوليك في فلسفة الكهنوت ، فأسقف الأرثوذكس ــ في أي مكان ــ ليس مسيحا منظورا ، وليس هو معصوما من الخطأ ، فهو بشر تماما له ما للناس من صواب أو خطأ ٠

غير أن الكنيسة الأرثوذكسية تعتبر قرارات المجامع المسكونية (١) مقدسة ومعصومة لا تخطيء أبدا وموقف الأرثوذكس هذا من « أسقفهم » قد اتضح تماما بعد حركة « مايكل شارولاريس » في القرن الحادي عشر عام ١٠٥٤م فانه في هذه السنة بدا واضحا أن العالم المسيحي قد انشق الى حزبين كبيرين : الكاثوليكية ، والأرثوذكسية ، ونقمت الاخيرة على الأولى زيادتها كلمة « الابن » في دستور الايمان (٢) ٠

---

(١) المجامع المسكونية مؤتمرات دينية عقدت على مستوى عالمي شامل للنظر في القضايا الدينية والشئون الكنسية وكان يأمر بعقدها الملوك المسيحيون المعاصرون لها ، انعقد اولها عام ٣٢٥ م٠

(٢) راجع ص ٨٦ من كتاب « التعليم المسيحي الارثوذكسي » ٠

ومع أن المذهبين يختلفان في مبادىء أصيلة لدى كل منهما ، ـ فهما معا ـ يشتركان في أن من حق الكنيسة التشريع ، بل هو ـ أيضا ـ من حق « الأب المتصل برعيته » فهو يستطيع أن يعطيها تشريعا مناسبا ، ولذلك يضع القس شنوده حنا هذا التعريف للصيام فيقول : الصوم في الاصطلاح الكنسي للأرثوذكسية : هو الانقطاع عن الطعام فترة من الزمن يأكل بعدها الصائم طعاما خاليا من الدسم الحيواني » ٠

ويتحدث عن فترة الانقطاع التي لم تضبط في التعريف بقوله : « الذي يحدد فترة الانقطاع هو أبو الاعتراف الذي اختبر حدود الانقطاع والعارف لحالته الروحية » ٠

وترى الأرثوذكسية أن اختلاف الأعمار ، واختلاف الاعمال، واختلاف درجة التدين كل ذلك يمنعها من تحديد فترة عامة للانقطاع ومن هنا تركت التشريع بأيدي القساوسة ذوي الاتصال المباشر برعيتهم فهؤلاء وحدهم أصحاب التحديد في تلك الشعيرة ٠

وللكنيسة جانب تشريعي عام في الأرثوذكسية ، فهي مثلا تقضي باستثناء يومي السبت والأحد من الانقطاع ، وتسمح لأتباعها بالانقطاع في سبت واحد هو « السبت الكبير » الذي يحل قبل عيد القيامة مباشرة (١) ٠

وواضح أن حق التشريع يعطي حق التفسيح ، لذلك كانت السلطة تامة في يد الكاهن على أتباعه فهو يستطيع التخفيف عنهم كما يستطيع أن يشق عليهم ، لذلك جعلت الكنيسة فترة الانقطاع أطول في حق المقترفين لخطايا بأعيانها ٠ وفترة الانقطاع

---

(١) راجع الصفحات ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ من كتاب « الصوم في كنيستنا القبطية الارثوذكسية » ، للقس شنودة حنا . مطبعة الاسكندرية ١٩٦٣م .

هنا تتخذ ـ بجانب كونها شعيرة دينية ـ عقابا « فالمحاربون بها يجب أن تكون فترة انقطاعهم أطول من غيرهم (١) » والمنقطع عندئذ يتمم جميع « التأديبات الروحية التي يأمره بها الكاهن أبو الاعتراف (٢) » •

ويعتبر الصوم الكبير « أهم صيام وأعمه في الأرثوذكسية ومدته خمسون يوما تنتهي دائما بعيد القيامة الذي يعقبه الفصح ، وله طريقة فلكية لضبط وقته من عام لعام ، حيث ان النسيء يحول دون وضع تاريخ ثابت له مضافا الى ذلك ضرورة ابتدائه بيوم « اثنين » من أيام الأسبوع وهو أقرب ـ اثنين الى الاجتماع (٣) الكائن فيما بين اليوم الثاني من (شباط ـ فبراير) الى اليوم الثامن من (آذار ـ مارس) فأي يوم اثنين كان أقرب اليه اما قبل الاجتماع واما بعده ـ فهو رأس هذا الصوم ، وهذا الصوم موجود بالكاثوليكية ويبدو أن العمل جرى عليه منذ ما قبل الانشقاق الخطير ، فهو تشريع كنسي قديم •

ويصوم الأرثوذكسي أربعين يوما يسمونها « صوم الميلاد » وتكون في الفترة من ٢٥ نوفمبر الى ٦ يناير تقريبا أي قبل عيد الميلاد عند الشرقيين ، وقد أضاف « الأنبا ابرام » الأيام الثلاثة الأولى منه •

وتمارس الكنيسة من عصر الرسل صيام الأربعاء والجمعة وصيام العنصرة الذي أطلق عليه فيما بعد « صيام الرسل » ولا ضبط ثابت لهذا الأخير وانما يزيد وينقص ، فكما أنه لا ابتداء ثابت له كذلك لا عدد محدود له ، وانما يناط أمره

---

(١) ص ١٠ المرجع السابق .
(٢) ص ١٦ من المرجع السابق .
(٣) حساب فلكي يقوم على لقاء معين .

بيوم (أحد العنصرة) فاذا تقدم هذا الأحد زادت أيام الصوم ، واذا تأخر نقصت وتنتهي تقريبا نحو ١١ يوليو ٠

ويصومون أيضا للعذراء خمسة عشر يوما تبدأ في أول مسري ٠

وشرع الأنبا ابرام للكنيسة السريانية صيام نينوى ، ثلاثة أيام كالتي قضاها يونان ـ يونس عليه السلام ـ ببطن الحوت كما ورد بالعهد القديم (يونان ١ ـ ١٧) وقد نقل الأرثوذكس هذا الصيام الى تشريعاتهم ٠

وصيام « البرامون ـ الاستعداد » وهو بدوره متفاوت بين يوم وثلاثة ويسبق عيد الغطاس أو عيد العماد الذي يكون في ١١ طوبة ٠

فاذا جاء العيد يوم السبت يكون البرامون يوما واحدا (الجمعة) واذا كان الأحد فيكون يومين (الجمعة والسبت) واذا كان الاثنين فيكون ثلاثة أيام (الجمعة والسبت والأحد (١)) ٠

وواضح أن الارثوذكسية كالكاثوليكية في أخذها بالامتناع عن الحيوان ونتاجه أثناء الصيام الكبير ، وأن كلا التشريعين فيهما كنسي لا انجيلي ٠

وكما سبق أن بينت أن صيام دانيال لا يعتبر تشريعا ، ولا صلة له بالتشريع الكنسي لا سيما ، ودانيال ـ عليه السلام ـ لم يتطيب في حين أن من الآداب المنصوص عليها في انجيل متى التطيب :

« ٠٠٠٠٠ أما أنت ، فاذا صمت فادهن رأسك واغسل وجهك ٦ ـ ١٧ » ٠

وفيه « واذا صمتم فلا تكونوا معبسين كالمرائين ، فانهم ينكرون وجوههم ليظهروا للناس صائمين » ٦ ـ ١٦ ٠

---

(١) ص ٢٥ المرجع السابق ٠

المذهـب البروتستنتي

انفصم هذا المذهب عن الكاثوليكية بثورة فكرية ضخمة هزت في عنف عاصف جذر العقائد الكاثوليكية ، وسخرت من مبادئها البابوية ، واحتكارات « البابا » للشئون الدينية ، وكان لدى « مارتن لوثر » زعيم هذه الثورة وعصبته أحداث تاريخية ووقائع شخصية ضد الكنيسة في روما مضافا الى ذلك شئون دينية متعددة أمكن أن يوجه بها حربه على البابوية ، وأن يؤثر في الجماهير مخططا لها منهجا تحبه ثم يكوّن ـ بعد ـ مذهب المحتجين ويتزعمه قبل أن تستطيع الكاثوليكية أن توجه له الطعنة الحاسمة ، فما وسعها الا أن تحيك ضده مؤامرات لم تفلح في صده فبلورت حقدها عليه بنشر عدة اتهامات شخصية له ولأتباعه لم تحل دون انتشار مذهبه ، وقيام مناصرين له في بقاع أخرى مختلفة ، ولم تلبث بعض الدول أن أعلنت مذهبه دينا رسميا لها ، وكانت أهم فلسفة للبروتستانت هي :

أ ـ انكار عصمة البابا ، فهو بشر قد يمتاز عن الناس بثقافة دينية واسعة لكنها لا تؤهله ولا تؤهل غيره لأن يكون معصوما من الخطأ ، فما يقال ـ اذن ـ في تشريعاته بأنها قضايا يقينية خطأ محض ، بل عبث واحتقار لعقول الأتباع وأرواحهم ٠

ب ـ انكار أن يكون فحص الآيات وقفا عليه ، ففحصها لا يجوز أن يكون خاصا به فمقدرته العقلية ، وكذلك درجة ايمانه • ليستا الرقم القياسي بين العقليات النصرانية ، والعقيدة الدينية ، وبالتالي فغيره من البشر يمكن أن يفوقه ذكاء وعقيدة ، فليس هو أول النصارى دائما وليس أنقاهم عقيدة على الاطلاق ، ولا يمكن أبدا أن تكون عملية « القرعة » لانتخابه من بين الكرادلة كافية وحدها لرفع مستوى ايمانه وذكائه معا الى رقم قياسي لا تصل اليه بقية الكاثوليك •

فاحتكار تفسير الآيات وفحصها يعني ـ اذن ـ احدى اثنتين ليستا في صالح الشعب النصراني : الجمود ، أو الانتفاع الشخصي ، لذا ينبغي :

أ ـ طرح هذا المعتقد •

ب ـ وتناول الناس للأناجيل ، والنظر فيها وترجمتها حتى لا ينحصر الاجتهاد الديني في شخص أحد الناس •

ج ـ وبانكار البروتستنتية هذين المبدأين تضيف هي قضية هامة ، اذ ترى أن قول الكاثوليك « ان الكتب المقدسة لم تذكر كل شيء » قول مبالغ فيه كي يتم للبابوية أطماعها فيكون بيدها الحل والعقد ، فهي لهذا تغض من شأن الأناجيل لتجعل البابا « الشخص الذي يفهم كل شيء » •

وهذا عين ما جحدته البروتستنتية ، وأعلنت أن الأناجيل ذكرت الكفاية للمعتقد النصراني ، وأن فيها كل شيء ، وهي وحدها كافية في التوجيه فالنظر يكون اليها ، والفهم يكون عنها ، وأطلقت على نفسها « الانجيلية » لمحا لفلسفتها هذه •

بدهي ـ والأمر هذا ـ أن تنكر البروتستنتية « فرض »

الصيام مع ما أنكرت من تشريعات البابوية ، وقوانين الكنيسة التي لم تكن في الانجيل وليس ينتظر من البروتستنتية أمر آخر غير ما ذهبت اليه ، فلا تشريعات للبابا ولا « اعتراف » ولا « أسرار » .

والبروتستنتية لا تلغي الصيام مطلقا من برامجها بل جعلته منوطا (بالرغبة) ذلك لأنها ترى الأناجيل التي بين أيديها لا تنص على فرضية الصيام بجانب أنها ترى صوم المسيح الأربعيني خاصا به ، لكنها تقر أن الصيام محبوب ، وعبادة سامية ، لذلك اختطت لنفسها هذا النهج فأبطلته كفرض وأعلنته كرغبة دان بها كل البروتستانت شرقا وغربا .

وجريا مع فلسفة الرغبة هذه ـ وهي دائما « احساس شخصي » لا يتحتم وجوده في كل المجموعة البروتستنتية في آن واحد ـ لم تشرع الكنيسة الانجيلية مواعيد ابتداء أو نهاية للصيام كما لم تشرع لابتدائه ـ أيضا ـ سنا معينة ، فحسب البروتستنتي ـ اذن ـ أن يحس برغبته في الصيام فيصوم عقب استيقاظه ويظل صائما قدر طاقته ، فاذا أفطر حل له كل شيء من حيوان وغيره ، فالبروتستنتية لا تأخذ بنظرية « الانقطاع » عن الحيوان ونتاجه لأنها لم تحظ بها في الأناجيل ـ المختلفة ، ويستمسك أقطابها بنصوص تشهر بالداعين الى الانقطاع والمانعين الناس أكل ما أحل الله مثل :

« مرائين ينطقون بالكذب ، وضمائرهم مكوية ، ويمنعون عن الزواج ، وعن أكل أطعمة خلقها الله ليتناولها بشكر كل من آمن وعرف الحق (١) » .

« فلا يحكم عليكم أحد في المأكول أو المشروب أو من قبيل

(١) الفصل الرابع ٢ ، ٣ من رسالة القديس بولس الى تيموثاوس .

عيد أو رأس شهر أو سبوت (١) » .

وعمدت بعض فرق البروتستنتية ـ بعد هذا ـ الى نهج « استبدال » الصيام بعمل آخر ، فرغبت للأتباع أن يمتنعوا عن بعض الأطعمة التي يشتهونها ، ويدخرون ثمنها ليعطى للفقراء ، وبذلك يسدون ـ من وجهة نظرهم ـ ثغرة الصيام ، وليس هذا المنهج عاما بالطبع فهو بدوره منوط بالرغبة ـ رغبة التابع في الصيام أو الاستبدال ـ وعلى رأس الكنائس التي نادت بتلك الطريقة كنيسة انجلترا المعروفة باسم :

وهكذا انتهى أمر الصيام بين يدي البروتستنتية .

....

واضح مما تقدم أن الفرق المسيحية اتفقت على :

١ ـ رفع الأناجيل من طريق تشريع الصيام ، وابعادها عن التوجيه فيه وتمليك الكنيسة حق هذا التشريع بألوانه وأشكاله .

٢ ـ وتتفق أيضا على اعتبار « الصلة الجنسية » والمباشرة لا شأن لها بالصيام ولا تفسده من قرب أو بعد .

ثم تختلف بعد في :

١ ـ لون التكليف بالصيام فلا اتفاق بينها على أن يكون فرضا .

٢ ـ مدة الصيام اليومية لا اتفاق عليها ابتداء ونهاية ، فهي طورا (مزاج) من حق أي انسان أن ينهيها في أي وقت شاء ما دام لا يطيق الاستمرار أكثر من هذا كما في

---

(١) الفصل الثاني من نفس الرسالة الى اهالي كولسي .

البروتستنتية ، وأبو الاعتراف في الأرثوذكسية يستطيع هو أيضا أن يضع وقت نهاية في صيام الانقطاع ٠

٣ ـ الصمت : يقبل عليه الكاثوليك وذو شأن في برامجهم الدينية ٠

٤ ـ الحيوان ونتاجه : يمارس الامتناع عنه الكاثوليك والأرثوذكس ويرفضه البروتستانت ٠

٥ ـ صيام السبت أقرته الكاثوليكية ، ومنعته الأرثوذكسية الا في سبت واحد يقع قبل عيد القيامة مباشرة ٠

....

وأما العمل فلا يجري المسيحيون في الكف عنه على ما ورد بالعهد القديم ولم يقدسوا كل هذه العطلات وأقروا فيما بينهم يوم « الأحد » ٠

الصيــام في الشريعــة الاســلاميــة

الصيام في الجزيرة قبــل الاســلام

تمتعت الجزيرة العربية ـ فيما قبل الاسلام ـ بميزة فريدة لم تكن بأية بقعة سواها من بقاع الدنيا القديمة ، وبتلك الميزة أمكن لتلك الأرض القاحلــة أن تكون خصبــة بعقائــد العالم المتمدين كله اذ ذاك ، وأن تجد كل عقيــدة تسري الى شبــه الجزيرة أتباعا يعكفون عليها ٠

ولذلك كان ينبغي حقا أن تكون تلك الأرض ميدانا لآخر الرسالات ومنبتا لخاتم النبيين ، فليس الاسلام دينا اقليميا ، أو فلسفة من فلسفات عصره ، لقد نشأ الاسلام بين مختلــف العقائد وصمد لنبالها ، ورد سهامها واستطاع بقوة الاقناع أن يبرز عليها فختم عليها بحقه ، وتقدم عليها بوضوح عقيدته ، ودامت له القوة بشريعته ٠

لقد كانت الجزيرة قلب العالم التجاري القديم ومصرفــه المالي الضخم ، وتلك هي الميزة التي مكنت للجزيرة أن تسيطر على التجارة العالمية في ذلك العهد ، حتى باتت الهند كحجرة داخلية من بيتها الكبير ولم يسيطر غير العرب على المحيط الى الهند آنئذ ، واحتكروا السلع الهندية حتى جأر بلينيوس المؤرخ

الروماني مما تبتزه العرب من نقد يعد « ثروة طائلة نبذرها على أهواء مترفينا ونسائنا (١) » ٠

وقبل أن يتمكن « هبالوس » مـن الالمـام بأسرار الخطوط التجارية ويقطع الطريق على الاحتكار العربي ، ظلت الجزيرة تتمتع بميزتها الفريدة ، وبما كان يموج في شمالها وجنوبها من أجناس شتى تمثل شبه توكيلات تجارية لبلدانها المختلفة ٠

وبمقدار ما كان هناك من أجناس كانت الأديان ، وتسنى للعرب بسبب ذلك وبخاصة في الشمال والجنوب أن تدرس عن كثب هذه العقائد سواء منها ما كان هنديا آسيويا ، أو أوروبيا شرقيا أو غربيا ، وأن يدركوا فلسفتها ويتأثر بها من يتأثـر منهم : فعرفوا بجانب العقائد السماوية : البرهمية ، والصابئية ، والمجوسية ، وعبادة كائنات النظام الشمسي ٠

كانت البرهمية مشهورة بين سكان عمان ، وكانت الصابئية في الشمال والجنوب ، كما كانت المجوسية في بطون من تميم ، وكان النظام الشمسي له عقيدته التي دانت بها اليمن كما دان بها الشمال وزاد بعضهم على ذلك عبادته للجن والملائكة ، على أن وثنية ــ الأصنام ــ كانت دين الغالبية من العرب ، تقربوا اليها على أنها ــ في زعمهم ــ الملائكة بنات الله ، وأنها شفعاء لهم عند الله ٠

ولئن عرف الشمال والجنوب هذه العقائد ، فان موجاتها لم تندفع الى قلب الجزيرة ، وتقاسم الأوثان سلطانها ، فقد كان أنصار أية عقيدة بداخل الجزيرة لا يمكن أن يطغوا على دين غالبيتها ٠

---

(١) ص ٧٨ تاريخ العرب مطول ج١ فيليب حتي وزميليه . دار الكشاف .

ولقد كان القلب ـ قلب الجزيرة ـ وأطراف ذلك القلب تختلف اختلافا جوهريا عن الشمال والجنوب معا ، ففي حين تمتع الشمال والجنوب بحكومات ملكية نظمت شئونه ، واتخذت لها أديانا رسمية ، وأقامت شرطة ، وأعدت جيوشا ، وسايرت نظم عصرها ، فان القلب وما حوله لم يمارس شيئا من ذلك كله •

واذا كان المعتنق لعقيدة في الشمال أو الجنوب يجد لها معبدا ، ومشرفا ، ورعاة لدينه ، فأية عقيدة في القلب لم تستقم لها هذه الانظمة ، فقد يجد النصراني بالشمال أو الجنوب كنيسة ، وقسا وراعيا ، وأموالا موقوفة لرعايته ، وجلسات مرصودة للوعظ ، وخطوطا متصلة بالرعاة والاتباع ، لكنه بحال ، لن يجد شيئا من ذلك كله بقلب الجزيرة •

ونضيف الى هذين ـ حقيقة ثالثة ، هي طبيعة البدوي ، وحريته التي لا تعرف حدا ـ بعد تجنب جريمة توقع بالقبيلة ـ قبيلته ـ في المشاكل ، فطبيعته الطلقة ، وحريته غير المتناهية لم تمارسا مدنية تأخذ منهما حدا في مقابل اعطائه شيئا آخر كحراسته أو الدفاع عنه • فكان البدوي على فطرته وطبيعته التي خلقه الله عليها ، طبيعة بسيطة في داخلها ، منطقية في فكرها لا تلائمها فلسفة ملتوية ، ولا تناسبها أفكار معقدة اذا قبلت من وجه رفضت من آخر •

لذلك لم يكن غريبا على هذه الطبيعة ، وتلك الفطرة أن تندفع نحو دين ابراهيم قبل أن تعكف على الوثنية ، فكان في « الوحدانية » التي عرفتها على يد ابراهيم الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على رأس الألفين من قبل الميلاد ، الدين الذي خاطب روحها وتلائم معها ، وعاشت عليه فترة نبوة مختارة على يد ابراهيم واسماعيل من بعده عليهما الصلاة والسلام •

وأقام كلاهما قواعد البيت الذي قدسته العرب وحجت اليه جاهلية واسلاما وقاومت كل بناء سواه أو وسعت في تخريبه أو التشهير به ٠

وعلى مدار الزمن استقرت « العقيدة » ونصلت « الشريعة » ثم ضاعت فما بقي ـ عند ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ـ الا قلة حنفاء تكاد تعد على الأصابع ، وطغى الشرك فعبدوا الأوثان مع اقرارهم بالله خالق كل شيء ٠

ولقد سهل انتشار هذه الوثنية في العرب أنها لم تواجه العربي برئيس ولا نذير ، ولم تدخل على طبعه بالاملاء والتحذير ، فعكف على هذه الأصنام التي انتشرت وتزلف الى المجموعة التالية من الأوثان وغيرها :

أساف ، الأقيصر ، باجر ، ذو الكفين ، ذو الشري أو « دسورس » ، ذو الخلصة ، ريام ، رضى ، السجة ، سواع ، سعد ، سعير ، ـ « صلم هجم » ، عائم ، عميانس ، العزي ، الفلس ، اللات ، مناة ، مناف ، نائلة ، نسر ، نهم ، هبل ، ود ، يغوث ، يعوق ، اليعبوب (١) ٠

توزعت هذه الأوثان بأرض الجزيرة من مشارف الشام حيث استقر الأقيصر الى مرابض اليمن حيث استقر ريام ، وكانت تجمع بين الحجر والشجر كما كان منها الذكر والأنثى ،وتفاوتت منزلتها في النفوس ، وذكر هيردوت بعضها وقارنه بآلهة اليونان، فجعل ذو الشري اله الكرمة مماثلا لديونيسوس وباخوس الهي الخمر ، واعتبر اللات كأفروديت (٢) ٠

---

(١) تبلغ هذه الاوثان ـ فيما حصر منها ـ نحو ثلاثة وتسعين صنما وضعتها في فهرس معجمي برسالة « الماجستير » وثنية العرب واثرها في الادب الجاهلي بالجزء الاول ، تحت الطبع . الباحث

(٢) راجع لـ « فيليب حتي ـ تاريخ العرب مطول ٩٦/١ .

ويبدو أن رهبتها كانت أقل من منزلتها فامرؤ القيس لم يتبع ما تعارف عليه القوم من (أقداح) ذي الخلصة حين استقسمها للغارة على بني أسد انتقاما لأبيه ، وضرب بها وجه الصنم صائحا فيه : لو كان أبوك قتل ما عوقتني ٠

على أن كهنتها حاولوا الباسها حرمة ، واعطاءها مهابة فمنعوا الحيض أن يدنون منها أو يتمسحن بها ، واصطنعوا لها شعائر كالطواف حولها ، واتخاذ حرم لها في الأرض ، وجعلوا لبعضها مذبحا وعتيرة ٠

ثم كان للكاهن أثره الحاسم في نفوس القوم ، لا سيما اذا نجح فيما أعد له من اختبار ، كان في العادة خبئا يخبأ له ، فاذا عرفه ، كان حكمه فيما يعرض عليه قاطعا ، وكانت تشد اليه الرحال من أجل ذلك ٠

صحيح أن الكاهن ، هنا ، لم يكن مثل كاهن مصر أو الهند أو بابل متمتعا بنفوذ سياسي أو مستندا اليه ، لكن كانت له رهبته عموما على النفوس وان كان كسبه ـ على ما يبدو ـ وقفا على طبيعة السخاء في نفس العربي أكثر منه الزاما بتقدمات أو غيرها ٠

ومن هنا احتال الكاهن حيلا عدة للتكسب فادعى معرفة الغيب والحماية مما يدبر فيه ، فنال بذلك نذورا أو احسانا مما جعله بعض العرب نصيبا للأوثان من الزرع والأنعام ، فاذا لم يجد عمد الى الحيلة وقد حدث أن طارد « صيفي البولاني » كاهن الفلس ناقة جارة لـ « مالك بن كلثوم » حتى أدخلها بالأرض الحرم للفلس رجاء أن تصبح ملكا لوثنه فأدركه مالك فقال له : خل سبيل ناقة جارتي فقال : انها لربك ، قال : خل

سبيلها قال : أتخفر الهك (١) ؟ فبوأ له الرمح فحل عقالها وانصرف بها مالك (٢) ٠

ولئن كانت هذه وثنية العرب ، وهذا شأنها ، فلا ينتظر بعد أن يكون لها صيام بين العرب عامة ، وليس الصيام شعيرة هينة حتى يمكن أن يختفي من آثار القوم التي تحدثت عن أصنامهم ، ففي الحق كان لكل دين ـ عدا هذه الوثنية ـ صيام في وطنه على الأقل ، أما الوثنية العربية فلا ، وآثار القوم مفعمة بالحديث عن الأصنام وواجباتها وعتائرها ومذابحها وكهنتها ، وما كان للكهنة من سجع ارتزقوا به حينا ، ولكنها تخلو من الحديث عن صيامها خلوا ليس مرجعه عدم الاهتمام بتلك الشعيرة ، والا تحدث بها قوم وأغفلها آخرون ، وانما مرجع ذلك الى خلو التعبد لها من تلك الشعيرة على ما أركن اليه نتجه البحث ٠

.. .. ..

ثم كان لليهودية دور بالجزيرة منذ « عرجت قبائل العبرانيين من سبط « راحيل » على سيناء والنفود في أثناء خروجها من مصر الى فلسطين وتنقلت ـ في تلك الربوع ـ زهاء أربعين سنة (٣) » ٠

واحتكت اليهودية بكل من جاورها من الأمم عربا أو غير عرب وكانت « الوحدانية » في هذه الديانة عاملا فعالا في اعتناق بعض العرب لها خاصة ، وقد كان منهم من يقيم على دين ابراهيم الخليل ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ

---

(١) تنقص حقه ٠
(٢) ص ٦١ الاصنام للكلبي دار الكتب ١٣٤٣هـ ٠
(٣) راجع لـ « فيليب حتي » تاريخ العرب مطول ٥١/١ ٠

ومن هؤلاء العرب حمو موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هذا الذي صاهر نبي الله موسى بأرض مدين ، وهو على دين التوحيد من قبل أن يتلقى موسى الرسالة .

وعندما أنزل الرومان سخطهم بتلك الفئات اليهودية تدفقوا بكثرة الى الواحات بقلب الجزيرة وجنوبها ، واتخذوا لهم معسكرات وحصونا مستغلين طبيعة الجوار العربي ، وحمية العرب لمن يستجير بهم طالبا حمايتهم .

وكانت اليمن قد عرفت الوحدانية ، ثم انتشرت فيها منذ زمن نبي الله سليمان ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ نحو ١٠٠٠ ق.م. أيام أن اتصلت به « ملكة سبأ » ثم دانت بدينه :

« قالت رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين (١) » . ثم وجدت اليهودية ـ من بعد ذلك ـ وفي القرون الأولى الميلادية عطفا خاصا عليها من بعض ملوك اليمن ، ثم ما لبث « ذو نواس » سليل « تبع أسعد كامل » ملك اليمن أن أعلن اليهودية دينا رسميا لبلاده وبقي الأمر كذلك فترة انتهت بانتهاء حياة ذي نواس عندما ألقى بنفسه في مياه البحر مندحرا تحت وطأة غلبة الاحباش لبلاده .

ولقد سمحت الاقامة الأمينة لليهود ـ بين العرب ـ أن يمارسوا شعائرهم دون خشية من قمع أو استخذاء من سخرية ، فقد احترم العرب ـ وهم على جاهليتهم ـ الأديان جميعا ، وكانت « اليهودية » من العقائد التي أثرت في بعض العرب حتى اعتنقها بعضهم ، أو رضي أن ينشأ ولده عليها ، وظهر أثر

---

(١) سورة النمل الاية ٤٤ .

مباشر لها في قريش حيث مارس القوم شعيرتين من شعائر اليهود ، هما :

الصيام والصمت :

فأما الصيام فأعني به صيام عاشوراء خاصة ، وقد كان اليهود ـ من أهل خيبر ـ يصومون عاشوراء ، وهو ـ عندهم ـ يوم « الكبور » و « الغفران » ويتخذونه عيدا ، فترتدي نساؤهم حليها ، ويحملن شارات تظهرهن بأجمل هيئة وأحسن زينة (١) فصامت قريش عاشوراء ، وبخاصة في مكة ، وقد كان ثم حادث دفع العرب للأخذ بهذا الصيام ·

قال دلهم بن صالح :

« قلت ـ لعكرمة : عاشوراء ما أمره ؟

قال : أذنبت قريش ـ في الجاهلية ـ ذنبا ، فتعاظم في صدورهم ، فسألوا : ما توبتهم ؟

قيل : صوم عاشوراء ، يوم العاشر من المحرم (٢) ·

والمشير هنا هم اليهود خاصة ، اذ أنهم الذين كانوا يحسبون للعرب في ابتداء الأمر هذا الصيام ، يتضح ذلك مما رواه الطبراني ـ بسند حسن ـ من حديث ابن أبي الزناد ، عن أبيه خارجة بن زيد ، عن أبيه ثابت ، قال : « ليس عاشوراء باليوم الذي يقول الناس ، انما كان يوم تستر (٣) فيه الكعبة، وتقلس (٤) فيه الحبشة عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان يدور في السنة كلها ، فكان الناس يأتون « فلانا » اليهودي

---

(١) راجع لابن رجب الحنبلي ـ لطائف المعارف ص ٥١ دار احياء الكتب العربية ١٣٤٢هـ .
(٢) نفس المرجع ص ٤٥ .
(٣) كـذا .
(٤) تلعـب .

يسألونه فلما مات اليهودي أتوا زيد بن ثابت فسألوه (١) » ٠

وفي الحق ليس أحد ــ بعد اليهود ــ عرف عاشوراء الا العرب، وعرفوه عن طريقهم خاصة ٠

وجدير بالذكر أن ننظر قول الراوي :

« وكان ــ أي عاشوراء ــ يدور في السنة كلهاً » ٠

فكيف يكون عاشر المحرم ثم يدور ــ في السنة كلها ؟

صحيح أن « عاشوراء اليهود » يقع في اليوم العاشر من رأس سنتهم ، ولما كان حساب هؤلاء وهؤلاء مصدره واحد فالمفروض أن يقع « عاشوراء » عند العرب في اليوم العاشر من المحرم ولا يتعداه ٠ لكن ثمت أمور كان لا بد ــ لوجودها ــ من دوران عاشوراء في السنة كلها :

كان اليهود والعرب ــ معا يجرون على حساب الزمن بالشهور القمرية ، لكن الفريقين ــ معا أيضا ــ كانا يأخذان بنظامي : « النسيء والكبس » فاليهود ــ كما سبق أن بينا ــ تزيد شهرا قمريا كل ثلاث سنين ، فتصير السنة الثالثة ــ ثلاثة عشر شهرا٠

وكان العرب أيضا يزيدون شهرا كل ثلاث سنوات قبل الشهر السابع فيتأخر السابع الى ما بعده ، وتصير السنة كبيسة مقدارها ثلاثة عشر شهرا ٠

فتأخير السابع نسيء ٠

وزيادة شهر قبله كبيس ٠

وكانت تقرر هذه الزيادة يوم الحج (٢) ٠

ثم كانت الأمية منتشرة في العرب ، وكانوا ــ الى جانب

---

(١) راجع « الحديث » وحكمه للامام ابن حجر ــ فتح الباري ١٧٦/٤ المطبعة الخيرية ١٣١٩هـ .

(٢) راجع ص (٢٥) من مجلة « الثقافة » العدد (٨٨) السنة الثانية .

النسيء والكبس ـ قد أساءوا اساءة أليمة الى « حسابهم » بما ابتدعوه خاصا بالأشهر الحرم اذا وقع زمنها في فترة لا ترضي أطماع بعضهم في شن الغارة ، وما اليها من قرصنة برية ، فتعمد القبيلة الى تأخير الشهر الحرام الى زمن غير زمنه ، لتستبيح ما يحرم من قتال ، فتعمد الى « المحرم » مثلا فتؤخره الى صفر وتقوم بما انتوت عليه ، فكان هذا التقديم والتأخير الى النسيء والكبس المتقدمين عاملا ثالثا خلط عليهم الحساب وضيع معالم التوقيت ، فكان لجوءهم الى اليهود طلبا للتوقيت لهم ، وقد كان النسيء والكبس ، والتقديم والتأخير ·· كل ذلك ·· كفيلا بدوران عاشوراء بين الشهور كلها ·

وانما انتهى هذا الخلط بوحي من الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حجة الوداع ـ اذ قال ـ عليه الصلاة والسلام :

ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان (١) ·

·· ·· ··

وعرفت العرب « الصمت » كما عرفت صيام عاشوراء ، ومارسته الى تباشير الاسلام ·

عرفته صمتا مطبقا يستغرق اليوم كله ، أو أكثر ، وأطلقت عليه لفظين : أحدهما يخصه ، وهو « الضرس » بفتح فسكون ، قال ابن منظور والفيروزبادي : عنه « صمت يوم الى الليل » ·

---

(١) انظر صحيح البخاري ـ باب حجة الوداع .

وثانيهما : الصيام ، اذ كل كف في لغتها صيام ٠

وظل « الصمت » فيهم حتى جاء الاسلام فكان له فيه شأن يأتي بموضعه ــ ان شاء الله ــ ٠

.. .. ..

وكما دان فريق من العرب باليهودية اعتنق فريق منهم المسيحية : وقد أوت المسيحية اليهم مبكرة فقد ورد في تقاليد الكنيسة الشرقية القديمة أن القديس « توما » هو أول من بشر بالنصرانية في بلاد اليمن أثناء سيره الى الهند في بعض رحلاته ٠

وأن « بولس » بشر بها في الشام فاعتنقها كثير من عربها قبل القرن الثالث الميلادي بزمن طويل (١) ٠

وجدير بالذكر بيان نوع العقيدة المسيحية التي دان بها هؤلاء العرب في تلك الأزمنة المبكرة ٠

لقد دان الكثير منهم بالمسيحية التي نادى بها المسيح عيسى ابن مريم ــ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ــ أعني المسيحية الخالصة التي تؤمن بأن الله اله واحد أحد ، لم يلد ولم يولد ، وليس كمثله شيء ولم يكن له كفوا أحد ٠

وأن المسيح عيسى بن مريم انسان خالص أرسله الله ورسولا من عنده لقومه لينقذهم مما انحرفوا اليه ، وانخرطوا فيه من الضلال والكفر وانكار الآخرة ٠٠٠ هذا الانكار الذي كانت عليه فرقة الصدوقيين ٠

---

(١) راجع للاستاذ محمد محمد مصطفى النجا ر ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٣٣ مطبعة الازهر ١٣٧٢هـ ٠

وبهذه العقيدة الخالصة كان التوحيد نقيا تماما في بعض الجنوب لفترة لم تخرج فيها المسيحية الى نصرانية صليبية ، وفي هذه الفترة استشهد كثير من أولئك المؤمنين بالقائهم أحياء في الأخدود الذي شق لهم بالأرض وأضرمت فيه النيران ، وأولئك هم المؤمنون الذين نزل فيهم قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود · وشاهد ومشهود · قتل أصحاب الأخدود (١) · النار ذات الوقود · اذ هم عليها قعود (٢) · وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود · وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد · الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد (٣) ·

وكان مذهب « أريوس » على شيء من هذه العقيدة ، أريوس الذي أنكر « لاهوت » المسيح ، وأعظم المحامين عن القول بأن الله اله واحد ، وجاهر بأن المسيح انسان فقط ، وأنه لا يجوز أن يعبد بحال (٤) ·

وقد رأس « تيوفيلس اندس الأريوسي » أخطر بعثة ذهبت للتبشير في الجنوب ، أوفدها الامبراطور « قسطنطيوس » عام ٣٥٦م وأفلح في انشاء ثلاث بيع في الجنوب ، ثم أنشأ «فيميون» بعده بيعة بنجران عام ٥٠٠م ·

---

(١) أي لعن أولئك الذين أمروا بخد الاخدود لالقاء المؤمنين فيه .
(٢) كان قد أعد للطغاة مقاعد قريبة من الاخدود يرون منها عذاب المؤمنين
(٣) سورة البروج ـ الايات ١ ـ ٩ .
(٤) راجع لـ « دكتور مول ـ مطران دورهم ـ الاشعة اللاهوتية في مبادىء التعاليم المسيحية ص ٤٠ ولـ « دكتور فيليب حتي » ـ تاريخ العرب مطول ٨٠/١ دار المعارف .

على أنه بموت « ذي نواس (١) » أصبحت النصرانية دين الدولة الرسمي في اليمن · كذلك أعلن الغساسنة في الشمال النصرانية دينا رسميا لهم ، مؤمنين بطبيعة واحدة في المسيح ، اذ كانوا ـ بدورهم ـ وثيقي الصلة بالأريوسية · واستطاع « الحارث الثاني » ـ أثناء زيارته للقسطنطينية عام ٥٦٣م ـ أن يعمل على تعيين « يعقوب البردعي » مطرانا للكنيسة النصرانية السورية التي عرفت ـ فيما بعد ـ بالكنيسة اليعقوبية ·

وما لبثت « الحيرة » أن أعلنت ـ بدورها ـ النصرانية دينا رسميا لها في عهد النعمان الثالث « ٥٨٠ ـ ٦٠٢م » ·

وهكذا طوقت النصرانية شبه الجزيرة شمالا وجنوبا ، وهي ـ وان لم تنجح ـ في غزو القلب لم يعزب عن القلب ، أو يندر عنه ، معالم عقيدتها ، فكثر في أشعاره ذكر الصليب ، والاكليل ، والدير ، والراهب والراهبة ··· الخ ·

فالعرب من أسبق الأمم الماما بالنصرانية ، ويسجلون عنها ولها تاريخا حافلا منذ القرون المسيحية الأولى ، تلك القرون التي خلت بعقائد طواها التاريخ بوشاح ثقيل ، لكن العرب تداولوا كثيرا من شئونها وألموا بالكثير من أسرارها ، فيذكرون فرقة منها كانت تصوم ثلاثين يوما فريضة في وقت محدد من كل عام ، حتى أتى آباء لهم كنسيون أحدثوا فيها تغييرا انتهى بها الى خمسين يوما ، وأزال عنها الى جانب ذلك كيفيتها الأولى ، وذلك اذ بدأوا باخراجها عن موعدها الثابت ليتجنبوا وقوعها في الحر والقر ، ورأوا أن التعويض بالزيادة قد يغفر لهم الخروج على الشريعة ، ويرخص لهم العمل بالرأي ·

---

(١) قيل : انه الطاغية صاحب الاخدود .

يقول الشعبي – رضي الله عنه – :

« ••• جاء بعدهم (١) قرن فأخذوا بالثقة من أنفسهم ، فصاموا قبل الثلاثين يوما ، وبعدها يوما ، ثم لم يزل الآخر يستن سنة القرن الذي قبله حتى صارت الى خمسين (٢) » •

وبدهي أن العرب الذين اعتنقوا النصرانية برغبتهم أدوا شعائرها وفرائضها من صلاة وصيام وغير ذلك طائعين ، سواء كان هذا الصيام فريضة أم رغبة ، وسواء كان صمتا أو امتناعا عن شهوتي البطن والفرج •

كذلك صامت أوائلهم تلك الفريضة كما نادى بها المسيح عيسى بن مريم – على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام – ثم صامت ذريات من بعدهم هذه الفريضة بلونها الكنسي الذي انفصل عن الانجيل وأوى الى الرأي حتى غلب عليه •

•• •• ••

ثم دان العرب بالاسلام ، بعد أن انتشرت بأرضهم تلك الأديان ، واعتنقوه دون أن يقتحم عليهم حريتهم بالاكراه ، وشرع الله فيهم صياما وسطا عدلا ليس لبشر فيه شيء من زيادة أو نقصان ، ونهج لهم فيه نهجا رحيما بالانسان ، سهلا يتبارى فيه صبياننا ممارسة له وحبا فيه ، ليس « كهنوتيا » يختلف من درجة لأخرى ، أو يلزم الرجال دون النساء ، رحيما بالمؤمنين مطواعا لما تقتضيه ظروفهم ، لا يبدأ بزهد مضغوط ، ولا ينتهي بابتزاز الشهرة واستجلاب الاعجاب ، نقيا عن التكسب به ، بعيدا عن أذى الناس ، قريبا الى الله ، والدار

---

(١) اي بعد أصحاب الثلاثين ... الباحث .

(٢) راجع تفسير اية الصيام بسورة البقرة رقم (١٨٣) بتفسير : الطبري وابن كثير .

الآخرة • يقود ـ بشريعته المحكمة وفقهه الميسر ـ الى هدى الصالحين ومنهج المتقين •

•• ••• ••

وللصيام في الاسلام تشريعات عدة ، تجتمع في ثلاث :

أ ـ فرض عام ثابت ـ وحده ـ لا يشاركه بديل يقوم مقام نسكه ويؤدي مطلوبه ، وذلك ما انتهى اليه أمر « رمضان » فصيامه عام ينتظم المسلمين جميعا ، ويلزم كل مكلف ، رجلا كان أو امرأة (١) •

ب ـ فرض خاص له قسيم أو أكثر ، يمكن أن يغني عنه لمشاركته له في أداء نفس « المطلوب » ويلزم معينا أو أكثر من المسلمين لأمر أتاه كان خطأ ، أو كان فيه يسر دفع عنه مشقة ، فكان هذا الصيام له سعة من ضيق ، وفرجا من حرج • وهذا القسم مفصل أمره ، ومذكور سببه في الكتاب العزيز •

ومن هذا الخاص « النذر » وهو ما أوجبه مسلم على نفسه وليس له قسيم يعادله ، وانما وجب لقوله تعالى : « وليوفوا نذورهم (٢) » •

ج ـ تطوع يمارسه المسلم عن رغبة لا الزام فيه •

وكان للصيام العام دوران :

صيام عام انتظم المسلمين قبل رمضان ، ثم صيام رمضان ،

---

(١) المكلف ــ شرعا هو : البالغ العاقل ذكرا او انثى .
ويجب عليه صيام رمضان ما دام قادرا عليه حقيقة او حكما ، خاليا من مانع كالحيض والنفاس ، مقيما غير مسافر .

(٢) سورة الحج الاية ٢٩ .

وما كان فيه من أحوال ختمت بتشريع نهائي ، ومن هنا كـان قولنا : « وذلك ما انتهى اليه أمر رمضان » .

وأما الخاص فمتعلقه فرد أو أفراد ويتناول شئونا دينيـة وأخرى اجتماعية ، تكون احداها سببا مباشرا له .

وأما التطوع فقد رغبت فيه الشريعة ، وله أيام مشهودة على مدار العام .

وفي الفصول القادمة دراسة لكل صيام ، نعقبها بدراسة عن اللحم والصمت والعمل في الاسلام . والله الميسر .

الصيـــام العــام :

الــدور الأول

الصيــام قبــل رمضـــان

صام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصام المسلمون قبل أن ينزل الكتاب بفرض رمضان ، ولا يختلف الفقهاء ولا المفسرون في وقوع هذا الصيام ، وان اختلفوا في حكمه ٠

وكما لا يختلفون في وقوعه لا يختلفون في تحديد هذا الصيام بنوعين :

صيام عاشوراء ٠

وصيام ثلاثة أيام من كل شهر ٠

ويرجح العلامة ابن حجر من الشافعية والعلامة ابن القيم من الحنابلة ويرجح « الأحناف » أن « عاشوراء » كان فرضا قبل رمضان ٠

ويستدل ابن حجر على هذه الفرضية بالحوادث التالية :

أ ـ ما رواه عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ من قوله :

« صام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عاشوراء ، وأمر بصيامه فلما فرض رمضان ترك » .

ب ـ قالت عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ :

« كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر بصيام عاشوراء ، فلما فرض « رمضان » كان من شاء صام ، ومن شاء أفطر .

ج ـ أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واحدا من أصحابه، هو هند بن أسماء بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ وهو من أصحاب الحديبية أن يذهب الى قومه « أسلم » بقرية قريبة من « المدينة » فيؤذن فيهم يوم عاشوراء .

« ان من كان أكل فليصم بقية يومه ، ومن لم يكن أكل فليصم ، فان اليوم يوم عاشوراء » .

د ـ قالت الربيع بنت معوذ :

أرسل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غداة عاشوراء الى قرى الأنصار : « من أصبح مفطرا فليتم بقية يومه ، ومن أصبح صائما فليصم » .

فكنا نصومه بعد ونصوم صبياننا ، فاذا سألونا الطعام أعطيناهم اللعبة من العهن نلهيهم به حتى يتموا صومهم (١) .

قال العلامة ابن حجر :

« ويؤخذ من مجموع الأحاديث أنه كان واجبا (٢) :

---

(١) انظر لمراجعة النصوص : (أ ـ ب ـ جـ ـ د) ابن حجر ـ فتح الباري ـ باب صيام عاشوراء .

(٢) من هذا الراي ايضا العلامة ابن القيم راجع زاد المعاد ١٦٥/١ وما بعده دار الكتب العلمية ـ بيروت .

لثبوت الأمر بصومه ٠
ثم تأكد الأمر بذلك ٠
ثم زيادة التوكيد بالنداء العام ٠
ثم زيادته بأمر من أكل بالامساك ٠
ثم زيادته بأمر الأمهات ألا يرضعن فيه الأطفال » ٠

ويقول ابن مسعود الثابت في « مسلم » (لما فرض رمضان ترك عاشوراء) ٠

مع العلم بأنه ما ترك استحبابه ، بل هو باق ، فدل على أن المتروك وجوبه ٠

وأما قول بعضهم : (المتروك تأكد استحبابه ، والباقي مطلق استحبابه) فلا يخفي ما فيه من ضعف ، بل تأكد استحبابه باق ، ولا سيما مع استمرار الاهتمام به حتى في عام وفاته ــ صلى الله عليه وسلم ــ حيث يقول :

« لئن عشت لأصومن التاسع والعاشر » ٠
ولترغيبه في صومه ٠
وأنه يكفر سنة ٠
وأي تأكيد أبلغ من هذا (١) اهـ » ٠

ولقد كان معاوية بن أبي سفيان ــ رضي الله عنهما ــ ينكر فرضه ، حتى جمع القوم بالمدينة ، وخطب فيهم فقال :

« يا أهل المدينة ، أين علماؤكم ، سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول :

---

(١) راجع للعلامة ابن حجر ــ فتح الباري ــ باب صيام عاشوراء .

هذا يوم عاشوراء ، ولم يكتب عليكم صيامه ، وأنا صائم ، فمن شاء فليصم ومن شاء فليفطر » ٠

وابن حجر ــ رضي الله عنه ــ يرد رأي معاوية ــ رضي الله عنه ــ ردا بدهيا وذلك حيث يبين أن معاوية ــ رضي الله عنه ــ صحب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من عام الفتح ، وكان في السنة الثامنة من الهجرة ، والذين شهدوا أمر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بصيام عاشوراء والنداء بذلك شهدوه ــ ولما يمض على الهجرة سنة في أوائل العام الثاني ــ ولم يكن فيهم معاوية رضي الله عنه ٠

ونضيف الى ذلك أن الأمر بصومه وقع ــ في المحرم ــ من السنة الثانية وفي نفس السنة الثانية هذه نزل فرض رمضان ، وهذا يعني أن فرض عاشوراء كان لعام واحد (١) ٠

ثم هو قبل هذا العام وبعده لم يكن فرضا باتفاق ، وبداهة ذلك أن معاوية ــ رضي الله عنه ــ لم يدركه ، ولم يمارسه فرضا ــ أبدا ــ وسماعه ما سمع من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ انما كان بعد نسخ فرضه بنحو سبع سنين على الأقل ، وما كان صومه آنئذ فرضا قطعا ، ويجيب ابن القيم ــ بشأن حديث معاوية ، فيقول ــ من ردود :

« ان حديث معاوية صريح في نفي استمرار وجوبه وأنه الآن غير واجب ولا ينفي وجوبا متقدما منسوخا (٢) » اهـ ٠

ويبدو أن معارضة فرضية عاشوراء من الجمهور راجعة الى استمساكه بأن رمضان أول مفروض في الصيام ، واعتبار أغلبهم

---

(١) راجع للشيخ علي الاجهوري ــ مقدمة في فضائل رمضان ص ١٢ طبعة اولى ١٢٧٧هـ ٠

(٢) ابن قيم الجوزية زاد المعاد ١٦٦/١ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ٠

ـ من جهة أخرى ـ أنه نفس ما فرض على السابقين أجمعين ، أو ما فرض من عهد خليل الرحمن ابراهيم ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ كما ذهب الى ذلك الامام الطبري ـ رضي الله عنه ـ .

وذلك أيضا لا يمنع ما ذهب اليه ابن حجر والأحناف ، اذ لا مانع مطلقا أن يكون الصيام ـ (حالة كونه شهرا) ـ لم يسبق بنظيره في الاسلام وهو ـ من هذه الجهة ـ يحظى بالأولية قطعا .

ولا يرد حجة ابن حجر ما قاله الامام الطبري ـ رضي الله عنه ـ :

« لم يأت خبر تقوم به حجة بأن صوما فرض على أهل الاسلام غير صوم رمضان (١) » .

فان ما قدمه ابن حجر من أدلة لها أحاديثها الصحيحة هو حجة بدهية قاطعة لم يتعرض لها الامام الطبري ـ رضي الله عنه ـ والا لتغير موقفه (٢) .

كذلك ، فان الذين يردون الفرضية يصلون الى الرد عن طريق التأويل في ألفاظ الحديث بما تنأى عنه من دلالاتها المباشرة ، والتأويل مخرج ضعيف .

ثم ما يمنع أن يأخذ الله المسلمين بألوان خفيفة من الصيام فيمرنوا على ممارستها ، ثم يفرض ـ سبحانه ـ عليهم رمضان الذي فرضه على السابقين .

---

(١) راجع تفسير الطبري ـ الاية ١٨٤ من سورة البقرة .

(٢) انظر نفس الاية ١٨٤ من البقرة ، فقد خلا تماما مما ساق ابن حجر من احاديث ، وهي شاهدة على فرض قبل رمضان ... الباحث .

ان فرض رمضان شهر صيام ليس في ذاته مانعا من فرض قبله ، وان الصلاة الرباعية ما كانت مانعة لفرض ثنائية قبلها ·

وكما صام المسلمون ـ عامة ـ عاشوراء ، صاموا كذلك ـ عامة ـ ثلاثة أيام من كل شهر ، ولم يستمر ذلك طويلا ، انما هي فترة الأشهر الستة الواقعة بين المحرم من السنة الثانية للهجرة الى نهاية رجب منها على ما حققه الامام الأجهوري ـ رضي الله عنه (٣) ـ فتكون حصيلتها ثمانية عشر يوما ثم نزل في شعبان أمره سبحانه بصوم رمضان ·

---

(٣) راجع للشيخ علي الاجهوري ـ مقدمة في فضائل رمضان ص ١٢ ·

الدور الثاني :

صيـــام رمضـــان (١)

بعد مضي ليلتين خلتا من شعبان نزل فرض صيام رمضان في السنة الثانية من الهجرة ، وفي التنزيل العزيز الآيات المشتملة على صيام رمضان ، وهي آيات لم تتنزل مرة واحدة ، بل كان بين بعضها زمن ، وهي قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون • أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فديـة طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون • شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى

---

(١) سميت الشهور القمرية بأسمائها قبل الاسلام بنحو مائتي عام ، وقـد اختيرت لها هذه الاسماء باعتبار ما جرى فيها من احوال ، وكـان رمضان يعرف قبل هذه التسمية « بزاهر » كما سمي ايضا « ناتقا » وهذا الاسم ذكره الفلكي باشا بلفظ « ناتل » واخرون بلفظ « ناطل » واغلب الظن ان ناتقا وناطلا وناتلا تسمية في عصر واحد اختلفت بهـا لغات العـرب .
ويشترك معنى الرفع والجذب في النتل ، والنتق ، والنطل . (الباحث).

للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فلصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » ٠

واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا الي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ٠

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام الى الليل ولا تباشرون وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون (١) » ٠

في هذا التنزيل الحكيم آيات أربع ساقت تشريعا ليس على غرار ما سبقها من تشريعات في العبادة ، فلم تكتف باعلان فرض الصيام ، وتترك للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تفصيل أمره كما كان الشأن في الصلاة والزكاة وكثير غيرهما ، بل عنيت بالتفصيل والاحكام معا ٠

وقد انفرد هذا التنزيل بالصيام ، وأعلن المسلمين بالكف عن اللذات الثلاث : المأكل والمشرب والمنكح ، لكي يؤدوا عبادة ليس كمثلها في أنواع العبادات شيء ، وفيها من كمال العبادة كل شيء ، فهي عبادة تفتح في سلك الايمان طريقا لا يلجه الا الصابر الشاكر المخلص الطائع فيزداد به برا ورحمة ،وينال

---

(١) الايات : ١٨٣ ــ ١٨٤ ــ ١٨٥ ــ ١٨٧ من البقرة .

به ثوابا ورفعة حتى لتكتسب العبادات الأخرى ، التي تؤدى في أثنائه ، من الثواب ما لا تناله في انفرادها دونه ، اذ الصوم يفيض عليها من روحانيته واخلاصه كمالا ، ليس لها بدونه وان عبادة مثلى تجمع الى الاخلاص لله الرفق بعباده لهي عبادة تكفل لصاحبها بحق أن يكون على رجاء أهل التقوى فيما عند الله من مثوبة .

والآية الأولى قد ساقت على ايجازها دليل احتمال البشر للصوم ، فقد كتب على الذين من قبلنا ، وهم بشر مثلنا مارسوه واحتملته نفوسهم ولم تضق به طاقاتهم ، فليس لأحد ـ من بعدهم ـ أن يدعي ـ فيه ـ وطأة فوق الطاقة ، أو مشقة دونها السعة .

نزلت آيات الصيام في مجتمع حديث النشأة الدينية ، تلك النشأة التي التأم تحت لوائها :

فريق مؤمن بكل ما في كيانه من قوة واخلاص ، ينصاع للأمر في خشوع وطواعية ، ويمارسه عن رضا وايمان .

وفريق في البداية من مدارج الايمان ، مثله يؤتلف حتى يتمكن الاسلام من قلبه ، ويغزو روحه ، فيزداد في الله يقينه .

وكان أمر الصيام في بدايته مستجيبا للفريقين ، فكان « الفرض » على لون من التخيير ذي الزام ، وكان على المسلم أن يختار واحدا من أمرين ويلتزم به :

أ ـ اما صيام نحو ثلاثة وعشرين ساعة ، تبدأ من بعد صلاته فريضة « العشاء » أو « نومه (١) » بعد المغرب ،

---

(١) اي نوم من يريد الصيام .

وتستمر الى غروب شمس اليوم التالي ٠

ب ـ واما اطعام مسكين مكان اليوم من الصيام ٠ قال تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » أي اذا رأوا الافطار وترك الصوم (٢) ٠

واستمر التخيير ، يصاحبه طابع الالزام ، قائما حتى نزل قوله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه (٢) » ٠

عندئذ انتهى التخيير ، ولزم الصوم الجميع ، ودخل « رمضان » طورا جديدا ليس فيه استبدال الاطعام بالصوم ٠

على أن طور « التخيير » الذي انتهى لم ينته معه « الزمن الطويل » الذي يجب صومه ، فقد استمر المسلمون ـ بعدئذ ـ على صيام اليوم كله عدا تلك الفترة الضئيلة بين المغرب الى صلاة العشاء أو « النوم » حتى نزل قوله تعالى :

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم » وفيها يقول المولى ـ عز وجل ـ :

« وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام الى الليل » ٠

فثبتت فترة الكف على الوقت من طلوع الفجر حتى غروب الشمس ، وقد تقدم الآية الكريمة لفظ « أحل » الذي يفهم منه أن ذلك كان ـ قبل ـ محرما محظورا ٠

ونخلص ـ من ذلك ـ الى الالمام بـ :

---

(٢) راجع ايات الصيام في صدد هذا الفصل .

أ ـ أن رمضان بدأ صيامه بفترة كف تستغرق اليوم كله الا قليلا ·

ب ـ يصاحب ذلك في البداية وجود « التخيير » الذي يسمح باستبدال الاطعام بالصوم ·

جـ ـ ثم انفرد « الصوم » بالوجوب على كل مكلف لنفس الفترة وانتهى « التخيير » بما سمح فيه من استبدال ·

د ـ ثم نزل حل الافطار الى مطلع الفجر تخفيفا من رب العالمين فهو سبحانه رؤوف بعباده :
« يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » (النساء ـ ٢٨) ·
« الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاء » (الأنفال ـ ٦٦) ·

وفي بيان تلك الفضيلة التي خص بها الله المؤمنين في ختام شرائعه يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصحيح مسلم:
« فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر » ·

·· ·· ··

كانت فترة الافطار الأولى مساوية لافطار أهل الكتاب السابقين وذلك بعض مصداق قوله تعالى :

« كما كتب على الذين من قبلكم » ·
وكانت فترة الافطار تحل بالغروب وتنتهي بأحد أمرين :

١ ـ بصلاة العشاء ، بمعنى أن يصلي المرء العشاء فاذا صلاها انتهى فطره وتلبس بصيام اليوم التالي ·

٢ ـ أو النوم : فاذا حل الغروب وأفطر الصائم يظل مفطرا طالما :

أ ـ لم ينم بعد افطاره ·

ب ـ ولم يصل العشاء بعد دخول وقتها (١) ·

فاذا حدث أن نام عقب الغروب فلا عبرة باستيقاظه ولو قبل حلول وقت العشاء ، كذلك اذا صلى العشاء صار صائما أيضا مستقبلا ليوم آخر ·

وواضح من هذا أنه لا حرج على من أفطر ، ولم ينم ، ولم يصل العشاء أول وقتها ـ أن يتمتع بفترة افطار أطول ممن صلاها أول وقتها أو نام ·

وهكذا مر المسلمون بدور زمني مارسوا فيه الصيام كما صامه مؤمنو أهل الكتاب الذين التزموا أمر ربهم ولم يجتهدوا ـ في أمره ـ من عند أنفسهم ودان المسلمون الأوائل بنعمة الله حتى تجلت عليهم رحمته بذلك التخفيف ·

وفي ذلك حجة لمن قال : ان « رمضان » ـ أو على التحديد ـ الدورة الفلكية التاسعة للقمر ـ وهي المسماة في العربية « رمضان » ـ فرض فيها الصوم بهذه الكيفية على أمم كتابية قبلنا ·

وقد وردت أخبار قوية بذلك منها :

١ ـ ما روى الامام الجليل أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ـ بسند متصل لا ضعف فيه ـ هذا الخبر ، قال :

---

(١) راجع في ايات الصيام المتقدمة عدا كتب التفسير مقدمة في فضائل رمضان للشيخ علي الاجهوري صفحتي ١٠ ، ١١ .

حدثنا بشر (١) ، قال : حدثنا يزيد (٢) ، قال : حدثنا سعيد (٣) ، عن قتادة (٤) قوله :

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » ، رمضان كتبه الله على من كان قبلهم (٥) .

٢ ـ وفي شرح الامام اسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي ـ بضم السين (٦) ـ قال :

« فالنصارى كتب عليهم رمضان ، وكتب عليهم ألا يأكلوا ولا يشربوا بعد النوم ولا ينكحوا النساء في شهر رمضان » .

٣ ـ وعلى ذلك كان اختيار الامام الطبري ـ وقد تقدم ـ وهو قوله في تفسير الآية :

« وأولى الأقوال عندي بالصواب قول من قال :

معنى الآية : كما فرض على الذين من قبلكم من أهل الكتاب ، أياما معدودات ـ وهي شهر رمضان .. الخ (٧) » .

كذلك تقدم قول الشعبي ـ رضي الله عنه ـ :

« ... جاء بعدهم قرن فأخذوا بالثقة من أنفسهم ، فصاموا

---

(١) بشر هو ابن معاذ العقدي ابو سهل البصري الضرير ، صدوق من الطبقة العاشرة ، مات بسنة بضع واربعين ومائة ، روى له : الترمذي والنسائي وابن ماجة .
(٢) يزيد هو ابن زريع البصري ، ابو معاوية ، ثقة ثبت من الثامنة مات سنة اثنتين وثمانين ، اخرج له الستة .
(٣) سعيد هو ابن ابي عروبة مهران اليشكري ، مولاهم : زقة حافظ ، قال ابن معين عنه : اثبت الناس في قتادة ، واقره ابن حجر ، روى له الستة أيضا .
(٤) قتادة هو ابن دعامة السدوسي البصري ابو الخطاب : ثقة ثبت ، رأس الطبقة الرابعة مات عام سبعة عشر ومائة ، احتج به أصحاب الصحاح .
(٥) الخبر رقم (٢٧٣٥) بتفسير الطبري ٤١٢/٣ مطبعة المعارف مصر .
(٦) اعتمده الامام البخاري ، وما قيل في ضعفه باطل ـ راجع بحث الشيخ احمد شاكر بتفسير الطبري ١٥٦/١ .
(٧) راجع تفسير الايتين ١٨٣ ، ١٨٤ من سورة البقرة بتفسير الطبري .

قبل الثلاثين يوما وبعدها يوما ، ثم لم يزل الآخر يستن سنة القرن الذي قبله حتى صارت الى خمسين ·· (١) » ··· وهو ما نشاهده ·

ثم تطور – فيهم – الى ألوان آخر مضى ذكرها تفصيلا ·

وبعد :

فلقد ألممنا بما أنزل الله في كتابه عن صيام رمضان بداية وغاية ، فاذا الصيام هو الفريضة التي تحددت في القرآن الكريم تحديدا تناول :

أ – بيان حكمها أولا في قوله تعالى :

يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ··· الآية :

أي فرض عليكم فرضا لازما كل مكلف ليس بذي عذر يجيز له الفطر ·

ب – تحديد مدتها الكلية في قوله تعالى :

« شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ··· الآية »·

فكان الصيام شهرا لا يزيد ولا ينقص ، وانما هو بتمام دورته سواء كانت ثلاثين يوما أو تسعة وعشرين ، وحرمت الشريعة صيام يوم الشك قبله ، وصيام يوم العيد بعده فصار في حرز أمين لا يتناوله عبث مدى الدهر ·

جـ – تحديد فترة الكف اليومي في قوله تعالى :

« وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام الى الليل » ·

---

(١) وعلى هذا الراي ايضا الامام الحسن بن ابي الحسن البصري وجمع من المفسرين كبير ·

فكان الكف من الفجر الى الليل ، وأوله غروب الشمس تلك حدود الله التي يبينها في آياته الكريمة ليكون المسلمون على رجاء تقوى الله ومغفرته ·

.. .. ..

هذه آيات تلك الفريضة صريحة البيان ، ولا نبالغ ـ أبدا ـ اذا قلنا : أن صيام رمضان هو الفريضة الوحيدة التي نزلت في كتاب الله العزيز بهذا التحديد والتفصيل الذي لا يدع مجالا لغموض ولا مظنة في ابهام فليس من الاسلام في شيء أن يمرق مارق فيمارس الصيام من طلوع الشمس الى غروبها ، ويدعي أن الصيام لو كانت بدايته مطلع الفجر لكانت نهايته مغيب الشفق الأحمر (١) ·

فكتاب الله يكذبه حيث البداية من الفجر صريحة فيه ، ولا دليل بين يديه على « بداية من مطلع الشمس » لا من كتاب ولا من سنة ، ولا من عمل الصدر الأول من السابقين بالايمان ·

وليس ذلك الا مروق من الدين وخروج على نصوصه لا اعتداد فيه بكتاب ولا سنة ولا اجماع ولا قياس ·

وما أشبه هذا المروق بأديان الباطنية التي انتسبت الى الاسلام زورا لتروج لفساد الدين بين المسلمين ، « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون »·

.. .. ..

(١) راجع اخبار هذه الفرقة الضالة ـ في هذا الصيام بتفسير الطبري في الاية الاخيرة من ايات صيام رمضان .

الصيام الخاص بالشئون الدينية والاجتماعية

لصيام رمضان ـ الذي تقدم الحديث فيه ـ سمات يختلف بها عما نعالجه من صيام في هذا الفصل والفصول التالية :

فصيام رمضان فرض عام ينتظم أمره كل مكلف من المسلمين، فهو لا يخص فردا دون آخر ، ولا جماعة دون جماعة ، انما هو « طاعة عامة » يمارسها المسلم أداء لفرض ، وليس هو « فرية خاصة » نشأت بسبب تعرض المسلم لأمر من الأمور وتلبسه به٠

ثم هو فريضة لا يستعاض عنها ولا يستبدل بها غيرها اذ لا معادل لها من قربات في بابها ، فهو لازم بنفسه مدى الدهر ٠

وليس كذلك الصيام في هذه الفصول ، فلا « عموم » فيه ، ولا « الزام » بذاته ، وهو يجب ـ اذا وجب ـ في ظرف خاص، وعندئذ يلزم معينا أو أكثر من المسلمين ، واذا أمكن تركه الى ما يعادله فلا حرج ، فان الصيام هنا له قسيم أو أكثر يؤدي ما يؤديه الصيام ، وقد يفضل عليه لأن الأمر هنا يدور في فلك « الكفارات » أو الشكر على « نعمة بذاتها (١) » ولهذا قام

---

(١) هي نعمة « التمتع » بالعمرة والحج . الباحث ..

على « التنويع » حتى يلتقي مع « تفاوت » الطاقة الانسانية فيجد المرء من اليسر فرصة يكلف فيها من العمل ما يطيق :

وان الله بالناس لرؤوف رحيم ·

وهذا الصيام يستوعب « شئونا دينية » تقع حيث وقعت ، والمسلم محرم بحج أو عمرة ، ويستوعب أخرى من « شئون اجتماعية » يتعرض لها المسلم ، وقد وضع الشارع لكل منهما أصواما نتابعها في الفصول التالية ·

في الشئون الدينية :

أ : صيــام التمتــع

اذا أراد المسلم حجا أو عمرة ، ونوى واحدا منهمــا ، أو نواهما جميعا ، صار « محرما » ، ويعني ذلك أنه تلبس بـ « فترة احرام » تستوعب الزمن الذي يؤدي فيه شعائر ما نوى من حج أو عمرة .

وهو يتجنب ـ في تلك الفترة ـ وجوبا : « كل شيء يتنعم به ، أو يزال به عن النفس أذى » .

سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما يلبس المحرم ؟ قال : « لا يلبس المحرم القميص ، ولا العمامة ، ولا البرنس ، ولا السراويل ، ولا ثوبا مسه ورس (١) ولا زعفران ، ولا الخفين الا ألا يجد نعلين فليقطعهما حتى يكونا أسفــل مــن الكعبين (٢) » اهـ . رواه الجماعة .

ولذلك يكتفى ـ في جانب الثياب ـ بقطعتين منها لستر

---

(١) الورس : نبات اصفر طيب الرائحة يصبغ به .
(٢) راجع للشوكاني ـ نيل الاوطار ٢/٥ طبعة اولى المطبعة العثمانيــة المصريــة ١٣٥٧هـ .

أسفله وأعلاه ، فأما المرأة فليس في ثيابها احرام خاص فهي ترتدي ما تشاء ، وينتعل المحرم من أنواع « الأحذية » ما كان غير ساتر لقدمه من نعال تكشف عن أجزائها ·

وأما ـ في التنعم ـ فليس له أثناء الاحرام أن يحلق شعره ، أو يقصره أو يتعطر ، كما عليه أن يتجنب النساء ·

وفترة الاحرام هذه من الناس من يطيلها اختيارا كل أشهر الحج : شوال وذي القعدة حتى نهاية أعمال حجه في شهر ذي الحجة ·

فأما الاحرام بعمرة فانه لا يستغرق من الزمن كثيرا ، اذ أعمال العمرة يمكن أداؤها جميعا في نصف نهار ، وهي لا تختص بزمن بعينه ، فأي أيام السنة صالح لأدائها ·

والناس في الاحرام ضروب :

أ ـ منهم من يحرم ـ في أشهر الحج ـ بحج فقط لا عمرة معه ، ويعرف في « اصطلاح » الفقهاء بـ « المفرد » ·

ب ـ ومنهم من يحرم ـ في أشهر الحج ـ بحج وعمرة معا يؤديهما في عمل واحد حيث يكفيه لهما طواف واحد وسعي واحد ، ويعرف في اصطلاح الفقهاء بـ « القارن » ·

ج ـ وثالث يحرم ـ في أشهر الحج ـ بعمرة فقط ، ثم يؤدي شعائرها ، ثم يحل منها بحلق الشعر أو تقصيره ، ثم يظل حلالا يتمتع بما حرم على غيره من طيب وزينة ونساء الى أن يحل الثامن أو التاسع من ذي الحجة ، أو قبل ذلك بقليل ـ حسب ما يريد ـ فيحرم بحج ، ويعرف في اصطلاح الفقهاء بـ « المتمتع » ·

ومنهم من يفرد ـ في أشهر الحج أو غيرها ـ عمرة فقط ·

وواضح أن « القارن » خف عنه بقرانه عمل عمرة وحدها بأداء مناسكها فلم يتكلف عبء عملين ٠

وأن « التمتع » حظي في الأشهر الحرم وفي الأرض الحرام بمتعة لم تتح لمفرد وأن كلا الرجلين أسقط عنه مشقة وخرج من ضيق الى سعة ٠

وكل قد أدى الواجب لم ينقصه شيئا ٠

والذين أحرموا مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في حجته الشهيرة في السنة العاشرة من الهجرة ــ وهي حجة الوداع ــ كان فيهم ــ ابتداء ــ من أفرد حجا ، ومن أفرد عمرة ، ومن قرن حجا بعمرة ٠

غير أن « التيسير » الذي يتوفر للقارن والمتمتع يقابله « تكليف » واجب ، يشير اليه قوله تعالى :

« فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة (١) » ٠

نصت الآية الكريمة على ما يجب في التمتع من هدى أو صيام ، والقرآن يشاركه في اسقاط المئونة والكلفة ، ولذلك قاس الفقهاء القارن على المتمتع وأوجبوا على الأول ما وجب على الآخر ٠

قال الصحابي الجليل عمران بن حصين ــ رضي الله عنه ــ : « نزلت آية المتعة في كتاب الله ، وفعلناها مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم لم ينزل قرآن يحرمها ، ولم ينه

---

(١) سورة البقرة الايــة ١٩٦ ٠

عنها حتى مات (١) » ·

وللفقهاء حجة في قياس القرآن على المتعة والزام القارن ما لزم المتمتع (٢) · ويذكرون ـ في ذلك ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن في حجة الوداع متمتعا قطعا ، وانما « أفرد » أو « قرن » وقد ساق هديا كما ذبح ـ عليه الصلاة والسلام ـ البقر عن نسائه ، وكن متمتعات ·

وخرج عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ الى مكة حاجا ، حتى اذا كان بالبيداء أهل بالحج والعمرة معا ـ أي نوى بقران ـ وقال: «ما شأن الحج والعمرة الا واحد (٣)» · ثم اشترى الهدي من قديد ، وعبد الله ـ رضي الله عنه ـ من أئمة الأمة ·

.. .. ..

والواجب على المتمتع والقارن هنا أحد أمرين ، يجب الثاني منهما اذا لم يتيسر الأول :

أ ـ الهدي ·
ب ـ الصيام ·

فأما الهدي فأيسره شاة أو ما شاء من النعم : الابل والبقر والغنم ، يذبحها أو ينحرها بمنى أو بمكة ، وان اختاره أكثر لحما وأسمن شحما كان مستجيبا لنداء الخير لأهل بلد غير ذي زرع · وأما الصيام فعشرة أيام تؤدى على فترتين :

---

(١) راجع للامام اسماعيل بن كثير القرشي ـ تفسير القرآن العظيم ٢٣٣/١
(٢) لا يخالف في هذا الحكم الا الامام داود الظاهري فلم ير على القارن شيئا.
(٣) يريد : ما شأن الحج والعمرة في العمل الا واحد « راجع صحيح البخاري » شرح القسطلاني ٢١٦/٣ المطبعة الاميرية ط : السابعة ١٣٢٣هـ .

الأولى : صيام ثلاثة أيام منها في أشهر الحج ، وما من شك في أن توزيعها على أشهر الحج الى جانب عدم وجوب التتابع فيها لا يجعل صيامها عسرا فليصم في أشهر الحج هذه الثلاثة في أي الأيام شاء غير يوم الأضحى واليومين بعده ، وعليه أن يتم صيامها قبل العودة لوطنه ٠

والثانية : سبعة أيام يصومها بعد أن يستقر بوطنه « وسبعة اذا رجعتم » قال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : « وسبعة اذا رجعتم الى أمصاركم (١) » أي بلدانكم ٠

وكما لا تتابع واجب في الثلاثة ، فالأمر كذلك في السبعة ، فان دين الله يسر ، ولا مكان لفهم خاطيء هنا يدعي : « أن الثلاثة اذا لم تتيسر بالحج تكون سبعة في الوطن ، فقد أرادها الله عشرة كاملة ، فقال ـ سبحانه ـ : « فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة » ٠

---

(١) راجع صحيح البخاري ـ شرح القسطلاني ١٣٦/٣ المطبعة الاميرية ط : السابعة ١٣٢٣هـ ٠

ب : صيــام الفديــة

تتسم عبادة الحج بالتقشف ، وتقدم أنه يجب على المحرم ـ فترة الاحرام ـ أن يتجنب كل شيء يتنعم به ، أو يزيل به عن النفس أذى .

كذلك تستوجب فترة الاحرام تجنب الرفث (١) والفسوق ومماراة الناس التي تسبب اثارة الغضب ومــا يستتبعه مــن خصومة وشجار وما لا تحمد عقباه ، قال تعالى : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج (٢) » .

فاذا حدث أن فعل المحرم شيئا مما حرم عليه ، ولم يكــن عملا يفسد حجه ، كأن يرتدي قميصا أو يتعطر ، أو يحلــق شعره ، وما الى ذلك مما لا يفسد الحج ، ولكنه محظور ، وجبت عليه فدية مخير فيها بين ثلاثة :

---

(١) الرفث بزنة قلم : « كلمة جامعة لما يريد الرجل من المراة في سبيــل الاستمتاع بها من غير كناية » اهـ المعجم الوسيط .
(٢) للحج مفسدات كالجماع او استدعاء اللذة العظمى ... الخ .

أ ــ صيام ثلاثة أيام ٠

ب ــ أو صدقة قوامها اطعام ستة مساكين لكل مسكين مدان من القوت الغالب بين أهل البلد الذي يخرج فيه تلك الصدقة ، فيملأ مجمع يدين متوسطتين بهذا الحب مرتين لكل مسكين (١) ٠

ج ــ أو نسك ، وهو ذبح شاة أو أعلى من الأنعام ٠

قال تعالى : « فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك (٢) » ٠

وفي عمرته ــ صلى الله عليه وسلم ــ في العام السادس كان من صحبه كعب بن عجرة بن أمية البلوي حليف الأنصار ــ رضوان الله عليه وعليهم ــ حلق رأسه ، فقال له ــ عليه الصلاة والسلام ــ : انسك شاة ، أو أطعم ستة مساكين ، أو صم ثلاثة أيام (٣) ، فنسك كعب بشاة ٠

والآية الكريمة بدأت بالأسهل فالأسهل في جانب الطاقة المادية للمرء وتولى الحديث الشريف بيان الأفضل فما عليه ، والأفضل ما عم خيره ٠

وجدير بالذكر بيان أن الفدية بأنواعها الثلاثة لا تختص بزمان أو مكان ، فيجوز للحاج أن يصوم بمكة أو ببلدته ٠ كذلك يجوز له أن يطعم أو يذبح حيث يريد وقت يشاء ٠

---

(١) سورة البقرة ــ الاية ١٩٦ .

(٢) انظر في مراجع الحادث :

أ ــ صحيح البخاري بشرح القسطلاني ٣/٢٨٧ ــ ٢٨٩ المطبعة الاميرية ط السابعة .

ب ــ صحيح مسلم بهامش صحيح البخاري المتقدم ٥/٢٣٣ ــ ٢٣٧ .

ج ــ تفسير الامام الطبري في شرح الاية ١٩٦ من سورة البقرة .

د ــ ابن كثير للاية .

هـ ــ حاشية الصاوي على شرح الامام الددير المسماة : « بلغة السالك لاقرب المسالك ١/٢٧٢ » .

(٣) يمكن استبدال ذلك باعداد غذاء وعشاء مساو للمدين لكل منهم .

ج : صيام الصيد

تتوسط مكة أرضا حراما مركزها الكعبة ، بيت الله العتيق ، وحرمه الآمن وتمتد تلك الأرض من كل جهة حول مكة شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، بينما تمثل مكة جزءا من هذه الأرض الحرام .

وهذه الأرض الحرام تشبه في الشكل « كمثراة » نائمة ، عنقها نحو الغرب ، وقاعدتها نحو الشرق ، لذا كانت أبعادها عن مكة ليست متساوية .

هذه الأرض حرمها الله ولم يحرمها الناس ، وفي الحديث الصحيح من رواية الامام مسلم : « ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة (١) » .

فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ، أو يجعل منها ميدان قتال ، فهي حرم آمن في نفسه أمان لأهليه .

---

(١) صحيح مسلم ـــ شرح النووي ١٢٣/٩ المطبعة المصرية .

ولحرمة هذه الأرض ظواهر :

أولها ـ تحريم القتال فوقها ، فلا تنطلق فيها نار ، ولا يرتفع فيها سلاح « فان أحد ترخص لقتال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقولوا له : ان الله أذن لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يأذن لكم ، وانما أذن لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، وليبلغ الشاهد الغائب (١) ·

وجاء في خطبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما فتح الله عليه مكة :

« ان الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، ألا وانها لم تحل لأحد كان قبلي ، وانما أحلت لي ساعة من نهار ، وانها لن تحل لأحد بعدي (٢) » ·

وظاهرة تحريم القتال هذه جعلت البقعة حرما آمنا للناس أجمعين ، ثانيها : تحريم اقتلاع نبات منها أو قطع شجر من ذلك النوع الذي ينبت بنفسه كالطرفاء (٣) والغيلان ، والبقل البري أخضر كان أو يابسا ··· الخ ·

ثالثها : تحريم صيد حيوان بري وحشي مما لا يستأنسه الناس ، ولا يستأنس بطبعه ، أو قتله فيها شريطة ألا يكون مؤذيا ، والا وجب التخلص منه حتى يظل للبقعة أمنها وسلامة ساكنيها (٤) · قال تعالى :

---

(١) صحيح البخاري ـ شرح القسطلاني ٣٠٥/٣ .
(٢) اخرجه البخاري ومسلم ـ راجع فتح الباري لابن حجر ٢٠٥/١ المطبعة السلفية ١٣٨٠ .
(٣) الطرفاء من فصيلة الاثل ـ بزنة انف ـ لكنه أدق منه عودا واقل صلابة ، وله شوك ، والغيلان شجر السمر .
(٤) ولذا وجب التخلص من أسد وفهد وصقر وباشق ، وزنبور ، ونسر وذئب ونمر ، والاصل في اباحة ذلك قوله : صلى الله عليه وسلم :

« يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم » المائدة ـ ٩٥ · وفي الظاهرتين الثانية والثالثة كان قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فلا ينفر صيدها ، ولا يختلي شجرها (١) » · فاذا كان ازعاج الصيد وتنحيته عن وضعه حراما فأولى صيده · ونجا من القنص والصيد ـ بحكم شرط عدم الأذى : الغـزال والأرنب البري والضفدعة والسلحفاة والضبع والثعلب والضب وحمام مكة والحرم ويمامهما ، والعصفور والهدهد ، وحمار الوحش وبقره ونعامه والفيل ··· الخ · وكما حرم التعرض له حرم التعرض لبيض ذي البيض منها ·

ولقد تكتسب هذه الحيوانات حصانة الحرمة خارج المنطقة الحرام بالنسبة لانسان محرم ، أحرم بحج أو عمرة مدة احرامه ، ومن هنا يعلم أنه : « يمنع بالاحرام كما يمنع بالحرم أذى هذا الحيوان وصيده » : فما صيد منه بالحرم ، أو صاده محرم خارج الحرم ، أو ذبحه محرم لغير محرم منها ، أو دله عليه ليصيده ، أو صاده حلال خارج الحرم ـ بنية اهدائه لمحرم فكل ذلك ميتة لا يحق أكله ·

وقد رد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عضوا من لحم صيد أهدي له ، وقال انا لا نأكله انا حرم (٢) ·

وجيء له ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ببيض النعام ، فقال : انا قوم حرم ، أطعموه أهل الحل (٣) ·

« خمس من الدواب يقتلهن في الحرم : الغراب ، الحداة ، العقرب ، والفارة والكلب العقور » اهـ وقيس ما تقدم عليه ، والحديث بصحيح البخاري في بيان ما يقتل المحرم من الدواب .

(١) راجع فتح الباري لابن حجر ٢٠٥/١ السلفية ١٣٨٠ .

(٢) الشوكاني ـ نيل الاوطار ٢٠/٥ من رواية الامام احمد ـ رضي الله عنـه .

(٣) نفس المرجع ١٨/٥ رواه احمد ومسلم وابو داود ـ رضي الله عنهم .

تلك أهم الظواهر التي فضلت بها تلك البقعة على غيرها ، ولو أبيحت حرمتها لاستوت بغيرها من البقاع ، فضاع فيها أمن الساكن ، وسلامة الوحش ـ والنبات وليست جريمة التعدي هنا متساوية بمثيلتها في مكان آخر ، انها ـ هنا ـ بعد الجريمة ـ تبديد لحرمة البقعة التي أكد الله حرمتها يوم خلق الكون ٠

وشاءت ارادة الله ألا يمهد سببا أو أسبابا تكفر خطيئة الحرب والقتال فيها فلا صوم ولا صدقة ولا قربة تطهر من هذا الاثم العظيم ، وما كان ذلك الا لعظم تلك الجريرة واستجلابها لغضب الله ومقته ٠

فأما النبات والشجر فننقل فيه الامام أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد قوله : « ٠٠٠ واختلفوا في نبات الحرم ، هل فيه جزاء أم لا ؟ » ٠

فقال مالك : لا جزاء فيه ، وانما فيه الاثم فقط للنهي الوارد في ذلك ٠

وقال الشافعي : فيه الجزاء : في الدوحة (١) بقرة ، وفيما دونها شاة ٠

وقال أبو حنيفة : « كل ما كان من غرس انسان فلا شيء فيه ، وكل ما كان نابتا بطبعه ففيه قيمة ٠٠ (٢) » ٠

وأما صيد الحيوان المحرم صيده ، أو قتله ، أو احداث أمر به يتلفه ففيه جزاء تقره « محكمة » وهو الذي ورد فيه « الصوم » ٠

---

(١) الدوحة : الشجرة العظيمة ٠

(٢) الامام الحافظ أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد القرطبي — بداية المجتهد ونهاية المقتصد ١/٣٠ مطبعة المشهد الحسيني ١٣٨٩ ٠

وتتكون هذه المحكمة من « عضوين مسلمين عادلين عالمين بقانون الجزاء في الصيد » ، وهو قانون يتمثل في أحد الالزامات التالية :

١ ـ شراء حيوان من الابل أو البقر أو الغنم مماثل في القدر والصورة ـ ان أمكن ـ أو القدر في الجملة لهذا الحيوان الممنوع صيده الذي أتلفه الجاني ثم يأتي الجاني بما اشتراه سليما الى منى أو مكة فيذبحه بأحدهما ، ثم يوزع في المساكين ٠

٢ ـ أو يقوّم الصيد التالف في يوم تلفه بالمكان الذي أتلفه فيه ـ يقوم بطعام ، فيقال ـ مثلا : هذا الصيد غزال قيمته هذا اليوم في هذا المكان اردب قمحا ، فيشتريه الجاني ، ويوزعه على مساكن المكان ذاته فيعطي كلا منهم مدا ، أي مقدار كفين متوسطتين مبسوطتين ٠

٣ ـ أو يصوم عن كل مد من هذه الأمداد يوما في أي مكان أو زمان يروقان له ، واذا انتهت الأمداد الى كسر صام عنه يوما كاملا ٠

والجاني مخير فيما يلتزم به من هذه الثلاث (١) ٠ وفي ذلك يقول تعالى :

« يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ٠ يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم

---

(١) جاء في لغة السالك للامام الدردير :
« والحاصل ان الصيد ان كان له مثل سواء كان مقررا عن الصحابة اولا فانه يخير فيه بين المثل والاطعام والصيام ، وما لا مثل له لصغره فقيمته طعاما أو عدله صياما على التخيير » اهـ .

به ذو أعدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام · أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذي اليه تحشرون (١) » ·

---

(١) سورة المائدة الايات ٩٤ ــ ٩٦ ·

في الشئون الاجتماعية :

مضى صيام المحرم بأنواعه الثلاثة ، ورأيناه صياما يعادله نسك أو اطعام ، وأسبابه تعود مباشرة الى شئون في «الاحرام» تتسم جميعا بأنها تخلو من التعدي على انسان ، أو الافساد لحياته ، أو الابتذال لشأنه ، فهذا الجانب من الشئون الاجتماعية لا وجود له فيها ، انما هو ذو شأن فيما نحوه في سبيلنا اليه من صيام .

وما من شك في أن هذه المشاكل الاجتماعية فيها ــ الى جانب التعدي على الشريعة وسماحتها ــ جناية على الانسان نفسه ، لذا استدعى هذا اللون « معادلا » آخر للصيام الى جانب بعض ما تقدم ، فلما كان هنا « جناية اجتماعية » كان المعادل «اصلاحا اجتماعيا» لذا كان « تحرير الرقيق » في هذه الجناية معادلا للصيام كفارة للخطيئة ، وبراءة من الذنب ، وازالة للمعصية .

وبذلك يتم اصلاح اجتماعي كريم مقابل فساد اجتماعي كبير ، وصلح للمذنب حاليه : الديني والاجتماعي معا .

وبذلك نقطع بأن تقرير الاسلام لنشر الحرية لا يحتاج ــ بعد ذلك ــ الى بيان ، لا سيما وهو يدفع الناس دفعا الى منح

الحرية للآخرين تقديرا لبشريتهم وتكريما لها كما كرمها الله، واستطاع المسلم أن يصلح حيث أفسد ، وأن يثمر حيث أقحل ، فأدى للبشر حقهم الى جانب حق الله ·

« ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون (١) » ·

ولهذا الجانب أصوام ثلاثة :

(١) سورة المائدة ــ الاية ٦ ·

أ ـ صيام القتل الخطأ

الاسلام في دولته صاحب حق وثيق في حماية الدولة من الداخل والخارج ، فالحاكم « بشريعته » يقاتل أعداء الدولة أين كانوا خارج حدودها أو في داخلها ، كما تقتضي سلامتها أيضا مقاتلة المنشقين على طاعتها في الداخل ما داموا يسعون لنقض نظام الاسلام واسقاط أمره .

ثم الاسلام بعد ـ بين رعاياه : حاكم عادل رشيد ، مسئول عن سلامتهم في العقيدة والخلق والحياة .

ولقد اقتضت سلامة العقيدة أن يحل تشريع الاسلام قتل من ثبتت زندقته (١) لأنه يلبس على الناس دينهم ، وقتل المرتد عن دينه ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم صريح في أمره « من بدل دينه فاقتلوه (٢) » ، ويحل قتل مانع الصلاة، والزكاة ، والجاحد لفرض فرضه الله ، ومن أحل حراما ، أو

---

(١) كلمة « زندقة » معربة عن الفارسية « زنديك » وهي في الفرنسية herésie وعربت الى هرطقة والمعنى في الجميع واحد وهو الكفر والالحاد .

(٢) صيح البخاري كتاب الديات .

حرم حلالا أو سب الله عز وجل أو أحد رسله الأكرمين أو ملائكته ، أو أنكر كتابا من كتبه المنزلة ٠

واقتضت سلامة الخلق حفظ الآداب العامة ، وللحاكم ـ في هذا الجانب ـ حق في سن التشريع الذي يكفل حمايتها ، فتردع المنحل وتصد الرقيع ، ولا يبالي الاسلام في هذا الجانب أن يرجم الزاني ، أو يجلد وينفيه ـ حسب وضعه ، وما كان دون ذلك من عقوبة لحماية الآداب متناسبة مع الجرم كفيلة بالعبرة ، قاضية على الجريرة ، يجيزها الاسلام ، ويرضى عنها ، ويأمر بها ٠

واقتضت سلامة الحياة ووفر الأمن للمواطنين تعقب قطاع الطرق ، والساحر ، والغائل (١) ، وقاتل النفس بغير حق ٠

تلك خلاصة موجزة أشد الايجاز تحيط علما بالخارجين على القانون في الاسلام الذين وضع لهم العقوبات لما لهم من خطر على المجتمع والجماعة ، قد يهز جانب العقيدة ، أو يهدر جانب الخلق ، أو يطيح بأمن الحياة ، فأما بعد هؤلاء فلا يحل دم امرىء أبدا ولا أدنى شيء منه لحاكم أو محكوم : ودمه وعرضه وماله وداره حرام ٠ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ٠

واذا كان ما تقدم من قتل هو المباح فشأن الأمة بعد ذلك ألا يقع فيها القتل الا خطأ ، قال تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله (٢) الا أن يصدقوا (٣) فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وان كان من قوم بينكم

---

(١) القاتل لاخذ المال .
(٢) لانهم الورثة .
(٣) يتبرعوا بردها وعن ابن كثير ان التعبير بالصدقة فيه حث على الرد .

وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما ـ ٩١ ـ النساء » ٠

والآية حدثت بحكم القتل الخطأ وموضوعه :

والقتل الخطأ : « قتل لا عمد فيه ولا اصرار ، ولا ترصد فيه ولا عدوان » ، وهو ـ مع ذلك ـ خطأ جسيم ، وجريرة تجني على كثير ، وعدل الله ورحمته وسعا هذه الخطيئة ، فشرعت رحمته للمذنب شرعة تمحو ذنبه وتهدم اثمه ، وشرع عدله للمجني عليهم شرعة تستل سحيمتهم وتطيب نفوسهم ٠

والقتلى الخطأ أنواع :

١ ـ مواطن في الدولة الاسلامية ، مسلما أو غير مسلم ٠

٢ ـ مقيم من رعايا دولة أجنبية بالوطن الاسلامي لشأن من الشئون التي تنظمها ارتباطات سياسية أو غير سياسية ، ولا فرق بين أن يكون هذا المقيم مسلما أو غير مسلم ٠

٣ ـ عدو لا يخفى علينا أمره ، صرح له بالدخول لشأن لم تعترض عليه الدولة ، وسمحت له السلطات بالدخول كأن يكون مندوبا لتبادل أسرى أو نحو ذلك ٠

٤ ـ مسلم من قوم كافرين ، وهم أعداء محاربون ٠

وشرعة الله ـ فيهم ـ أمران واجبان :

أ ـ دية تدفع للورثة من أهل القتيل الأول والثاني والثالث قدرها الشارع بالذهب والفضة والابل (١) ٠

---

(١) وحدة الذهب الدينار ، ووحدة الفضة الدرهم ، وكان وزن الدينار في عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم (٢٤٨ر٤) جرام قد تجبر فتصير (٢٥ر٤ج) وزنة الدرهم في عهده ـ صلوات الله وسلامه عليه (٨٣٢ر٢) جرام ، واعلى الدية ألف دينار ذهبا ، أو (١٢٠٠٠) درهم، ويمكن على ضوء ذلك معرفة القيمة في أي عصر ، اما الابل فمائة .

أما الرابع فقد انقطع باسلامه الميراث بينه وبين ذويه ، فلا دية له والمسلمون به أولى ٠

٢ ـ أ ـ عتق رقبة مؤمنة ، أي رد عبد الى الحرية ٠

ب ـ صيام شهرين متتابعين ان تعذر العتق ، أو انتفى الرقيق ـ كما هو الحال الآن ـ لذا تحتم ـ في أيامنا هذه ـ الدية والصيام ، وذلك لانتفاء بديله ٠

كذلك يتحتم الصيام وحده ـ لنفس السبب ـ في القتيل الأخير ٠ وبذلك تتم التوبة في القتل الخطأ ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠

فأما القتل العمد لمسلم فلا جزاء له الا أن يقتل القاتل بما قتل به ٠٠

وبذلك حكم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على يهودي رض رأس مسلمة بحجر فقتلها ، فأمر به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرض رأسه ٠٠

ولا عفو في العمد الا اذا ارتضى ولي دم القتيل ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين : اما أن يعقل واما أن يقاد أهل القتيل (١) » ٠

وفي القاتل عمدا يقول تعالى :

---

(١) المعنى : اما ان يعقل اهل القتيل ، اي يأخذون الدية ، واما ان يقادوا ، اي يأخذون بالقصاص ـ راجع لابن حجر ـ فتح الباري ٢٠٥/١ السلفية ١٣٨٠ .

« ومن قتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » .

ويقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما (١) » .

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الديات .

ب ـ صيـام الظهـار

من فضائل الاسلام وميزاته قضاؤه على كل أمر يخالـف « الواقع الكريم » ، ولذلك حرم التبني الذي كان بين العرب ـ قبل الاسلام ـ والذي بمقتضاه ينتسب الولد الى غير أبيـه فيحمل اسما ليس بينه وبينه سبب ، وينال به حقوقا ليس له منها شيء ، واذا كان الاسلام حرم « الانتساب » المنافي لواقع الأمور ، وقضى على ما يترتب عليه من باطل فهو لم يحـرم الجانب الانساني من هذا الموضوع فلم يمنع أن يقوم مستطيع بكفالة يتيم والاحسان اليه بالتربية والنفقة والتعليم حتى يبلغ قادرا على الكسب ، واعتبر الاسلام هـذا العمـل من أعظـم القربات .

ويماثل هذا « الانتساب » في منكر القول ، وتزوير الواقع أن يشبه الرجل زوجه باحدى محارمه قطعا لعلاقة الزوجيـة بينهما ودفعا لها واهدارا لحقها ، فيقول لها : « أنت علي كظهر أمي » وما كانت كذلك ولن تكون .

وفي مقدمة رائعة أسفرت عن بداهة واضحة كان تحريـم الأمرين ، ورد كل الى الواقع الأصيل ، فقال تعالى :

« ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل (١) » .

وما أكثر ما كان في الجاهلية من بلاء يقضى - لأتفه الأسباب - بطلاق المرأة في وقت فقدت فيه تشريعا قويا أمينا يصون حياتها ، ويؤمنها العثار ومن هذا البلاء « الظهار » الذي تقدم مثاله ، وكان من صيغ الطلاق في الجاهلية ، وقد قضى الاسلام عليه ، وكان السبب المباشر لهذه الحادثة أن خولة بنت ثعلبة بن مالك - رضي الله عنها - كانت زوجا لأوس بن الصامت ، وكان شيخا قد كبر ، وضاق خلقه ، فدخل عليها يوما وتحادثا في شأن فراجعته فيه فغضب وقال لها : أنت علي كظهر أمي .

وكان ذلك يعني الطلاق في أمر الجاهلية ، وما كان فيه تشريع اسلامي بعد ثم عاد اليها بعد ساعة يريد أن يقضي منها أمرا فأنكرت عليه ، وخلصت منه الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشكت اليه أمرها .

قالت : يا رسول الله ، أكل مالي ، وأفنى شبابي ، ونثرت له بطني (٢) ، حتى اذا كبرت سني ، وانقطع ولدي ظاهر مني . اللهم اني أشكو اليك .

قالت عائشة - أم المؤمنين - رضي الله عنها ، وكانت بركن في البيت :

تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء ، اني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه ، وهي تشتكي زوجها الى رسول

---

(١) الاحزاب - الاية ٤.
(٢) اي انجبت له الولد .

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما برحت حتى نزل جبريل بقوله تعالى :

« قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير • الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ان أمهاتهم الا اللائي ولدنهم وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا وان الله لعفو غفور • والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير • فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم (١) » •

وبهذا التنزيل الكريم لم يعد الظهار طلاقا ، وانما هو « اثم »يتحمله فاعله وحده ، لذا كانت عقوبته على الرجل ، وعليه أن يسعى لتكفير ذنبه ، ورفع الاثم عنه بأحد الأمور التي تحدثت عنها الآيات :

وقد بين التشريع ـ في الآيات ـ سبيل تكفيره بأحد أمور ثلاثة على الترتيب :

أولا : عتق رقبة مؤمنة •

ثانيا : صيام شهرين متتابعين ان لم يستطع عتقا •

ثالثا : اطعام ستين مسكينا باعطاء كل منهم مدين اذا لم يستطع الصوم •

وواضح أن الأمر الآن وقف على الصيام أو الاطعام لما سبق أن وضحناه • فاذا كفر عن اثمه فقد انتهى أمر الظهار فيعود الى ما حرمه على نفسه •

---

(١) المجادلة الايات ١ ـ ٤ ، انظر لابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم في الايات .

ج ـ صيـام اليمـين

تتوزع اليمين في الاسلام الى :

١ ـ يمين دولة ، وهي يمين :

أ ـ يؤديها الفرد نحو رئيس الدولة ٠

ب ـ أو عهد يؤديه هذا الرئيس أو كبار موظفيه لدولة أخرى ٠

وتعرف الأولى ، أعني يمين الفرد ، عند الفقهاء بالمبايعة ، والثانية « العهد » أو « المعاهدة » أو « الاتفاقية » ـ كما تشير اليها مصطلحات حديثة ـ وتتناول شئونا مختلفة في السياسة أو الاقتصاد أو الثقافة ٠٠ الخ ٠

٢ ـ يمين فرد ، وهي يمين لا علاقة لها بالدولة وشئـون الحكم ، وانما تتصل اتصالا وثيقا مباشرا بالفرد في شئونـه الاجتماعية ٠

فأما الأولى فيجب الوفاء بها ، وبخاصة في جانب العهـود والاتفاقيات مهما بلغت شروطها ما دام أن الجانب الاسلامـي وقعها راضيا ، وحسبنا هنا شاهدا « صلح الحديبية » فكم كان

فيه من شرط اعتبره بعض المسلمين مجحفا لكن المسلمين التزموا الوفاء به حتى غدر الطرف الآخر .

وان أمر الله ـ في شأن هذه العهود ـ واضح لا يحتاج الى تأويل ، قال تعالى : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون (١) » .

وقال جل وعلا : « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا (٢) بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم (٣) » .

والواقع أن هذه العهود تعتبر صورا من « وفاء الاسلام » نفسه ، وتصويرا واقعيا لمثله ، وجانبا ضخما بعيد الأثر في الدعوة له .

والاسلام دين قبل كل شيء لا يبغي مجدا حربيا ، ولا يطلب كسبا ماديا ، فمن اتخذ هذه المواثيق غرضا للخيانة ، وسعى في نقضها لمطمع شخصي فقد برىء من الله وبرأ الله منه ، فقد أساء الى الدين ، وهز من قيمه في نفوس الناس وقد يزلزل بفعلته أقداما دخلت في الاسلام ، وأعان على النفاق ، وهذا ما تشير اليه الآيتان المتقدمتان ، ولذا يقول تعالى :

« ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (٤) » .

---

(١) سورة النحل الاية ٩١ .
(٢) الدخل ـ بزنة قلم : الخديعة والمكر .
(٣) سورة النحل الاية ٩٤ .
(٤) سورة ال عمران ـ الاية ٧٧ .

فاذا وقعت خيانة فينبغي أن يكون صاحبها الطرف المقابل للمسلمين ، وعندئذ يجب نقض العهد فورا ، قال تعالى :

« وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون (١) » ·

·· ·· ··

ومبايعة المسلم رئيس الدولة هي ـ بدورها ـ عهد ويمين يحرم نقضه ما لم يأمر بمعصية ، فان أمر بمعصية فلا بيعة له في عنق الناس ، اذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ·

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، الا أن يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة (٢) » ·

يقول الصديق أبو بكر في خطبة الخلافة ، بعد أن بايعه الناس : « أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لي عليكم » ·

وقال عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ : « فيما بايع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ··· وألا تنازع الأمر أهله الا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان » ·

ومن غريب المفارقات في هذا الشأن ما حدث من عبد الله ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثناء خلافة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان حينما اشتدت أزمة ابن الزبير ، لقد كان معاوية رضي الله عنه يعد عبد الله بن عمر أحد ثلاثة

---

(١) « التوبة » ـ ١٢ ·
(٢) صحيح البخاري ـ باب الفتن ·

يجب على يزيد بن معاوية أن يحذرهم ، ويحترس منهم ، وقال لابنه يزيد : لست أخاف عليك الا ثلاثة : الحسين بن علـــي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، أما الحسين فأرجو أن يكفيكه الله ، وأما ابن الزبير فانه خب ضب فان ظفرت به فاقطعه اربا اربا ، وأما ابن عمر فانه رجل قد وقذه الورع فخل بينه وبين آخرته يخل بينك وبين دنياك .

وتولى يزيد الخلافة وبايعه عبـــد الله بن عمر رضي الله عنهما ثم حدثت الفتنة ضد يزيد حتى خلع معظم أهل المدينة يزيد وأعلنوا سقوطه ، فأما ابن عمر فقد جمع أهل بيته مخالفا رأي أهل المدينة وخطب في أهله قائلا : « اني سمعت النبـــي صلى الله عليه وسلم يقول : ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة، وانا قد بايعنا هذا الرجل ـ يقصـــد يزيد ـ على بيـــع الله ورسوله واني لا أعلم عذرا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال ، واني لا أعلم أحدا منكـــم خلعه ، ولا بايع في هذا الأمر الا كانت الفيصل بيني وبينه » ، وكان هذا الموقف من ابن عمر أحد الاسباب القوية التي صرفت كثيرا من الناس عن ابن الزبير ـ رضي الله عنهم ـ .

وأما الأخيرة ، يمين الفرد ، فهي التي تصدر من المرء نتيجة تقلبه في شئون حياته وعلاقاته المختلفة بالناس : أهله ، وجاره ، وصديقه ، وبائعه ومبتاعه وغير هؤلاء ممن تدعوه الحياة اليهم ـ وتلك اليمين أقسام :

أ ـ يمين كاذبة :

يحلف فيها على الأمر وهو يعلم أن الحق خلافه ، ولا كفارة لها الا التوبة النصوح ، والا غمستـــه في النـــار ، وان اليمين

الغموس تذر الديار بلا قع (١) .

ب ــ يمين لغو :

وتكون فيما يجري على اللسان غلبة أو سهوا ، وليس معها تصميم نفسي على فعل شيء أو تركه ، ولا كفارة فيها (٢) ، وان كان ينبغي صيانة أسماء المولى ــ عز وجل ــ عن اللغو ، وفيها يقول تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم (٣) » .

وكانت أم المؤمنين عائشة ــ رضي الله عنها ــ ترى اللغو : « الشيء الذي يحلف عليه الانسان لا يريد منه الا الصدق فيكون الواقع خلاف ذلك (٤) » .

وقريب من ذلك قول الامام مالك فيها : « أحسن ما سمعت في هذا أن اللغو حلف الانسان على الشيء يستيقن أنه كذلك ، ثم يوجد على غير ذلك ، فهو اللغو (٥) » .

ج ــ اليمين المنعقدة :

وتصدر عن صاحبها مصحوبة بنية وقصد وتصميم نفسي بالتزام أمر ايجابا أو سلبا :

كأن يقسم فيقول : والله لأشترين هذا الكتاب .

أو : بالله لن أسافر في يومي .

ثم لا يلتزم مقتضي يمينه فلا هو يشتري الكتاب ، ولا هو يقيم ببلدته ، أي يخالف ما أقسم عليه ، فيترك ما أقسم على فعله ، ويفعل ما أقسم على تركه .

---

(١) خــراب .
(٢) يرى فيها للية كفارة ان تعلقت بأمر مستقبل .
(٣) سورة البقرة الاية ٢٢٥ ــ والمائدة الاية ١٨٩ .
(٤) راجع تفسير ابن كثير ٢٦٧/١ .
(٥) الامام مالك ــ الموطأ ٤٤٧/٢ دار احياء الكتب العربية .

وتلك اليمين ـ اليمين المنعقدة ـ هي التي فرض الله لنا فيها « التحلة » من اثمها ، وذلك بكفارة جعلها سبحانه أنواعا يجمعها قسمان :

القسم الأول فيه الخيار وأمره ثلاثة :

١ ـ اطعام عشرة مساكين من المسلمين ليسوا ممن يجب على صاحب اليمين الانفاق عليهم ، فيعطي كل واحد منهم مدا ، أو يعطي كلا منهم خبزا لا يقل وزنه عن ٨١٦ ج ستة عشر وثمانمائة جرام ، وهو ما يساوي زنة رطلين بالرطل المعروف عند الفقهاء بالرطل البغدادي ، ويستحسن أن يكون مع الخبز ما يؤتدم به .

٢ ـ كسوة عشرة مساكين من المسلمين .

٣ ـ تحرير رقبة مؤمنة .

يختار من أي الثلاثة ما شاء ، فان عجز عنها وجب عليه القسم الثاني وهو :

صيام ثلاثة أيام لا يجب فيها التتابع ، بل يصومها متى أراد مجتمعة أو متفرقة ، قال تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون (١) » .

---

(١) سورة المائدة الاية ١٨٩ .

صيام النذر

والنذر ـ عامة : الزام من الشخص لنفسه بشيء وهو ـ فيما نحن بصدده : الزام الشخص لنفسه بطاعة ٠

وليس في الشريعة ندب اليه ، ولا أمر به ، ولا تحريم له ، ومن يسبر غور هذه الشريعة لا يسعه الا أن يقرر كراهة النذر لما فيه من شبه اشتراط على الله ، غير أنه لا محيد للانسان عن أداء ما ألزم به نفسه في هذا الباب ما دام طاعة لقوله ـ تعالى ـ : « وليوفوا نذورهم (١) » ٠

ومن هنا كان أداء النذر واجبا سواء كان المنذور حجا أو صياما أو صلاة ٠٠٠ الخ ٠

فأما ان نذر معصية فيحرم عليه اتيانها ٠ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه (٢) » ٠

وخير للانسان ـ ان كان لا محالة فاعل ـ أن يتبصر صيامه

(١) سورة الحج الاية ٢٩ .
(٢) الامام مالك ــ الموطأ ٤٧٦/٢ .

الذي نذره حتى لا يتورط في غير مخرج ، ويقع فيما لا يتم فيه أداء ولا قضاء ، فقد حدث أن رجلا سأل عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - فقال : نذرت أن أصوم كل يوم ثلاثاء أو أربعاء ما عشت ، فوافقت هذا اليوم يوم النحر ؟

فقال له ابن عمر : أمر الله بوفاء النذر ونهينا أن نصوم يوم النحر ·· فأعاد عليه ، فقال مثله لا يزيد عليه (١) ·

وكان ابن عمر يستنكر النذر ويقول : أولم ينهوا عن النذر ، ان النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : ان النذر لا يقدم شيئا ولا يؤخر (٢) ·

---

(١) أي اعاد له نفس الاجابة ، راجع صحيح البخاري - باب الايمان والنذور .
(٢) صحيح البخاري ٢٥٧/٨ ط المنيرية .

صيـــام التطـــوع

وهو قربة لله صادرة عن رغبة ، فلا الزام فيه ، والمتطوع به أمير نفسه ان شاء صام ، وان شاء أفطر ٠

ولرغبة الانسان رعاية كبيرة من الدين ، والتشريع الحكيم يحفظ على الانسان رغبته ، ولا يبخسه انفعال نفسه الطيب ولا يحقره ، لذلك زكى الدين كل رغبة طيبة ، ورعاها رعاية رشيدة ، ومهد لها في النفس تربة صالحة ليزكو نبتها ويثمر عوده ، فينتفع الانسان بجناه الطيب ٠

وان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ٠

وانما يرحب الاسلام بالرغبة شريطة أن تكون طيبة نبيلة : ولكي تطيب الرغبة ينبغي ألا تكون آفة مهلكة ، ولا عبئا ثقيلا ينمو خلاله الضيق ويفسده الملل ٠

ولكي تكون الرغبة نبيلة ينبغي أن تكون منصفة تحفظ حق الآخرين ٠

لذلك كله يرفض الدين رغبة ضارة كما يرفض الرغبة الحرام ، فأما الطيبة النبيلة فهي التي يتعهدها التشريع ليحفظ حماسها من الآفة والملل بترويض أمين ٠

لذلك قضى الشرع الحنيف بكراهة الصيام الأبدي ، فلا فضل لعبادة يهددها الملل ، وينزوي فيها الكمال لما يتخللها من اضطراب النفس ، ويرشد لذلك قول المصطفى الأمين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كما يحب ويرضى : « خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فان الله لا يمل حتى تملوا (١) » .

وكرر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نصح عبد الله بن عمرو بن العاص ليخفف من صيامه الدائم ، وخيره بين أنواع منه ، ولكنه أدرك النصح بعد فوات الأوان ، فقد شاخ ، وهو يلتزم صياما مرهقا ، فكان يقول : « يا ليتني قبلت رخصة رسول الله (٢) » .

وليس من حسن الرغبة أن تقضي على حق أحد الزوجين ، فاذا كان من حق الزوج أن يمنع زوجه من صيام تطوع ينال من حقه ، فعليه أيضا ألا ينصرف الى التزام عبادة غير واجبة تنال من حقها ، ولذا قال سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ لأبي الدرداء : « ان لربك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه » ، وحين سمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قول سلمان ، قال : « صدق سلمان (٣) » .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد (٤) الا باذنه (٥) » .

.. .. ..

---

(١) صحيح البخاري ـ باب الصيام .
(٢) صحيح البخاري ـ باب الصيام .
(٣) صحيح البخاري ـ باب الصيام .
(٤) اي مقيم غير مسافر .
(٥) الامام النووي ـ رياض الصالحين ص ٥٦٩ طبع عبد الرحمن محمد .

كذلك نهى الشارع الحكيم عن « الوصال في الصوم بلا افطار ولا سحور » • وروى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ذلك عن ربه ـ سبحانه وتعالى ـ : « أحب عبادي الي أعجلهم فطرا (١) » •

وقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « تسحروا فان في السحور بركة (٢) » •

وهكذا قضى الشارع بحفظ النفس ، وحفظ الحق لتصعد الطاعة الى ربها غير محفوفة بالمكاره • وفي هذا الاطار كانت تشريعات التطوع بالصيام :

فمنع ابتداء :

أ ـ صيام يومي العيدين : أول شوال ، وعاشر ذي الحجة ، ذلك أنهما يوما عيد ، والناس فيهما ضيوف على الله ، ولا يجدر بالكريم ـ اذا استضيف ـ أن يقبل على الداعي صائما •

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : « هذان يومان نهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن صيامهما : يوم فطركم من صيامكم ، واليوم الآخر تأكلون فيه من نسككم (٣) »•

ب ـ ومنع صيام يوم الشك : وهو اليوم الذي يتردد فيه الناس فلا يقطعون فيه بواقع : أهو من شعبان أم من رمضان • قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من صام يوم الشك فقد عصى أبا القاسم (٤) » •

•• •• ••

(١) نفس المرجع ص ٤١٨ .
(٢) صحيح البخاري ـ باب الصيام .
(٣) صحيح البخاري ـ باب الصيام .
(٤) صحيح البخاري ـ باب الصيام .

وكره صيام أيام :

أ ـ فكره ـ لغير مضطر ـ صيام الحادي عشر والثاني عشر، والثالث عشر من ذي الحجة ، وهي الأيام المعروفة بأيام منى ، فأما من اضطر الى صيامها كمتمتع جاز له ذلك ٠

قال عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ : « الصيام ـ لمن تمتع بالعمرة الى الحج ـ الى يوم عرفة ، فان لم يجد هديا ، ولم يصم ـ صام أيام منى (١) » ٠

ب ـ وكره اختصاص يوم الجمعة بصوم ، فأما ان صيم معه يوم قبله ، أو يوم بعده فلا كراهة مطلقا ٠

روت جويرية بنت الحارث أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة ، فقال : أصمت أمس ؟

قالت : لا ٠
قال : تريدين أن تصومين (٢) غدا ؟
قالت : لا ٠
قال : فأفطري (٣) » ٠
فتلك أيام سبعة تعلقت بها الحرمة والكراهة ٠

.. .. ..

ثم حببت الشريعة صيام :
أ ـ الاثنين والخميس من كل أسبوع :

---

(١) صحيح البخاري ـ باب الصيام ٠
(٢) كذا بدون اعمال (ان) ٠
(٣) صحيح البخاري ـ باب الصيام ٠

كان ــ صلى الله عليه وسلم ــ يصومهما ، ويقول : « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس ، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم (١) » ·

ب ــ ثلاثة أيام من كل شهر قمري :
ترجم لها الامام البخاري بقوله : « صيام أيام البيض : ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة (٢) » وهي أيام اكتمال البدر ·

قال قتادة بن ملحان الصحابي الجليل ــ رضي الله عنه ــ : « كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يأمرنا (٣) بصيام أيام البيض : ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة » ·

وقال عبد الله بن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : « كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لا يفطر أيام البيض في حضر ولا سفر (٤) » ·

ج ــ يصوم ما شاء من المحرم ، دون رهق أو ملل :
قال سيدنا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أفضل الصيام ــ بعد رمضان ــ شهر الله المحرم (٥) » · ويتأكد منه عاشوراء :

د ــ صيام العاشر من يوم قبله ، أو يوم بعده ، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « صوموا يوم عاشوراء ، وخالفوا اليهود ، صوموا يوما قبله أو يوما بعده (٦) » ·

---

(١) الامام النووي ــ رياض الصالحين ص ٢٩٩ .
(٢) صحيح البخاري ــ باب الصيام .
(٣) اي ندبا لا فريضة .
(٤) الامام النووي ــ رياض الصالحين ص ٤٢٣ .
(٥) الامام النووي ــ رياض الصالحين ص ٤٢٠ .
(٦) راجع لابن حجر ــ فتح الباري ١٧٥/٤ المطبعة الخيرية .

وقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « يكفر السنة الماضية (١) » ·

هـ ـ يصوم ما شاء من شعبان :

قالت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ : « لم يكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصوم من شهر أكثر من شعبان فانه كان يصوم شعبان كله » ·

وفي حديث آخر قالت : « كان يصوم شعبان الا قليلا (٢) » ·

و ـ ستة أيام من شوال :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من صام رمضان ثم أتبعه ستا من شوال كان كصيام الدهر (٣) » ·

ز ـ الأيام الثمانية الأولى من ذي الحجة ·

ح ـ ويتأكد صيام التاسع منها لغير حاج :

فقد رغب ـ صلى الله عليه وسلم ـ في العمل الصالح فيها ، وقال : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحب الى الله من هذه الأيام (٤) » · وسئل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عن صيام يوم عرفة · فقال : « يكفر السنة الماضية والباقية (٥) » ·

ط ـ يصوم من أي شهر ـ غير ما تقدم ـ ما شاء ، دون أن يسرد صومه أبدا :

قال أنس ـ رضي الله عنه ـ : « كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفطر من الشهر حتى نظن ألا يصوم منه ،

---

(١) الامام النووي ـ رياض الصالحين ص ٤٢١ ·
(٢) نفس المرجع ص ٤٢٠ ·
(٣) نفس المرجع ص ٤٢١ ·
(٤) الامام النووي ـ رياض الصالحين ص ٤٢١ ·
(٥) الامام النووي ـ رياض الصالحين ص ٤٢١ ·

ويصوم حتى نظن ألا يفطر منه شيئا (١) » • فان شاء أكثر مما تقدم •

ي ـ يصوم صيام نبي الله داود ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ ولا يزيد عليه ، ولا ينذره •

كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يصوم يوما ويفطر يوما، وهذا هو الصيام القمة في الرغبة ينبغي ألا يزاد عليه •

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « لا صوم فوق صوم داود ـ عليه السلام ـ : شطر الدهر ، صم يوما وأفطر يوما (٢) » •

فأما من زاد على ذلك فقد أساء وتعدى وظلم ، وتقدم الى ربه بطاعة محفوفة بالمكـاره ، فلنرغب في هـدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا نرغب عنه ، ولنكلف من العمل ما نطيق ، فقليل دائم خير من كثير منقطع ، وانما يتقبل الله من المتقين ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من صام يوما ـ في سبيل الله ـ بعد الله وجهه عن النار سبعين خريفا (٣) » •

---

(١) صحيح البخاري ـ باب الصيام .
(٢) صحيح البخاري ـ باب الصيام .
(٣) صحيح البخاري ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب فضل من يصوم في سبيل الله .

الاسلام والصمت

قال ابن قدامة الحنبلي : « ليس من شريعة الاسلام الصمت عن الكلام ، وظاهر الأخبار تحريمه (١) » .

فليس ـ في الاسلام ـ الصوم عن الكلام ، يوما أو أكثر ، لقد أبطل الاسلام هذه الشعيرة ، وأغلق الذريعة الى ما ينجم عنها ، فلم تعد بنظامها هذا قربة في الاسلام ، وليس كل ما كان قربة في شريعة يكون قربة في غيرها .

وقد سبق أن بينا أحوال الصمت في بني اسرائيل ، وهناك وجدناه :

أ ـ صمت شعيرة وعبادة يمارسها المتعبد يوما أو أكثر يمتنع فيه ـ برغبته ـ عن الكلام فلا يخاطب أحدا .

وقد عرف هذا اللون في لغة العرب بـ « الضرس » و « الصيام » .

---

(١) راجع للعلامة محمد علي بن محمد الصديقي ـ دليل الفالحين على رياض الصالحين للامام النووي ـ ٨/٢٨٠ ـ مطبعة حجازي ـ القاهرة.

ب ـ آية الصمت ، وهي آية يجريها الله على من يشاء من عباده ، فيبكم ـ لغير علة ـ زمنا ما .

ج ـ والصمت ، من حيث هو سلوك اجتماعي ، بعيد عن التقيد بيوم أو أكثر ، غير ملتزم فيه بعدم مخاطبة أحد ، ولا صادرا عن عجز ، بل هو ممارسة ضبط اللسان عن اللغو ، وزلل الكلمة ، والخوض في أعراض الناس ، وما الى ذلك مما يجلب السيئة والسخط ، بينما يتخلله الكلام فيما عدا ذلك .

وليس للأول والثاني ورود في الاسلام :

فأما الأول فقد كافحه الاسلام حتى قضى عليه ، فلما كان عهد أبي بكر انتهى من صفوف المسلمين ، وقد بدأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنهي عنه .

١ ـ فبينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطب يوم الجمعة ـ وهو على منبره ـ رأى رجلا ، هو « أبو اسرائيل يسير (١) الأنصاري » قائما ، والناس جميعا جلوس ، فسأل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن سبب قيامه ، فأجيب : « هذا أبو اسرائيل نذر أن يقوم في الشمس فلا يقعد ، ولا يستظل ولا يتكلم ، ويصوم » .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « مروه فليتكلم ، وليقعد ، وليستظل ، وليتم صومه » .

فأبطل ـ عليه ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم منذوراته التي لم يشرعها الاسلام جميعا الا الصوم الوارد بشريعته ، فقد أقره عليه وحمله على ترك ما عداه (٢) .

---

(١) يسير ، بالتصغير ، بضم الاول وفتح الثاني .

(٢) العلامة الصديقي ـ دليل الفالحين ، راجع الصفحات : ٢٧٨ ـ ٢٨٠ وانظر ص ٢٧١ من الجزء الثامن .

٢ ـ وروي عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه وكرم وجهه ـ أنه قال : « حفظت عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا يتم بعد احتلام ، ولا صمات يوم الى الليل » ٠

٣ ـ وما بقي من أثر بعد ذلك فقد حمل عليه الصديق أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ قال قيس بن أبي حازم ـ رضي الله عنه ـ : « دخل أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ على امرأة من « أحمس » يقال لها : زينب ، فرآها لا تتكلم ، فقال : ما لها لا تتكلم ؟ فقالوا : حجت مصمتة ٠ فقال لها : تكلمي ، فان هذا لا يحل ، هذا من عمل الجاهلية ٠ فتكلمت (١) » ٠

٤ ـ وجاهد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في ازالته ، فقد حضرت عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ واقعة حال من هذا القبيل فنهى عنه ، وذلك اذ حضره رجلان ، سلم عليه أحدهما ولم يسلم الآخر فقال : ما شأنك ؟ قال صاحبه : حلف ألا يكلم الناس اليوم ٠ فقال ابن مسعود : كلم الناس وسلم عليهم (٢) » ٠

.. .. ..

وأما الثاني : صمت الآية فما حدث لنبينا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فما حبس نطقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا كان الصمت مما جرى عليه معجزة ٠

.. .. ..

فأما الصمت من حيث هو ضرب من « السلوك الاجتماعي » يحفظ الانسان من الزلل والخطيئة ، والحديث فيما لا يفيد ،

---

(١) نفس المرجـــع .
(٢) راجع للامام ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ١١٨/٣ دار احياء الكتب بمصر سنـــة ١٣٧١هـ .

فهو مما يحرص الاسلام على نشره ، والدعوة اليه ، والترغيب فيه ، ابقاء على المحبة بين الناس وذودا عن أعراضهم ، وحرصا على نشر الكلمة الطيبة بينهم ، فهو من الآداب العامة النبيلة ، ودين فطري ـ كدين الاسلام ـ يستجيب أصالة لكل ما هـو نبيل كريم ، ومن هنا حرص الاسلام على هـذا اللون مـن الصمت • قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت (١) » ، وحفظ اللسان عن الخوض في الناس يقطع نصف الطريـق الى الجنة • قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من يضمن لي ما بين لحييه ، وما بين رجليه أضمن له الجنة (٢) » •

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه (٣) » ، أي مـا لا يهمـه ولا فائـدة له أو للمسلمين فيه •

وأثر عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قوله : « من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه (٤) » •

قال الامام النووي ـ رضي الله عنه ـ : « انه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام الا كلاما ظهرت فيـه المصلحة ، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الامساك عنه ، لأنه قد ينجر الكلام المباح الى حرام أو مكروه (٥) » •

---

(١) صحيح البخاري ـ باب اكرام الضيف .
(٢) الامام النووي ـ رياض الصالحين ـ باب تحريـم الغيبة والامر بحفظ اللسـان .
(٣) حديث حسن رواه الترمذي ، راجع للامام النووي ـ الاربعين النووية ـ الحديث الثاني عشر ـ دار الطباعة اليوسفية .
(٤) اسامة بن منقذ ـ لباب الاداب ص ١٧ ـ المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٧٤ .
(٥) الامام النووي ـ رياض الصالحين . باب تحريم الغيبة والامر بحفظ اللسـان .

الاسلام واللحم

في الاسلام تحريم لأشياء عدة ، ومحرمات الاسلام جميعا ـ فيما عدا الميتة والخمر والدم المسفوح ولحم الخنزير ـ لا يتناولها تحريم مطلق ، وانما تناول التحريم منها ما لحقته صفة خاصة في بعض أفراده ، فيحرم تناوله بسبب هذا الظرف الخاص ٠

واذا كان « للصمت » تشريع فيما مضى من أديان سماوية ، فان اللحم ـ في هذه الأديان جميعا ، بما في ذلك الاسلام نفسه ـ لم يشرع فيه صيام خاص بالكف عنه ، أو عن المنتجات الحيوانية مما حل أكله ، فترة من الزمن ، قلت أو كثرت ، وقد مضى تفصيل القول في ذلك عند الحديث عن الديانة الموسوية ٠

وحسبنا ـ في الاسلام ـ أن نعيش مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الحوادث :

أخبر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ « أن رجلا أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله ، اني ـ اذا أكلت من هذا اللحم ـ انتشرت للنساء ، واني حرمت علي اللحم ، فنزل قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين (١) » • ذلك أن الله ـ وحده ـ صاحب التشريع وقد عاب سبحانه ولام وسخر ممن فعل ذلك قال تعالى :

« قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون (٢) » •

ولم يقف الأمر عند اللحم ، وانما تعداه الى قضية شاملة صدر فيها حكم نهائي رصين وكانت القضية هي : « تشريع الانسان لنفسه : هل يجوز للانسان أن يتقرب الى ربه بحل هذا وتحريم ذاك ، أو باختراع عبادة من عنده ؟ » •

وكان الجواب : « لا » فان مثل هذا التشريع اعتداء على الله والاعتداء على الله حرب له وكفر به وانه لمن المروق في الاسلام أن يستحل انسان عملا كهذا •

ولقد وقف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصد البدعة عندما ظهرت في المسلمين ـ عن حسن نية ـ وقضى بذلك على ريح البرهمية أن تطن في سماء الاسلام وتمطر المسلمين بمبتدعاتها ومنع صحابته من محاولاتهم وردهم عنها في حسم قائلا : « •• من رغب عن سنتي فليس مني •• وكانوا نحو عشرة :

فمنهم من حرم على نفسه اللحم ، مع الصيام نهارا •
ومنهم من حرم على نفسه النوم حتى يتفرغ ليلا لعبادة ربه •
ومنهم من حرم على نفسه النساء •

---

(١) راجع بموسعات التفسير الاية ٨٧ من سورة المائدة .
(٢) سورة يونس الايـــة ٥٩ .

وأراد بعضهم أن يجب نفسه ·
ورأى بعضهم أن يرتدي المسوح » ·
وكان من هؤلاء العشرة : سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما ، وعثمان بن مظعون ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، والمقداد بن الأسود وقال بعضهم لبعض : ما حقنا ان لم نحدث عملا ، فان النصارى قد حرموا على أنفسهم ، فنحن نحرم وقالوا : نقطع مذاكيرنا ، ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان ثم تبتلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وهموا أن يختصوا ، فبلغ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرهم فأرسل اليهم فجمعهم فذكر لهم ما بلغه عنهم فقالوا : نعم فقال عليه الصلاة والسلام : لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأنام وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو مني ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني ، ونزلت الآية الكريمة : « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين (١) » ·

ولرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتقى الناس وأخشاهم لربه وأكملهم له عبادة ·

هكذا تعلم المسلمون أن يقفوا عند حدود كتابهم ، ولا يتخطوا أوامره فيشرعون ، فالدين كامل ولا يحتاج بعد الى استكمال ، ومن فعل من ذلك شيئا فحسابه على نفسه ·

وليس معنى هذا أن يرتمي المسلم في أحضان الشره ، ويميل الى النهامة في المطعم والمشرب ويعكف على شهوة البطن ، ويفترس اللحم مسرفا كيف شاء ، فلقد حذر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

---

(١) راجع ص ٨٧ ، ٨٨ ج٢ ابن كثير .

من ذلك ، وقال رضي الله عنه : اياكم واللحم ، فان له ضراوة كضراوة الخمر ، ورأى جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ ومعه منه أحمال فقال له : ما هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين قرمنا الى اللحم فاشتريت منه بدرهم • فقال عمر : أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه عن جاره أو ابن عمه ؟ أين تذهب عنك هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها (١) » •

فالقصد والاعتدال شرعة الله ، ومذهب الصفوة ، يقول تعالى « •• وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين • قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » ـ ٣١ ـ ٣٢ الأعراف •

والاسلام ملة أبينا ابراهيم ، وقد سأل يوما زوج اسماعيل ولده ـ عليهما السلام ـ عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله عز وجل فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء • قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء (٢) •

وما دام الاسلام ينكر التناسخ ولا يقره فلن يعرف المسلمون يوما صياما عن اللحم بحال •

ولم يحدث بعد ابطال محاولة هؤلاء الصحابة شيء في الصدر الأول من الاسلام ، وقد صرح النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله : سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم ، وكان كبار الصحابة وغيرهم لا يمتنعون عنه ، ومنهم فقيه الأمة عبد الله بن

---

(١) ص ١٣٠ ج٢ الموطأ للامام مالك مطبعة دار احياء الكتب العربية .
(٢) صحيح البخاري باب يزفون النسلان في المشي .

عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فانه كان اذا جاء رمضان لم يفته اللحم (١) ·

ولا نستطيع أن نقول : انه مضر بالصحة جالب للأمراض ، ولكنا نستطيع أن نقول أنه مدد للصحة ، يعطيها حصانة وقوة تمنع الأمراض ، وانما يفسد الجسد اسراف وتخمة ، لا امتناع وتحريم ، فكانت العلة هي الاسراف نفسه يأتي بالبطنة ويثير بيت الداء ــ المعدة ــ فكان أن استهدف الاسلام الاسراف ووجه اليه المنع فنزل فيه التحذير ·

.. .. ..

وفي الاسلام قائمة منع أبدي تلزم كفا أبديا عنها :

قال تعالى : « قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله به (١٤٥ ــ الأنعام) » ·

ففي الآية الكريمة تحريم أربعة أشياء :

١ ــ الميتة : من حيوان حل أكله قضى عليه الموت حتف أنفه ، لا عن ذبح له أو صيد ، مهما اختلف سبب الموت : من منخنقة ، ماتت خنقا أو اتفاقا كما يحدث لبعضها أن تتخبل في وثاقها فيخنقها فتموت ، أو موقوذة : ضربت بخشبة أو نحوها حتى ماتت ، أو مترددية : قد سقطت من علو فماتت ، أو نطيحة : ماتت من نطح غيرها لها ، أو كانت ميتة من افتراس وحش ·

٢ ــ الدم المسفوح : وحرم هذا الدم الذي كان يستحله

(١) راجع ص ٢٨٩ الطب النبوي لابن قيم الجوزية مكتبة النهضة الحديثة والاول من سنن ابي داود .

عربي الجاهلية اذ يأخذ آلة حادة فيفصد بها بعيره أو حيوانا ما ثم يحتسي الدم الخارج منه ·

٣ ــ لحم الخنزير ·

٤ ــ ما ذبح مما حل أكله قربانا لوثن أو نصب فقد أهل لغير الله به ، كذلك حرم من « الشراب » الخمر ، وكل ما غيب العقل من جامد أو سائل ، وفي الخمر نزل قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (١) » ·

ولا يحل شيء مما تقدم الا اذا ألجأت الضرورة اليه ، ووقف الانسان ازاءه بين الهلاك أو الطعم منه ، فيحل له من « الأكل » قدر ما يمسك الرمق ، ومن « الشراب » قدر ما يزيل الغصة ·

قال تعالى : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم (٢) » ·

---

(١) سورة المائدة الاية ٩٠ .

(٢) سورة الانعام الاية ١٤٥ .

الاســلام والعمــل

مر بنا نماذج من الكف عن العمل :

كف اليد العاملة المنتجة نفسها حيث قبع صاحبها ـ أثناء صيامه فلزم حجرته ، وكانت المرأة مثله في بعض الأحوال ـ ولزمه المنع عن العمل فترة تطول (١) وتقصر (٢) حسب ما وضع لها من تشريع ·

وكف مصدر الانتاج عن العمل بتعطيله تماما كما في الأرض عند بني اسرائيل (٣) ونحن ـ اذا استثنينا ساعة فلكية أو أقل قليلا أو أكثر قليلا ، تأتي كل أسبوع مرة لأداء فريضة الجمعة ـ لا نجد في الاسلام منعا عن العمل غيرها ·

قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يــوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون · فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (٤) » ·

---

(١) راجع ص ٢٤ من البحث .
(٢) راجع ص ٢٧ ، ١٢٢ من البحث .
(٣) راجع ص ١٢٣ وما بعدها من البحث .
(٤) سورة الجمعة ، الايتان ٩ ، ١٠ .

فالاسلام لا يجعل من الكف عن العمل عبادة ، بل يجعل العمل عبادة ، وليس ـ في الاسلام ـ أمر الهي بكف المنتج أو مصدر الانتاج عن العمل في غير ساعة الجمعة ، ولا شعيرة من هذا النوع في جانب الدين تسوق الى صومعة فرهينة ، ولا في جانب الدنيا فتركن بالمرء الى البطالة ٠

لذا كان على المسلم أن يعمل ما وسعته الطاقة ليحصل من الرزق الحلال ما يستطيع ، فان الله يحب من عباده التقي الغني الخفي ، شريطة أن يعلم :

١ ـ أن هذا المال مال الله وأنه خليفته فيه ، فيعطي حق الله في هذا المال ولا ينفقه في حرام ، وأن يكون في انفاقه قواما فلا اسراف ولا تقتير ٠

قال تعالى : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه (١) » ٠

وقال سبحانه : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين (٢) » ٠

٢ ـ ألا تكون الدنيا أكبر همه ، فيعمل فيها لجاه من أجواه الناس ، وينسى مآله ضرورة حيث توفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ، وما سلك هذا المسلك الا طاغية ، قال تعالى : « ان الانسان ليطغى ٠ أن رآه استغنى (٣) » ٠

٣ ـ ألا ينسى حق جسده ، فليعمل بقدر طاقته ، وعلى الله قصد السبيل ٠

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام
على رسوله الأمين
محمد عليه أفضل الصلاة
وأزكى التسليم

---

(١) سورة الحديد ـ الاية ٧ ٠
(٢) سورة الاعراف ـ الاية ٣١ ٠
(٣) سورة العلق الايتان ٦ ، ٧ ٠